مفتاح فهم القرآن

تأليف المرحوم
المصلح الشهير والعلامة المُعَظَّم آية الله شريعت سنكلجي
(١٣٠٨ - ١٣٦٢هـ = ١٨٩٠ - ١٩٤٣م)

تعريب وتقديم وتحقيق
سعد محمود رستم

هذا الكتاب تم تنزيله من موقع العقيدة

www.aqeedeh.com

العنوان البريدي: book@aqeedeh.com

المواقع الإسلامية النافعة باللغة الفارسية

www.aqeedeh.com
www.islamtxt.com
www.ahlesonnat.com
www.isl.org.uk
www.islamtape.com
www.blestfamily.com
www.islamworldnews.com
www.islamage.com
www.islamwebpedia.com
www.islampp.com
www.videofarda.com
www.nourtv.net
www.sadaislam.com
www.islamhouse.com
www.bidary.net
www.tabesh.net
www.farsi.sunnionline.us
www.sunni-news.net
www.mohtadeen.com
www.ijtehadat.com
www.islam411.com
www.videofarsi.com

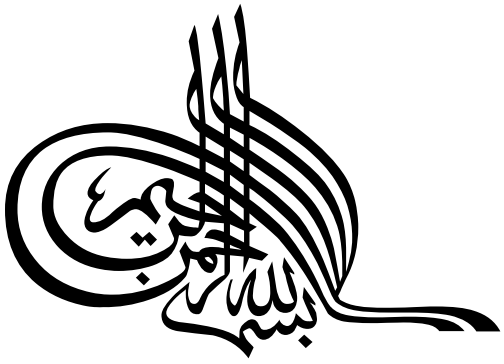

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾

فهرس المحتويات

نبذة مختصرة عن المؤلف المرحوم آية الله شريعت سنكلجي ٩

توطئة ١٥

القرآن لم يُـحَرَّف ٢١

القرآن قابلٌ للفهم ٣١

الآيات ٣١

وأما الأحاديث ٣٥

وأما دليل العقل ٣٦

ولكن قال جماعةٌ خلاف ذلك ٣٦

فهم القرآن يعتمد على معرفة أسباب النزول ٣٨

فهم القرآن يحتاج إلى معرفة أحوال العرب في عصر نزوله ٤١

القرآن يتضمّن كلّ ما يتعلّق بالدين والشريعة ٤٢

أحكام الشريعة في القرآن مجملة وتحتاج إلى السنة ٤٥

للقرآنِ ظهرٌ و بطنٌ ٤٧

المراد بالظاهر هو المفهوم العربي وبالباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه ٤٩

لكل من ظاهر القرآن وباطنه شرط، فشرط الظاهر أن يوافق لغة العرب ولا يخالف الشرع ٥٢

شرط فهم باطن القرآن أن يوافق لغة العرب ويشهد له الشرع، وتأويلات فرق الباطنية باطلة ٥٤
التفسير بالرأي وتقسيمه إلى جائز و ممنوع ٥٦
تقسيم موضوعات القرآن وبيان محتوياته ٦٠
مقاصد الشريعة ضروريَّة و حاجيَّة و تحسينيَّة ٦٣
الناسخ والمنسوخ في القرآن ٦٥
المحكم والمتشابه في القرآن وبيان حقيقته ٦٧
التحقيق في بيان المحكم والمتشابه ٧٢
النتيجة ٧٧
أمثلة على المحكم والمتشابه وطرق تأويل المتشابه ٧٨
النتيجة ٨٦
أقسام القرآن ٨٩
المُقْسَمُ به أو ما أقسم الله به ٨٩
أقوال العلماء في معاني فواتح سور القرآن ٩٢
أمثال القرآن ٩٩
معنى الـمَثَل وفرقه عن الـمِثْل ٩٩
فائدة التمثيل ١٠٠
أمثال القرآن على قسمين ١٠١
القرآن يحتوي على البراهين على أصول الإيمان ١٠٤
مقدِّمة ١٠٦
طريقة السفسطائية و الردّ عليها ١٠٧

إبطال كلام السفسطائية ١١٢
طريقة الحِسِّيِّين والتجريبيين وإبطالها ١١٤
طريقة الكشف والشهود عند الصوفية ١١٧
التحقيق ١٢٢
تقرير الكشف والشهود ١٢٤
إشكال حول طريقة الكشف والشهود ١٢٨
طريقة القرآن في اقتناص حقائق الأشياء ١٣٣
العوامل التي تساعد على التقليد ١٣٧
معالجة القرآن لمرض التقليد ١٣٧
الأخبار الواردة في فضيلة العلم ١٤١
علاج مرض التقليد يكمن في السير في الأرض ١٤٤
القرآن وحريَّة النفس ١٤٦
القرآن وحريَّة العقل ١٤٩
المانع الثالث من موانع التعقُّل: اتِّباع الهوى ١٥١
أدلة القرآن على إثبات خالق العالم ١٥٣
دليل العناية ١٥٣
الآيات الواردة في القرآن حول دليل العناية ١٥٤
دليل الاختراع لإثبات خالق العالم ١٥٥
الآيات الواردة في القرآن حول دليل الاختراع ١٥٦
دليل الاختلاف لإثبات خالق العالم ١٥٦
الآيات الواردة في القرآن حول دليل الاختلاف ١٥٧

صعوبة فهم التوحيد ١٦١
توحيد القرآن ١٦٤
دليل القرآن على توحيد الفاعلية ١٦٦
دليل القرآن على إثبات النبوة ١٦٨
دلائل القرآن على نبوَّة نبيِّ آخر الزمان ١٧١
الوحي ونزول جبرائيل ١٧٥
حقيقة الوحي ١٧٧
تحقيق ١٧٧
القرآن والبَعْثُ بعد الموت ١٨٣
أدلَّةُ القرآنِ عَلَى البَعْث ١٨٦
من أدلة القرآن الخاصَّة على البعث ١٨٧
القيامة والمعاد من وجهة نظر القرآن ١٨٨
أقسام القيامة والساعة ١٩٠
خاتمة الكتاب - تنبيه ١٩٣
خُطبَةُ حَجَّةِ الوَدَاعِ ١٩٣
مصادر الكتاب ١٩٧

مقدمة المترجم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحمد لِلَّهِ رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وآله الطيِّبين الطاهرين، وصحبه الأخيار الميامين، وبعد،

فمما لا شك فيه أن الابتعاد عن القرآن الكريم أهم سبب من أسباب انتشار الأفكار الخاطئة والبدع المضلة بين المسلمين، وأهم سبب لوقوع الفرقة والاختلاف بينهم؛ كما أنه مما لا ريب فيه أن العودة إلى كتاب الله تعالى والاستظلال بظله والاعتصام بحبله هو السبيل الوحيد للخلاص من كل ما شاب عقائد المسلمين وممارساتهم من شوائب بعيدة عن روح الإسلام، وهو الطريق الكفيل بإيجاد الاتحاد من جديد بين أبناء الأمة، وهذا ما بينه الله عز وجل بقوله: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ... ﴾ [آل عمران/ ١٠٣]، حيث فسَّر النبيُّ ﷺ حبلَ الله بالقرآن فقال: «**كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض**»[(١)]، كما أمر الله عزَّ وجلَّ بالعودة إلى القرآن عند التنازع والاختلاف بوصفه العصمة من الضلال فقال: ﴿ ..فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء/ ٥٩]، فهذه الآية الكريمة تحدِّد بشكل كلِّيٍّ المرجع الذي يجب أن يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف والتنازع، وهو الرد إلى الله والرسول، فالردُّ إلى الله، **الأخذ بمحكم كتابه**، والردُّ إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرّقة.

وقد ورد مثل هذا التفسير عن سيد العترة النبوية وأميرها أسد الله الغالب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال: «**وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ فَإِنَّهُ الحَبْلُ المَتِينُ، وَالنُّورُ المُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّيُّ النَّاقِعُ، وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ، لا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَلا يَزِيغُ**

---

(١) انظر تفسير الطبري، ذيل تفسيره الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

فَيُسْتَعْتَبَ، وَلا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ ووُلُوجُ السَّمْعِ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ..»[١]. وقال أيضاً: «**إنَّ عَلَى كُلِّ حَقٍّ حقيقةً، وعَلَى كُلِّ صَوَابٍ نُوْرَاً، فَمَا وَافَقَ كِتَابَ اللهِ فَخُذُوا بِهِ، ومَا خَالَفَ كِتَابَ اللهِ فَدَعُوهُ.**»[٢].

فالعودة إلى القرآن والاعتصام بحبل الله هو طريق الهداية والنجاة، وسبيل النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة؛ فعلى المسلمين جميعاً أن يرجعوا إلى القرآن ويَعْرِضُوا عقائدهم وآراءهم جميعاً عليه فبهذا سيبتعدون، بفضل الاعتصام والاستمساك بكتاب الله، عن كل زيغ وانحراف وكل تفرق واختلاف.

وفي هذا الإطار شهد القرن الميلادي العشرين منذ بداياته (أوائل القرن الهجري الرابع عشر) ظهور عدد من المصلحين المجدِّدين بين علماء الشيعة الإمامية الاثني عشرية في إيران دعوا إلى النقد الذاتي وإعادة النظر في بعض العقائد الشيعية التقليدية الموروثة، على ضوء القرآن الكريم، وكان إرهاصة هذا الخط التجديدي الإصلاحي وصاحب السبق فيه «**آية الله الشيخ محمد حسن شريعت سنگلجي**» (المتوفى سنة ١٩٤٣م) وقد أطلق بعض المعاصرين[٣] على أصحاب هذا التيار الإصلاحي اسم «**القرآنيين الشيعة**» لأن أصحابه أحسّوا بشيء من تغييب النص القرآني في الثقافة الشيعية لصالح الروايات والأخبار، لذا عملوا – من جهة – على ترسيخ المرجعية القرآنية، ولاسيما فكرة إمكان فهم النص القرآني البيِّن والواضح بذاته، دون الحاجة للروايات والأخبار لفهمه، كما عملوا – من جهة أخرى – على غربلة التراث الروائي الشيعي الذي امتلأ عبر الزمن بالأخبار الدخيلة، فنبذوا كل ما وجدوه مخالفاً لكتاب الله اتباعاً منهم للقاعدة التي وضعها أئمة أهل البيت عليهم السلام في عرض كل ما ورد عنهم على كتاب الله فما وافقه قُبِلَ

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٦.

(٢) الكُلَيْنِيّ، «الكافي»، بَابُ الْأَخْذِ بِالسُّنَّةِ وَشَوَاهِدِ الْكِتَاب، ح ١، ج ١/ ص ٦٩.

(٣) حيدر حب الله، «نظرية السنة في الفكر الإمامي الشيعي، التَكَوُّن والصيرورة»، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠٠٦م، ص ٦١٢ فما بعد.

وما خالفه وجب تركه، من هنا يمكن اعتبار آية الله الشيخ شريعت سنگلجي «**مؤسّس المدرسة السلفية القرآنية الشيعية الحديثة**».

وكتاب «**مفتاح فهم القرآن**» الذي بين أيدينا والذي نقدم له، يُعَدُّ من أهم ما ألّفه المرحوم سنگلجي في هذا الإطار، وقد كتبه بعد تأليفه لكتابه الشهير «**توحيد العبادة**»، وكان من آخر ما ألفه قبل أن ينتقل إلى جوار ربه.

في هذا الكتاب يظهر بوضوح منهج الشيخ سنگلجي الإصلاحي حين يصرِّح فيه **أن المسلمين هجروا القرآن، فكان نصيبهم الفشل والخسران، وأن الحّل الوحيد يكمن في الرجوع إلى الكتاب الكريم**. إلاّ أنّ السؤال كيف يمكن فهم القرآن؟ هذا ما يجيب عنه «شريعت سنگلجي» **بأخذ الدين عن السلف لا عن الخلف، أولئك - أي الخلف - الذين جاؤوا مع الفلسفة والتصوّف والاعتزال**[1]. ولكي يؤسّس لمرجعية القرآن ودور السنّة الشريفة طرح في كتابه أفكاراً أساسيةً هامَّةً حول القرآن الكريم وحجيّة ظواهره والطريق الصحيح لتفسيره وفهمه، بعيداً عن تأويلات أصحاب الفرق والمذاهب والأهواء وتحريفات الغالين.

وأول ما افتتح به سنگلجي بحثه إثبات أن النص القرآني غير محرّف، فذكر أدلّته القاطعة على ذلك، ثم بيَّن أن القرآن قابلٌ للفهم تماماً، لا يحتاج إلى غيره، وأنه لا يجوز تفسير القرآن بالرأي أي بالعقائد والآراء المأخوذة من غير القرآن، أو بالاستناد إلى أخبار تصرف الآيات عن معناها اللغوي الظاهر، وأن هذا من قبيل التفسير الباطني الباطل، وقد بين شروط التفسير حتى يكون صحيحاً، وبين أهمية معرفة أسباب النزول ومعرفة أحوال العرب في الجاهلية لفهم القرآن فهماً صحيحاً. ثم عقد فصولاً ممتازة في بيان المعنى الصحيح المراد من «**البطن**» في مقولة إن للقرآن ظهراً وبطناً، وشَرَحَ كيف أن شرط فهم باطن القرآن أن يوافق لغة العرب ويشهد له الشرع، وبيَّن بطلان تأويلات فرق الباطنية وكيف أنهم حرّفوا معاني القرآن توصُّلاً إلى مقاصدهم. ثم بيَّن سنگلجي أن القرآن مستوعبٌ لتمام قضايا الدين الأساسية، وهو أفضل دليل على عقائد

(١) شريعت سنگلجي، «كليد فهم قرآن»، ص ٣- ٤-٥.

الدين وأصوله، وبراهين القرآن تمتاز وتعلو على ما تذكره كتب المتكلمين أو الفلاسفة في الاحتجاج على أصول الدين. ويرى سنگلجي أن السنة دورها تفصيل ما أجمل الكتاب ذكره من أمور الشرعيات والفروع، أما العقائد الأساسية التي عليها مدار النجاة والهلاك فالقرآن هو الذي تكفَّل ببيانها وبيانه في ذلك واضح وكاف[1].

ولا نريد هنا أن نلخِّصَ كل مباحث الكتاب، ونقول باختصار إن الشيخ «شريعت سنگلجي» قدَّم في هذا الكتاب وفي غيره من كتبه رؤية عصرية للإسلام في إيران استحق أن ينال عليها لقب المصلح الأكبر من قبل أتباعه؛ حتى أن بعض الباحثين الإيرانيين شبَّه حركة الشيخ «شريعت سنگلجي» التصحيحية بحركة «مارتن لوتر» و «جان كالفن» اللذين كانا يريدان العودة بالمسيحية إلى أصولها الأولية وتخليصها مما لحق بها من خرافات وبدع.

هذا وقبل الانتهاء من هذه المقدمة أذكر نبذة مختصرة عن مؤلف الكتاب:

❊❊❊

(١) المصدر السابق، ص ٣٩-٤١.

نبذة مختصرة عن المؤلف المرحوم آية الله شريعت سنكلجي

ولد الشيخ «شريعت سنگلجي» في مدينة طهران عاصمة إيران عام ١٢٦٩هـجرية شمسية (يقابل ١٣٠٨هـ ق. أو ١٨٩٠م)[1] في بيت علم ودين، فقد كان والده الحاج الشيخ «حسن شريعت» وجدّه الحاج «رضا قلي» كلاهما من علماء الدين وفقهاء الشرع المعروفين في عصرهم؛ فدرس «شريعت سنگلجي» منذ نعومة أظفاره مقدّمات العلوم الشرعية، ثم بدأ بتحصيل علوم الفقه على يد الحاج الشيخ عبد النبي المجتهد النوري (١٣٤٤هـ)، ودرس الفلسفة على يد الشيخ الميرزا حسن الكرمانشاهي (١٣٣٤هـ) وأخذ علوم الباطن والعرفان (أي الفلسفة الصوفية) على يد الشيخ الميرزا هاشم الإشكوري (١٣٣٢هـ)، كما تتلمذ على الشيخ علي النوري والشيخ الشهيد الشهير فضل الله النوري (١٣٣٠هـ).

في عام ١٢٨٧ هجرية شمسية (١٣٢٦هـ)، رحل «شريعت سنگلجي» إلى النجف لإكمال دراسته الدينية، حيث تتلمذ هناك على كبار علماء الحوزة العلمية فيها مثل السيد ضياء الدين العراقي (١٣٦١هـ)، والعلامة والمرجع الكبير آية الله السيد أبو الحسن الأصفهاني (١٣٦٥هـ).

بعد أن أمضى سنوات في تحصيل العلوم الشرعية في النجف عاد سنگلجي إلى طهران عام (١٣٤٠هـ)، واشتغل بالوعظ والخطابة الدينية وهو في الثلاثين من عمره، فكان يلقي دروساً في ليالي الجمعة في مسجد والده الحاج الشيخ حسن سنگلجي، وفي الوقت ذاته كان يحضر مجلس دروس التفسير لآية الله العلامة السيد أسد الله خرقاني (١٣٥٥هـ) وقد تأثر بمنهجه الإصلاحي التوحيدي.

اتسعت مجالس تدريس وخطابة الشيخ سنگلجي يوماً بعد يوم ولم يعد يتّسع لها مسجد حي «سنگلج» الصغير الذي أصبح مركزاً لتجمُّع الشباب المتدين والمثقف واتخذ عنوان «دار التبليغ الإسلامي» وتحول إلى قاعة كبيرة، ثم انتقل نشاط دار التبليغ هذه إلى مكان يقع في شارع

---

(١) وقيل أيضاً أنه ولد عام ١٢٧١ هجرية شمسية (يقابل ١٣١٠ هـ. ق. أو ١٨٩٢م).

«فرهنگ» جنوب طهران.

نحى الشيخ «شريعت سنگلجي» منحى إصلاحي تجديدي في دروسه وأصبح من أعلام حركة التنوير والتجديد والإصلاح الديني في إيران التي يطلق عليها المؤرخون بالفارسية لقب «نوگرايي دينى» والتي كان أهم ما يميزها المناداة بالعودة إلى القرآن ونبذ الغلو الخرافات الكثيرة التي علقت بالدين عبر الأزمنة وتراكمت عليه كالغبار الكثيف فذهبت بجماله ونضارته ونقائه ونفَّرت المثقفين منه.

تحوّل سنگلجي إلى تيار في إيران، إذ وقع تحت تأثيره جماعة، واستمرّ تياره في النفوذ والتنامي داخل الوسط الديني حتى نهاية الخمسينات من القرن العشرين حين طغت عليه الأحداث السياسية للثورة الإيرانية، فغاب عن الواجهة. لكن عديداً من المثقَّفين المتنوِّرين لا يزالون يهتمّون بكتاباته وكتابات المجدِّدين ودعاة تصحيح العقائد أمثاله وينشرونها خاصّة في العقدين الأخيرين.

أنجب «شريعت سنگلجي» ولدين هما «محمد باقر» و«عبد الله». وانتقل إلى رحمة الله في طهران عام ١٣٢٢ هجرية شمسية (الموافق لـ ١٣٦٢هـ و١٩٤٣م) عن عمر لم يتجاوز ال ٥٣ عاماً، فرحمه الله وغفر له[١].

المترجم

غرَّة جمادى الأولى ١٤٣٠هـ ق

ملاحظة: لقد ذيَّلْتُ حواشي التحقيق التي أضفتُها للكتاب برمز: (تر)، أي للمترجم (كاتب هذه السطور)، لتمييزها عن كلام المؤلف نفسه.

(١) استقيتُ هذه الترجمة لحياة المؤلف من عدة مصادر أهمها: كتاب المؤرخ الإيراني المعاصر «رسول جعفريان» المسمى: «جريانها وسازمانهاى مذهبى-سياسى ايران» (أي التيارات والمنظمات الدينية-السياسية في إيران) طهران، نشر مؤرخ، ط ٨، ١٣٨٦هـ ش (٢٠٠٧م)، الفصل الثامن: التيارات المطالبة بإعادة النظر في عقائد الشيعة، ص ٨١١ إلى ٨١٦. ومن كتاب الباحث اللبناني الفاضل «حيدر حب الله»: «نظرية السنة في الفكر الإمامي الشيعي، التَكَوُّن والصيرورة»، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠٠٦م، ص ٦١٢ فما بعد.

صورة لثاني صفحة من كتاب «مفتاح فهم القرآن» باللغة الفارسية

ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ

کلید فهم قرآن

بانضمام براهین القرآن

تألیف:

مرحوم علامۀ معظم

شریعت سنگلجی

مؤسسۀ انتشارات دانش

تمثال علامه معظم حاج شریعت سنگلجی غفرالله له

اینك رباعی راکه آن فقیدسعید در ذیل عکسهای خود مرقوم میداشته اند در زیر این تمثال نیز نگاشته میشود .

چون عود نبود چوب بید آوردم　　روی سیه و موی سپید آوردم
تو خود گفتی که ناامیدی کفر است　　بر قول تو رفتم و امید آوردم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾[1] ﴿لَّقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2]

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[3] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4] ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[5] ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[6] ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[7] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) الكهف/ ١-٥. (تر)

(٢) آل عمران/ ١٦٤. (تر)

(٣) العنكبوت/ ٤٨ -٤٩. (تر)

(٤) ص/ ٢٩. (تر)

(٥) الزمر/ ٢٣. (تر)

(٦) الحشر/ ٢١. (تر)

(٧) الأحزاب/ ٤٠. (تر)

وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمًا ٤٤﴾[2].

(١) الأحزاب/ ٥٦. (تر)

(٢) الأحزاب/ ٤١-٤٤. (تر)

توطئة

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ؟!﴾ [محمد/ ٢٤].

لقد نبَّهتني هذه الآية وأيقظتني قبل أربعة عشر عاماً إلى ضرورة التدبُّر في كتاب الله والدستور السماوي وأن فهم الدين والعمل بشريعة سيد المرسلين رهنٌ بتدبُّر آيات القرآن والتعمُّق في كلام الله سبحانه؛ فالقرآن كتاب دينيٌّ وفلسفيٌّ واجتماعيٌّ وأخلاقيٌّ وحقوقيٌّ ولا يجوز الاكتفاء بقراءة ظاهره بل لا بد أن يتعلم الإنسان جميع شؤون الحياة من القرآن، لأن فلاح الدنيا والآخرة منوط بتعلُّم القرآن، لذا فتدبُّر القرآن واجبٌ على كل فرد مسلم، ولكن القرآن أصبح في زماننا مهجوراً ومتروكاً تماماً وهذا هو السبب في شقاء المسلمين وهو عدم أخذهم دينَهُم من القرآن وعدم تعمُّقهم في آياته بل اتَّخَذَ كلُّ فريق منهم عقائده وآراءه من مصادر غير القرآن مما أوقع خلافات عجيبة بين المسلمين.

والتدبُّر في القرآن يعتمد على تحصيل مقدمات مثل البحث في أحوال الرسول الأكرم ﷺ ومعرفة لغة العرب زمن الجاهلية ومعرفة أسباب نزول الآيات والاطلاع على أحوال العرب في عصر الرسالة والرجوع إلى تفاسير السلف الصالح، وقد بذلتُ جهوداً مُضنيةً في تحصيل هذه المقدمات وطالعتُ الكتب المدونة التي تتعلق بهذه الموضوعات، فرأيت أن هذه المقدمات لا تكفي لفهم القرآن بل لا بد من أن يبتعد الإنسان بنفسه عن كل تقليد وأن يدع كل تعصب جانباً وأن لا يتلقَّى فهم القرآن وتفسيره من مفسري الفرق الذين اتخذ كل منهم عقيدة ومذهباً ورأياً وذلك لأن مذاهب الإسلام المختلفة إنما نشأت بعد القرن الثاني وفسَّر كل واحد من أتباعها القرآنَ بما يوافق مذهبه وهواه، فإذا أراد الإنسان أن يفهم القرآن من هذه التفاسير المختلفة وقع في حيرة وضياع، فواحد منهم معتزليّ وآخر أشعريّ وثالث باطنيّ وآخر من الغلاة وَمُفسِّرٌ جُهَمِيّ وآخرُ ظاهريٌّ ومفسِّرٌ زيديٌّ وآخرُ إسماعيليٌّ وَمُفسِّرٌ أخباريٌّ وآخرُ أصوليٌّ، وَمُفسِّرٌ

صوفيٌّ وآخرُ فلسفيٌّ وَمُفسِّرٌ قاديانيٌّ وآخر مُرجئيٌّ وغير ذلك وبينهم اختلافات كثيرة في فهم الآيات وتفسيرها إلى درجة أنه لو أراد أحد أن يبني عقيدته ورأيه على هذه التفاسير لتاه واحتار وضاع في متاهات الضلال، وربما جرّه هذا الضياع -نعوذ بالله- إلى الإلحاد والخروج من الدين!.

ثم إن الجمود على التفاسير والتعبُد بأقوال المفسِّرين هو في حدِّ ذاته نوع من التقليد في الدين والعقيدة وهو حرام بنص القرآن الذي قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف/ ٢٣]. ولما كان الفرار من التقليد والتخلي عن الأفكار المسبقة أمراً صعباً، لذا توجهت إلى مسبب الأسباب ومسهل الأمور الصعاب، فوفَّقني الله بحمده لكشف أمر هام وفتح أمامي طريقاً لفهم الدين وتدبر القرآن المبين وهو وجوب أخذ الدين من السلف لا من الخلف، وبعبارة أوضح لا بد أن نرى كيف كان فهم مسلمي الصدر الأول للقرآن وأي دين كان لدى المسلمين قبل أن تنشأ الفلسفة والتصوف والأشعرية والاعتزال؟ أما لو قام من يريد أن يتدبر القرآن بفهم القرآن من كتابات الخلف - لا سمح الله- ولم يولي أي عناية لفهم السلف الصالح فإنه سيقع أسيراً بلا ريب لإحدى تلك الفرق، نعوذ بالله من الضلال.

بعد أن تفطنت لهذا المعنى وهداني الله إلى طريق الصواب قَطَعْتُ -بحول الله وقوَّته- مرَّةً وإلى الأبد قيود التقليد ومزَّقْتُ حُجُبُ التعصُّب والأوهام، وألقيتُ عن كاهلي حِمْلَ الخرافات الثقيل، وأخذتُ -بعناية الله -الدينَ عن السلف الصالح واهتديتُ بخير الحديث كتابِ الله تعالى واهتديت بهداية القرآن، وقلتُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ...﴾[الأعراف/ ٤٣].

إحدى المؤيدات التي ساعدتني على فهم الدين ومعرفة حقيقة شريعة سيد المرسلين وعرفتني بحقائق القرآن هجوم حوادث الزمان وما اعترضني من جفاء الدهر! وذلك بمفاد «السعادة بنت المتاعب»، فلقد أُوذيت مِنْ قِبَلِ أبناء الزمان وتحمَّلت من أذاهم الكثير من العناء، وسَبَبُ ذلكَ أَنَّني أُصِبْتُ بحسد الأقران لما أكرمني الله به من بعض نعمه ومن علم وعمل، فقام بعض الحُسَّاد بإيذائي بكل نوع من أنواع الأذى، وكالوا لي كلَّ تُهْمَةٍ وافْتِرَاء وإهانة لم يقع مثلها

لـ«يزيد» و«شِمْر»! بل حاولوا قتلي مرتين لكن الله حفظني من شرهم، وكانوا يظنون أن الله يسلم عباده إلى أيدي الحساد ولم يدروا أن القلوب بيد مقلب القلوب والعز والذل والحياة والموت بيد قدرته وحده:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران/ ٢٦].

والسبب الآخر لعداء الأقران وأبناء الزمان لي أن الله تعالى هداني لمعرفة دينه، فرأيت أن هناك خرافات كثيرة دخلت الدين وأن هناك أباطيل وأوهام كثيرة أُلصقت بالقرآن، ورأيتُ أن مبادئ الأديان الباطلة وخرافات الأمم السالفة قد حلَّتْ في مجتمعنا محلَّ تعاليم دين الإسلام، حتى لم يعد هناك امتياز بين الإسلام والخرافات، وازدهرت آلاف الأنواع من الشرك وعبادة الأصنام باسم الدين والتوحيد! وراجت آلاف الأنواع من البدع والخرافات باسم سنة النبي ﷺ! ولو واصل المسلمون هذا الطريق ولم يميزوا بين الحقيقة والزيف والحق والباطل فلن يبقى أي عاقل ومثقف متعلِّم في هذا الدين، لذا رأيت لزاماً عليّ، طبقاً لأمر الرسول الأكرم ﷺ الذي قال: «**إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ فِي أُمَّتِي فَعَلَى الْعَالِمِ أَنْ يُظْهِرَ عِلْمَه وَ إِلَّا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله**»[1]، أن أقوم ببيان ما علَّمني الله من أمر الدين وأن أفصل بين الخرافات والقرآن الكريم، وأن أُعَرِّفَ المسلمين بالدين الحقيقي، لا أطلب في ذلك سوى رضا حضرة الرحمن، وحفظ القرآن ومتابعة السلف الصالح وأداء أمانة السلف للخلف، ولا تأخذني في ذلك لومة لائم:

أجدُ الملامة في هواك لذيذةً حباً لذكرِكَ فلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

لكن لما وجد أنصار الخرافات والجهل أنهم لا يستطيعون مواجهتي بالدليل والقرآن، أخذوا يثيرون العوام ضدِّي، ولم يتوانوا عن أي افتراء وإهانة في حقي ونسبوا إلي مذاهب وآراء باطلة، بل سعوا بالوشاية ضدي، ولولا حفظ الله لي لكانت مساعيهم كفيلة بالقضاء عليّ وعلى حياتي وأسرتي.

---

(١) الكُلَيْنِيّ، «الكافي»، ج١/ ص ٥٤. بلفظ قريب. (تر).

والخلاصة لقد فعلوا كل ما استطاعوا فعله ولم يكن لي في كل ذلك أي مدد ونصير سوى الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾! [الطلاق/ ٣].

لا شك أن تلك الضغوط والمصاعب كانت مفيدة لي وأوقفتني أكثر على عيوبي، وفي النتيجة قطعتُ تعلُّقَ القلب بالخَلْق ووصلتُهُ بالخالق فقط، ولا شك أن الانقطاع عن الخلق يورث في النفس ضياءاً ونوراً، وأن الله تعالى يحل للإنسان مشاكله، وأن التمسُّكَ بعروة التوحيد الوُثْقى يهدي الإنسان إلى طريق الحقِّ والصواب كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران/ ١٠١].

إذن فقد استفدت من ذلك الإيذاء، فهل استفاد أقراني من ذلك أيضاً أم لا؟ الله وحده يعلم.

يا من هو أقرب من حبل وريدي ... في حبك فارقت قريبي وبعيدي
قطعت القلب عن الأغيار ووصلته بك يا ربّ ... لأن مفتاح قفل القلب بيدك يا إلهي
إحسانك قد تمّ وإنعامك قد عمّ ... غفرانك يا ربي بنا غير بعيد
لقد وصلتَ ما قطعتُهُ بجهلي ... ومزَّقتَ ما وصلناه بجهلنا
لا أثر لهمتنا مع همتك ... أوكلتُ إليك الهمة فاجعلني مريدا لك

نعم، لقد انشرح قلبي واستنار عقلي واهتديتُ بفهم القرآن ووجدت توحيد الإسلام الحقيقي وكتبتُ مؤخراً كتاباً في هذا الباب باسم «**توحيد العبادة**» وأهديته لروح خاتم الأنبياء ﷺ وطلبت القبول والأجر من الله ولم أخف من إهانات الناس. واليوم اهتممت بتحرير هذا الكتاب والغرض منه بيان طريق فهم القرآن، لأن أدعياء الباطل قد سدُّوا على الناس – بواسطة الآثام التاريخية – طريق فهم القرآن، ولم يَدَعُوا أحداً يرد إلى نبع التوحيد الزلال وبحر الحقائق العذب، فأوضحتُ للناس بحمد الله الطريقَ وفتحتُهُ للمسلمين كي يتمكَّنُوا من الورود إلى سلسبيل التوحيد وكوثر الفضائل.

ولما رأيت أنني لو لم أكتب ما أفاض الله تعالى علي من فضله فستتعرض هذه المعلومات للنسيان، شرعت في الكتابة بقلمي هذا المتواضع ورغم قلة براعتي بالفارسية، وكان هدفي الأول

أن لا تُنسى هذه الموضوعات وهدفي الثاني أن أجعل اهتداء الناس إلى القرآن، بفضل هذا الكتاب، ذخيرةً لي يوم المعاد: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

شريعت سنگلجي

القرآن لم يُحَرَّف

الدليل على أن القرآن لم يصبه أي تحريف عدة أمور:

١ - قولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر/ ٩].

هذه الآية الكريمة نصٌّ صريحٌ في أن الله حافظٌ للقرآن وبالتالي فلا يمكن تَصَوُّر أي زيادة أو نقصان فيه:

وعدَ اللهُ المصطفى ... إن متَّ فلن يموت هذا الكتاب

أنا حافظ للكتاب والمعجزة ... أنا رافض للزيادة في القرآن والنقيصة

أنا رافع شأنك في العالَمين ... أنا دافع للطغاة عن حديثك

لا أحد يستطيع الزيادة أو النقصان فيه ... لا تبحث عن حافظ آخر غيري

٢ - قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت/ ٤٢]. في هاتين الآيتين تصريح بعدم طروء أي تحريف على القرآن كما أن هاتين الآيتين كافيتان في الدلالة على عدم نقصانه.

٣- لو دققنا في تاريخ تدوين القرآن لأدركنا أنه من المستحيل أن يقع في كتاب الله أي تحريف.

فالقرآن جُمع في عهد رسول الله ﷺ وكانت كلما نزلت آيةٌ قال الرسول الأكرم ﷺ ضعوا هذه الآية في الموضع الفلاني، وكلما نزلت سورةٌ أمر النبيُّ بوضعها إلى جانب السورة الفلانية، ويقول أنس بن مالك: «**جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ أَرْبَعَةٌ، كُلُّهُمْ مِنَ الأَنْصَارِ أُبَيُّ بنُ كَعْب، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبُو زَيْدٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ.**»[(١)]. إلا أن القرآن لم يُجمع في عهده ﷺ بين دفتين، لكن كثيراً من الصحابة كانوا ملتزمين بحفظ القرآن، فكانوا يحفظون كل آية تنزل، كما كانت

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، والترمذي في سننه وأحمد في مسنده وغيرهم. (تر)

عادة العرب بحفظ الأنساب والتواريخ والشعر، وكان جماعة من الصحابة يكتبون ما ينزل من الآيات على الرقاع وألواح الأكتاف وعُسُب[١] النخل فلما توفي رسول الله ﷺ وتفرّق حفظة القرآن خاف الصحابة من أن يضيع القرآن إذا قُتل الحفظة أو ماتوا فقرروا أن يجمعوه بين دَفَّتَيْن.

فقد روى زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ[٢] قَالَ أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عِنْدَهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ. فَقُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ الله ﷺ؟ فقَالَ عُمَرُ: هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَى عُمَرُ. قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لاَ نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ الله ﷺ **فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ... فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ... فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ**[٣]، إلى أن أرسل عثمان في خلافته شخصاً إِلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ: أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا الْقُرْآنُ. فَأَرْسَلَتْ

---

(١) العُسُب بضم فسكون وبضمتين أيضاً جمع عسيب وهو جريد النخل كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. (تر)

(٢) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي يقال إنه شهد أُحُدَاً واستُصْغِرَ يوم بدر ويقال أول مشاهده الخندق وكتب الوحي وغيره للنبيّ (ص) وكان من علماء الصحابة وأعلمهم بالفرائض وفيه جاء الحديث أفرض أمّتي زيد بن ثابت، وعن خارجة بن زيد عن أبيه قال: «أُتيَ بي النبيَّ (ص) مقدمه المدينة فقيل هذا من بني النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة فقرأتُ عليه فأعجبه ذلك فقال: «**تعلم كتاب يهود فإني ما آمنهم على كتابي.**»، ففعلتُ فما مضى لي نصف شهر حتى حذقته فكنت أكتب له إليهم وإذا كتبوا إليه قرأت له». استخلفه عمر بن الخطاب على المدينة ثلاث مرات وكان عثمان إذا حج يستخلفه على المدينة أيضاً، و رُمِيَ زيدٌ يوم اليمامة بسهم فلم يضره. واختلف في وقت وفاته فقيل سنة ٤٥هـ وقيل غير ذلك. انتهى ملخصاً من الإصابة والاستيعاب. (تر)

(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، والترمذي في سننه وأحمد في مسنده وغيرهم. (تر)

بِهَا إِلَيْهِ حَفْصَةُ فَأَمَرَ عُثْمَانُ: «زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ» وَ«سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ» وَ«عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ» وَ«عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ» أَنْ يَنْسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ لَهُمْ: **إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي عَرَبِيَّةٍ مِنْ عَرَبِيَّةِ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهَا بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ بِلِسَانِهِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى كُتِبَتِ الْمَصَاحِفُ، ثُمَّ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَبَعَثَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ (أي مدينةٍ) بِمُصْحَفٍ..**[1].

ويقول زيدٌ: رأيتُ أصحابَ النبيِّ ﷺ يقولون: نِعْمَ مَا صَنَعَ عُثْمَانُ. و قال عليٌّ عليه السلام: لو ولِّتُ الأمر لفعلت مثلما فعل عثمان.

٤- انتشر الإسلام في الجزيرة العربية في حياة النبي الأكرم ﷺ وعلت راية «لا إله إلا الله» في كل المنطقة الممتدَّة من بحر قزوين إلى سواحل اليمن ومن الخليج الفارسي إلى نهر الفرات، وكانت في جزيرة العرب مدن وقرى كثيرة كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلي طيء وبلاد مضر وربيعة وقضاعة والطائف ومكة وكان جميع أهل تلك البلدان والمدن والقرى مسلمين وقد بنوا المساجد ولم تكن هناك قرية ولا مدينة إلا ويجتمع فيها المسلمون للصلاة ويقرؤون القرآن ويعلِّمُون القرآنَ لأطفالهم ونسائهم ورجالهم، فكان القرآن الكريم إذن في متناول أيدي الناس في جميع أنحاء الجزيرة العربية زمن النبي ﷺ وكانوا يعتنون كل العناية بضبطه وحفظه، ولما كان القرآن كتاباً دينياً وأخلاقياً وحقوقياً وسياسياً كان مرجع الناس الأوحد في شؤون دينهم ومجتمعهم.

بعد رحيل رسول الله ﷺ وَلِيَ أبو بكر الخلافة سنتين وستة أشهر وحارب فيهما فارس والروم وفتح اليمامة ولم يكن بين المسلمين أي خلاف بشأن القرآن وكانت مرجعيتهم منحصرة بالقرآن وقد جمع بعض الصحابة في ذلك الزمن القرآن بين دفتين مثل علي عليه السلام وعمر وعثمان وزيد وأبي زيد وابن مسعود وغيرهم من الناس في المدن فلم تبقَ مدينةٌ إلا وكان القرآن رائجاً ومنتشراً بين أهلها.

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، ج٢/ ص ٤١، ح (٢٤٧٠). (تر)

بعد وفاة أبي بكر وَلِيَ عُمَرُ الخلافة وفتح جميع مدن بلاد فارس والشام وبين النهرين ومصر ولم تبقَ مدينة إلا وقد بنى المسلمون فيها مسجداً ونسخوا من القرآن نسخاً وكان أئمة الجماعات يقرؤون القرآن للناس في صلواتهم وفي غير صلواتهم، ويعلِّمون الأطفالَ القرآن في الكتاتيب، وكان الناس يقرؤون القرآن في المساجد، وقد دامت خلافة عمر عشر سنوات وبضعة أشهر وعند وفاة عمر كان هناك أكثر من مئة ألف نسخة من القرآن منتشرة في أطراف العالم الإسلامي.

وكذلك في خلافة عثمان التي دامت اثنتي عشرة سنة لم يكن للمسلمين مرجع وكتاب آخر سوى القرآن المجيد ولم يكن لهم قانون وتشريع سوى القرآن فكانوا يبحثون عن جميع حاجاتهم الدينية والدنيوية فيه.

وخلاصة الكلام أن المسلمين، - بعد الإيمان بالله - لم تكن بينهم وبين الله من واسطة وارتباط سوى تلاوة القرآن والعمل بأحكامه وتعاليمه، فإذا كان الأمر كذلك وكانت عناية المسلمين بحفظ القرآن متواصلة منذ عصر النبي ﷺ وحتى خلافة عثمان، فكيف يمكن أن نتصور أن تنقص آية من القرآن أو يضيع ثلث القرآن من أيدي المسلمين [كما تدَّعي بعض الروايات المُخْتَلَقة]؟؟ إننا لو تأملنا الموضوع بدقّة لعرفنا أنه كان من المستحيل أن يستطيع أحد إنقاص سطر واحدٍ من القرآن.

٥- أحد الأدلة الواضحة على عدم النقصان والتحريف في القرآن، تقرير إمام المتقين علي عليه السلام، فقد تولَّى أمير المؤمنين الخلافة وحكم المسلمين خمس سنوات وتسعة أشهر وكان من صفاته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة العدل والتقوى ولم يكن يمنعه شيء من ذلك ولم تكن تأخذه في قول الحقّ لومة لائم لا يخشى أحداً سوى ربه تبارك وتعالى، وكان خشناً في ذات الله لا يتوانى لحظة واحدة عن رفع الظلم وإقامة العدل حتى أنه لم يرضَ أن يبقى معاوية في حكم الشام يوماً واحداً وقال إني لا أرضى أن يحكم ظالمٌ على مظلوم لحظةً واحدةً حتى لو زالت الخلافة من يدي، وقد خاض حروباً دموية لأجل عزل معاوية وإزالة الظلم، وكذلك في معركة النهروان، كم تحمَّل من البلايا والشدائد للقضاء على الظلم حتى انجرّ الأمر في النهاية إلى

استشهاده.

فإذا كان كذلك فعلينا أن ننظر بإنصاف وتجرُّد ونسأل أولئك الذين يدَّعون أنَّ أمير المؤمنين أخفى القرآن الصحيح لديه وسلَّمه إلى الإمام من بعده وانتقل من يد إمام إلى يد الإمام الذي تلاه حتى وصل إلى يد إمام الزمان وحَرَم بذلك الناس من الاهتداء بالقرآن الصحيح، أليس في هذا الكلام إهانة للمقام المقدس لأمير المؤمنين؟ هل يجوز أن نفتري مثل هذا الافتراء بأن ندعي أن علياً الذي كان خليفة للنبيِّ في حكم المسلمين قرابة ست سنوات كان فيها الحاكم المطلق على عالم الإسلام وكان يرى أن المسلمين يتعاملون في مساجدهم ومدارسهم مع قرآن ناقص ومحرف، ويعلم أن لا ضلال أكثر من هذا الضلال لأن القرآن عماد الإسلام، ومع ذلك لا يعير اهتماماً -والعياذ بالله- لهذا الأمر ولا يسعى في إصلاحه، في حين يبذل كل تلك التضحيات لعزل معاوية! هل يمكن لأمير المؤمنين الذي لم يكن يرضى بقاء حكومة معاوية لحظةً واحدةً حتى لو عرَّض خلافته للخطر أن يرضى ببقاء قرآن ناقص أو محرف بين أيدي المسلمين؟!

وكذلك توسَّد الإمام الحسن سُدَّة الخلافة وحكم المسلمين ستة أشهر فلماذا لم يضع القرآن الصحيح بين أيدي الناس؟ وكذلك الإمام الحسين الذي كان من أعبد العباد لِلَّهِ وأشجع أهل الدنيا وأكثر أهلها تديُّناً وتضحيةً لماذا لم يُعَرِّف الناس يوم عاشوراء بالقرآن الصحيح، ولم يكن الحسين يمارس التقية لأنه ضحى بنفسه وبأولاده في سبيل الله وكان يكفيه لفضح أعدائه أن يقول: أيها الناس! إن هؤلاء غيروا القرآن وحرفوا كتاب الله وقتلوا أبي وأخي وأولادي والآن يريدون قتلي.

إننا نسأل أولئك الذين يقولون بوقوع التحريف في القرآن: أليست هذه المقالة -إضافة إلى كونها خطأً علمياً وعقلياً وتاريخياً- كفراً؟ ألا يُعَدُّ من يقول بمثل هذا القول كافراً؟ وذلك لأنه بقوله هذا ينكر القرآن الذي يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر/ ٩]. وثانياً يهين المقام المقدس لأمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام، أليس من يضعف من شأن القرآن ويفتري على أئمة الإسلام خارجاً عن شريعة سيد المرسلين؟

لو عرف القائلون بالتحريف أن هذا القول إنما نشره الملاحدة والزنادقة والباطنية في الإسلام لما قالوا بمثل هذه الترهات والأباطيل أبداً ولكن ما العمل؟! ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[١] ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢].

٦- إن كبار علماء الإمامية و محققي الفرقة الجعفرية يعتقدون بأن كتاب الله لم يُحَرَّف أبداً بأي شكل من الأشكال، وتأكيداً لهذه الحقيقة سنذكر فيما يلي أقوالهم:

١- قال **الشيخ الصدوق** (محمد بن علي بن بابويه القمي) في كتابه «**الاعتقادات**»: «**اعتقادنا: أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد (صَلَّى اللهُ عَلَيه وَآلِهِ) هو ما بين الدفتين وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك.... ومن نسب إلينا أنا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب.**»[٣].

٢- وقال الشيخ «**المفيد**» في أواخر فصل الخطاب من كتابه «**أوائل المقالات**»: «وقد قال جماعة من أهل الإمامة **إنه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة** ولكن حذف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله..»[٤].

٣- وقال السيد المرتضى أن القرآن لم ينقص منه شيء وأن: «**من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية لا يُعْتَدُّ بخلافهم**»[٥].

٤- وقال الشيخ الطوسي في أول تفسيره «التبيان»: «**وأما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به أيضاً، لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها والنقصان منه، فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين**

---

(١) البقرة/ ١٠. (تر)

(٢) البقرة/ ١٧١. (تر)

(٣) انظر الشيخ الصدوق، كتاب «الاعتقادات في دين الإمامية» ص ٥٩، أو الطبعة الحجرية (المطبوعة مع شرح الباب الحادي عشر)، ص ٩٣. (تر)

(٤) الشيخ المفيد، «أوائل المقالات»، تحقيق إبراهيم الأنصاري الزنجاني الخوئيني، بيروت: دار المفيد، ط٢، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣م، ص ٨٠. (تر)

(٥) انظر تفسير مجمع البيان (مقدمة الكتاب) طبع بيروت الصفحة ٣٠-٣١ (أو في الصفحة ١٥ من طبعة بيروت عام ١٣٧٩هـ). (تر)

خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا..»[١].

٥- ويصرِّح الشيخ الطَبرسي في تفسيره «**مجمع البيان**» أن الصحيح عدم نقص أي شيء من القرآن[٢].

٦- وقال العلامة الحلي[٣] في باب القراءة في الصلاة في كتابه الفقهي «تذكرة الفقهاء» إن القرآن الموجود مطابق لمصحف أمير المؤمنين.

٧- وقال المرحوم الشيخ **جعفر كاشف العطاء**[٤] في كتابه «**كشف الغطاء**» (ص ٢٩٩) ما نصه: «**المبحث السابع في زيادته: لا زيادة فيه من سورة ولا آيةٍ من بسملة وغيرها لا كلمة ولا حرف وجميع ما بين الدفتين مما يتلى، كلام الله تعالى بالضرورة من المذهب بل الدين وإجماع المسلمين، المبحث الثامن في نقصه: لا ريب في أنه محفوظ من النقصان بحفظ الملك الديّان كما دلّ صريح القرآن وإجماع العلماء في جميع الأزمان.**».

---

(١) الطوسي، التبيان في تفسير القرن، ج١/ ص ٢. (تر)

(٢) وعبارته في ذلك: «فقد روىٰ جماعةٌ من أصحابنا وقومٌ من حشوية العامة أن في القرآن تغييراً ونقصاناً، والصحيح من مذهبنا خلافه وهو الذي نصره المرتضى- قدس الله روحه واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء..». انظر تفسير مجمع البيان (مقدمة الكتاب) طبع بيروت الصفحة ٣٠ -٣١. (تر)

(٣) هو الحسن بن يوسف بن علي بن المُطَهَّر الأسدي الحلي، جمال الدين، ويعرف بالعلّامة الحليّ (٦٤٨ - ٧٢٦هـ)، من كبار فقهاء ومتكلمي الشيعة الإمامية المشاهير، نسبته إلى «الحلّة» جنوب العراق حيث ولد وتوفي. ترك آثاراً كثيرة في مختلف العلوم كالفقه وأصوله والعقائد وعلم الرجال، من أشهر آثاره: «تذكرة الفقهاء» و «قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام» و«مختلف الشيعة في أحكام الشريعة» و«منتهى المطلب في تحقيق المذهب» (في ٧ مجلدات) و«تبصرة المتعلمين في أحكام الدين» و«تهذيب طريق الوصول إلى علم الأصول» و «خلاصة الأقوال في معرفة الرجال» و «منهاج الكرامة في معرفة الإمامة» وهو الكتاب الذي رد عليه ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية».(تر)

(٤) هو الشيخ جعفر الكبير النجفي المعروف بـ«كاشف العطاء» من كبار علماء الشيعة الإمامية المتأخرين، تولى رئاستهم والمرجعية الدينية فيهم، ومن كتبه: «كشف الغطاء» و«الحق المبين في تصويب المجتهدين وتخطئة الأخباريين»، توفي سنة ١٢٢٨ هـ. (تر)

٨- وصرّح الفاضل الجواد [الكاظمي][(١)] في شرح الزبدة بتماميّة القرآن.

٩- وقال المولى صالح المازندراني[(٢)] بعدم التحريف.

١٠ - وقال المحدث البحراني[(٣)] في كتاب «اللؤلؤة» بأن الحر العاملي صاحب الوسائل ألف كتاباً مستقلاً في عدم النقيصة من القرآن.

١١- وقال القاضي «نور الله **الشوشتري**»[(٤)] في كتابه «**مصائب النواصب**»: «**ما نسب إلى الشيعة الإمامية بوقوع التغيير في القرآن ليس مما قال به جمهور الإمامية إنما قال به شرذمةٌ قليلةٌ منهم لا اعتداد بهم فيما بينهم**»[(٥)].

---

(١) هو جواد بن سعد بن جواد البغدادي الكاظمي ويُعْرَف بالفاضل الجواد (١٠٦٥هـ)، من فقهاء الإمامية من أهل الكاظمين ببغداد. رحل إلى إيران وتتلمذ على الشيخ بهاء الدين العاملي وبلغ مرتبة شيخ الإسلام في أسترآباد. كان عالماً مشاركاً في أنواع من العلوم كالفقه والأصول والتفسير والعلوم الرياضية وغيرها. من مؤلفاته: غاية المأمول في شرح زبدة الأصول للشيخ البهائي، و شرح الدروس الشرعية في الفقه، و«مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام» في تفسير آيات الأحكام في القرآن. توفي في بغداد. (تر)

(٢) هو حسام الدين محمد صالح بن المولى أحمد المازندراني الأصفهاني المتوفي سنة ١٠٨٦هـ كما أرخه في جامع الرواة أو سنة ١٠٨١هـ كما في الروضات، وهو صهر العلامة محمد تقي المجلسي، وهو من علماء الإمامية الأصوليين البارزين في القرن الحادي عشر الهجري، وله شرح معروف على أصول الكافي. (تر)

(٣) هو الشيخ يوسف بن أحمد بن إبراهيم الدرازي البحراني، من آل عصفور (١١٠٧ - ١١٨٦هـ = ١٦٩٥ - ١٧٧٢ م) فقيه إمامي أخباريٌّ معتدلٌ في أخباريَّته، غزير العلم، من أهل البحرين توفي بكربلاء. من كتبه «الحدائق الناضرة» في ستة مجلدات في الفقه الاستدلالي، و«أنيس المسافر وجليس الخواطر» ويقال له «الكشكول»، و«الدرة النجفية من الملتقطات اليوسفية» و«لؤلؤة البحرين».(تر)

(٤) هو القاضي نور الله، أحد علماء الشيعة الإمامية البارزين في القرن الحادي عشر الهجري، عاش في الهند مدّةً طويلةً واستلم دكّة القضاة هناك، ومن تصنيفاته المشهورة كتاب «إحقاق الحق»، وقد قتل بسبب الاختلافات الطائفية عام ١٠١٩هـ. (تر)

(٥) انظر محمد جواد البلاغي، آلاء الرحمن في تفسير القرآن، ج١/ ص٢٥ - ٢٦. (تر)

١٢ - وقال «**الشيخ البهائي**»[١]: «**الصحيح أنّ القرآن العظيم محفوظٌ عن التحريف، زيادةً كان أو نقصاناً، ويدلّ عليه قوله تعالى:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر/ ٩]. **وما اشتهر بين الناس من إسقاط اسم أمير المؤمنين** عليه السلام **منه في بعض المواضع، مثل قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ - في عليّ - ﴾ **وغير ذلك، فهو غير معتبرٍ عند العلماء**»[٢].

١٣ - وَصنَّف الشيخ «**علي بن عبد العال الكركي**»[٣] **رسالةً مستقلّةً في نفي النقيصة من القرآن وردَّ ما ورد في بعض الروايات من نقص في القرآن قائلاً «بأن الحديث إذا جاء على خلاف الدليل من الكتاب والسنة المتواترة أو الإجماع ولم يمكن تأويله ولا حمله على بعض الوجوه وجب طرحه»**[٤].

١٤ - **وقال المحقق المقدّس البغداديّ السيد محسن**[٥] في «شرح الوافية»: «**اتفق علماء الإسلام على عدم الزيادة في القرآن وإنما الكلام في النقيصة والمعروف بين أصحابنا، حتى حُكِيَ عليه الإجماع، عدمُ النقيصة أيضاً**، وخالف في هذه المسألة علي بن إبراهيم القمي الذي ذهب في تفسيره إلى وقوع التحريف، فتابعه على ذلك بعض المتأخرين.».

ومما يؤيد عدم النقيصة في القرآن، إجماع الإمامية على أنه لا بد من قراءة سورة كاملة في

---

(١) هو الشيخ محمد بن الحسين الحارثي العاملي الشهير ببهاء الدين العاملي المتوفّى ١٠٣٠ هـ. (تر)

(٢) انظر محمد جواد البلاغي، آلاء الرحمن، ج١/ ص ٢٦. (تر)

(٣) هو الشيخ علي بن الحسين بن عبد العالي الكركي، العاملي، المعروف بالمحقق الثاني، والمحقق الكركي، وبالشيخ العلائي، من أعلام فقهاء الشيعة في عصره، له عدد من الكتب أشهرها: «جامع المقاصد في شرح القواعد في الفقه» في ٦ مجلدات، و«صيغ العقود والإيقاعات» توفي سنة ٩٤٠ هـ. (تر)

(٤) انظر محمد جواد البلاغي، آلاء الرحمن في تفسير القرآن، ج١/ ص٢٥ - ٢٦. (تر)

(٥) هو السيد محسن بن الحسن بن مرتضى الحسيني الأعرجي الكاظمي الشهير بالمحقق البغدادي أو المقدس البغدادي، توفي سنة ١٢٢٧هـ. كان عالماً أصولياً محققاً مدققاً من أعلم علماء الإمامية في عصره، له كتاب الوسائل في الفقه، و كتاب الوافي في شرح وافية الملا عبد الله التوني في أصول الفقه واختصره في كتابه «المحصول». (أنظر أعيان الشيعة لمحسن أمين العاملي: ج ٩/ ص ٤٦-٤٧). (تر)

الصلاة [المفروضة] وإذا قرأ المصلي السورة ناقصة بطلت صلاته، فإذا كان ثلث القرآن قد سقط، وكانت السور ناقصة، صارت جميع الصلوات باطلة!! **وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ**.

القرآن قابلٌ للفهم

من الأمور المُسَلَّم بها أنه لا توجد في كتاب الله آية واحدة يعجز جميع الخلائق عن فهمها بل القرآن كله قابل للتدبر والفهم، والشاهد على هذا الأمر هو أولاً آيات من القرآن وعدد من الأخبار والأحاديث وثانياً العقل.

الآيات

١- قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد/ ٢٤].

أمرنا الله تعالى في هذه الآية بتدبر القرآن فلو كان في القرآن آية غير مفهومة فكيف يأمرنا الله بالتدبر فيها؟

٢- قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء/ ٨٢].

أي أنه لو كان القرآن من عند غير الله أي من اختراع عقل النبيّ ولم يكن هناك وحي إلهي أو كان هناك بشر علمه للنبي، أي لو كان القرآن كلام مخلوق كما كان الكفار والمنافقون يظنون، لوجد فيه أولو الألباب وأهل الاستدلال اختلافات وتناقضات كثيرة.

لو تأملنا بدقة لرأينا أن هذه الآية تبين لنا أحد وجوه إعجاز القرآن ودليلاً على أن القرآن وحي من الله، وذلك أنه رغم كون القرآن كتاباً كبيراً ويتضمن علوماً كثيرة لا نجد بين آياته أي تناقض أو اختلاف.

وتقرير هذا البرهان هو أن الاختلاف لفظة مشتركة بين عدة معان مختلفة وليس المراد من عدم وجود الاختلاف نفي اختلاف الناس في فهم آياته بل المراد نفي الاختلاف في ذات آيات القرآن كما أنه عندما يقال أن الكتاب الفلاني مختلف فمعناه أن أوله لا يشبه آخره في الفصاحة أو أنه أوله يختلف في مقصده عن آخره فقسم منه يدعو إلى الدين وقسم آخر يدعو إلى الدنيا، أو أنه

مختلف النظم فبعضه على وزن الشعر وبعضه منزحف.

أما كلام الله فهو منزّه عن كل اختلاف وتناقض فأوله متناسب مع آخره وكله يدعو إلى غاية واحدة وهي الدعوة إلى الله الواحد وإصلاح النفس، وكل آياته على أعلى درجة من درجات الفصاحة.

أما كلام الآدمي فيشتمل على جميع هذه الاختلافات، ويشهد لذلك أننا لو نظرنا بدقة في كتب العلماء ودواوين الشعراء والمترسلين لوجدنا فيها جميع أنواع الاختلافات تلك، فنرى أن قسماً منها فصيح وقسم آخر منزحف ونرى أن الأغراض والأهداف مختلفة فترى جزءاً من القصيدة يذم الدنيا وجزءاً يمدحها وإذا كان الشاعر مسروراً وجدته حسن الظن بالدنيا في شعره ومتفائلاً، وعندما يكون مكتئباً تجده يلوم الدنيا والدهر، وتجده يمدح الجبن أحياناً ويسمِّيه حزماً ويذمّه طوراً ويسميه ضعفاً، أو يمدح الشجاعة أحياناً ويسمّيها صرامةً ويذمُّها طوراً ويعتبرها تهوُّراً، ولا يمكن لكلام الآدمي أن يخلو من اختلافٍ وتناقض لأن منشأ هذا الاختلاف هو عقائد البشر واختلاف أحوالهم وأعراضهم، وللإنسان أحوال مختلفة كل يوم، وأفكاره دائمة التقلب، والفرح أو الهمّ والغمّ وتغيير البيئة وتبدل المعيشة وشدائد الدهر وحوادث الزمن كلها عوامل قوية تؤثر في تغيُّر الأفكار، فللإنسان عند فرحه أفكار تختلف عن أفكاره عند حزنه، كما أن هناك عوامل أخرى مؤثرة في أقوال الإنسان وأفكاره، ولذلك إذا قرأنا دواوين الشعراء تبيَّن لنا بوضوح صحة ما نقول وأن الإنسان كلَّ يوم يكون في شأن، وفي كل قصيدة يفكر بطريقة، و كم من اختلافات نجدها في الكتب التي صنفها العلماء الكبار.

يقول العماد الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غُيِّر هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبَر وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر».

فإذا كان الأمر كذلك فلنلاحظ كيف أن رجلاً أمياً لم يقرأ ولم يكتب أتى بكلام على مدى ثلاثة وعشرين عاماً وسُجِّلت كلماته جميعاً وكان في مواجهته أعداء أقوياء ومع ذلك لم يستطيعوا

أن يجدوا في كلامه كله أي اختلاف وتناقض بين الآيات، أليس هذا بحد ذاته دليل محكم على أن تلك الكلمات لم تكن من عند النبي لأن النبيَّ بشر- وللبشر- حالات مختلفة ومتنوعة، وبالتالي يمكننا أن نجزم بشكل قاطع أن هذه الكلمات وحي من عند رب العالمين جل جلاله وعمَّ نواله.

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء/ ١٩٢-١٩٥].

ولو كان القرآن غير مفهوم لما كان هناك معنى لإنذار النبي بالقرآن، كما أن الله أكَّد أن القرآن نزل بلسان عربي مبين أي واضح ومفهوم فلو لم يكن القرآن مفهوماً لكان هذا القول كذباً نعوذ بالله من غضب الله. فتبين أن القرآن في منتهى درجة الوضوح وأن فهم البشر له ميسر وسهل.

٤- قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل/ ٨٩].

فلو كان القرآن غير مفهوم فلماذا يقول الله إن القرآن بيان لكل شيء وكيف يكون القرآن هدى وبشرى مع أنه لا يمكن الاستفادة منه؟!

٥- قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة/ ١٨٥]، وقوله كذلك: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة/ ٢].

٦- قوله تعالى: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس/ ٥٧].

فكيف يكون القرآن شفاء لما في الصدور في حين أنه لا يمكن لأحد أن يفهم وصفة العلاج هذه؟!

٧- قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة/ ١٥].

٨- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت/ ٥١].

ومعنى الآية: ألا يكفي أولئك المكذبين والمعاندين حجّةً ظاهرةً ومعجزةً واضحةً باهرةً أننا أنزلنا عليك القرآن بلغتهم تتلوه عليهم وهم أفصح الناس ولا تخفى عليهم أسرار البلاغة

والفصاحة، وقد تحدَّيتهم بأن يأتوا بمثل أقصر سورة من سور القرآن، وهم قد جيشوا الجيوش وبذلوا أموالهم وأنفسهم في حربك ولكنهم لم يستطيعوا معارضة كتابك، فأي معجزة أوضح من هذا؟!

إن هذه الآية تصرح أن المشركين كانوا يفهمون القرآن ولأنهم لم يستطيعوا معارضة كلماته حاربوه بالأسنة والرماح. فيا للعجب! المشركون يفهمون القرآن والمؤمنون يعجزون عن فهمه، أفلا يستحي مِنَ الله الذين يدعون أن القرآن غير قابل للفهم؟!!

٩- قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم/ ٥٢].

فكيف يكون القرآن بلاغاً للناس وإنذاراً لهم وهو غير مفهوم ولا معلوم وكيف يتّعظ منه أولو الألباب والحال أنهم لا يمكنهم أن يفهموه؟!

١٠- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء/ ١٧٤- ١٧٥].

كيف يكون القرآن برهاناً ونوراً مبيناً يجب التمسّك به والاعتصام به وطلب الهداية منه وهو غير مفهوم؟!

١١- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء/ ٩].

فكيف يكون القرآن هادياً ومرشداً إلى الطريقة المثلى والصراط المستقيم والقويم والحال أنه غير مفهوم لأحد؟!

١٢- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر/ ١٧].

واعجباه!! بعد تصريح الله تعالى في هذه الآية بأن فهم القرآن سهل وميسر، كيف يمكن لأحدٍ أن يدَّعي أنه لا يمكن فهم القرآن؟ والأعجب من ذلك أن هذه الآية المباركة تكرَّرت أربع مرات في سورة القمر المباركة!

تلك كانت بعض آيات القرآن التي تدلّ بكل وضوح على أن القرآن قابل للفهم ويوجد نظائر كثيرة لهذه الآيات في القرآن وما ذكرناه كافٍ للمنصف المُتَدَبِّر.

وأما الأحاديث

يقول الرسول الأكرم ﷺ: «**إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي أو وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي**»[١].

فكيف يمكن التمسّك بالقرآن إذا كان غير مفهوم.

وقد رُوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**عليكُم بِكِتَابِ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ. هُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَالصّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الّذِي لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلاَ تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلى كَثْرَةِ الرّدّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، مَنْ قالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَن خاصَمَ به فلَجَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ..**»[٢].

فكيف يمكن لمثل هذا القرآن الموصوف بكل هذه الأوصاف المذكورة أن لا يكون قابلاً للفهم. وفي هذا الحديث الشريف تصريح بأن كل من طلب الهداية من غير القرآن أضله الله، في حين أنه لو كان القرآن غير قابل للفهم فمن البديهي أن على الإنسان أن يطلب الهداية من غيره وبالتالي فسوف يضل! وهذا أوضح دليل على أن ضلال المسلمين يكمن في اهتدائهم بغير القرآن وفي سماحهم لآرائهم وأفكارهم البشرية أن تتدخل في الدين وفي ما يقومون به من مجادلات أوصلت حال الإسلام والمسلمين إلى حد قيام كل فرقة بتكفير الأخرى حتى لم يعد هناك أي

---

(١) رواه بلفظ قريب الترمذي في سننه: ٥٠-كتاب المناقب/ ٣٢- باب مناقب أهل بيت النبي ح ٣٧٨٦، و ح ٣٧٨٨و قَالَ: وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَأَبِي سَعِيدٍ وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ وحُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ. (تر)

(٢) رواه من الإمامية محمد بن مسعود العيَّاشيّ في تفسيره (ج١/ ص٣) مع اختلافٍ يسيرٍ في ألفاظه، ورواه من أهل السنَّة الترمذي (ج٥/ ص١٨٥٩والدارمي في سننهما. (تر)

اتفاق بين المسلمين الذين يزيد عددهم على أربعمئة مليون. أما لو جعل جميع المسلمين القرآن مرجعهم في الدين وأخذوا منه دينهم وعقيدتهم لتحول شقاؤهم الحالي إلى سعادة ولتبدلت فرقتهم إلى وحدة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران/ ١٠٣].

وأما دليل العقل

١ - لو كان في القرآن آيات وكلمات لا يفهمها أحد لكانت مخاطبة الله الناسَ بالقرآن مماثلةً لمخاطبة أتراكٍ باللغة الفارسية وتبليغهم بالفارسية التي لا يفهمون منها شيئاً! وهذا أمر في غاية السفاهة ولا ينسجم مع القرآن الذي يقول عن نفسه ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ.. ﴾ [آل عمران/ ١٣٨]، فكيف يكون بياناً ولا أحد يفهمه؟ وكيف يمكن تصور أن يتكلم الله الحكيم بكلمات لا يفهمها أحد؟ حقاً إن من يدعي مثل هذا الأمر يكشف عن حماقته الكبيرة أو عن كفره وسعيه لانتزاع القرآن من أيدي الناس لينشر مكانه أباطيله.

٢ - إن القصد من التكلم هو إفهام المخاطب، فإذا كان الكلام غير مفهوم كانت المخاطبة عبثاً وسفاهةً لا تليق بالشخص الحكيم.

٣- لقد اعتبر الرسول الأكرم ﷺ القرآن معجزته الكبرى وتحدى الناس أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة من مثله، ولو كان القرآن غير مفهوم لكان هذا التحدي خاطئاً من أساسه.

ولكن قال جماعةٌ خلاف ذلك

واستدل جماعةٌ على أن القرآن غير قابل للفهم بعدة وجوه:

١ - قالوا إن في القرآن آيات متشابهة ولا أحد يفهم معنى المتشابهات سوى الحق تعالى.

والجواب: إن المتشابهات أيضاً قابلة للفهم بل إن المتشابهات إنما نزلت لهداية الجاهلين وعامة

الناس كما سيأتي تحقيقه لاحقاً.

٢- قالوا إن الأعمال التي كلفنا الله تعالى بها على قسمين: القسم الأول أفعال ندرك مصلحتها كالصلاة والصوم والزكاة، فالصلاة تواضع محض والصوم إمساك عن الشهوات والزكاة سعيٌ لرفع حاجات المساكين والفقراء، والقسم الثاني أفعال لا نعلم المصلحة فيها مثل أفعال الحج حيث لا نعلم الحكمة من رمي الجمرات أو القصد من السعي بين الصفا والمروة. ويتفق المحققون على أنه كما يحسن بشأن الحق تعالى أن يأمر عباده بالقسم الأول من الأفعال فإنه يحسن أيضاً أن يأمرهم بالقسم الثاني، لأن القسم الأول لا ينطوي على كمال الانقياد والطاعة لأنه من المحتمل أن يدفع العقل الإنسان إلى العمل بها حيث يدرك مصلحته ومنفعته فيها. أما القسم الثاني الذي لا يعلم ماهية المصلحة والحكمة فيه فإن في طاعة العبد لِلَّهِ بامتثال أمره في القيام بها كمال الانقياد وغاية التسليم له تعالى حيث تتضمن هذه الأعمال انقياداً محضاً وطاعة صرفة.

فإذا جازت طاعة الله في أفعال لا نعلم وجه المصلحة فيها فلماذا لا يجوز مثل ذلك في الأقوال أي أن يقول الله كلاماً نفهم بعضه ولا ندرك معنى بعضه الآخر ولا مرماه لكننا نتعبد بتلاوته انقياداً وطاعة لِلَّهِ.

ونقول في الإجابة عن ذلك: إن هذا الكلام قياس مع الفارق الكبير إلى درجة تثير الضحك. ففرق كبير بين الأفعال والأقوال لأن الغاية من الأفعال العمل والطاعة، في حين أنَّ الغاية من الأقوال الفهم والتدبّر. وبما أن المقصود من الأفعال العمل فمن الممكن للإنسان أن يعمل بما لا يفهم معناه ويطيع أمر الله في ذلك طاعة عمياء، أما المقصود من الأقوال فهو تنوير العقل، وما لم يُفهَم القول فلن يترتب عليه أي أثر، إذ كيف يمكن تصور أي أثر لكلماتٍ لا يفهمها الإنسان؟

٣- الوجه الثالث: وهو أعجب من جميع الوجوه، وهو قولهم: لو وقف الإنسان على معنى القرآن وتمكَّن من الإحاطة بدقائقه لما كان في ذلك أي منزلة وقيمة له، أما إذا لم يقف على مقاصد القرآن وهو يقطع بأن المتكلِّم هو أحكم الحاكمين لكان دائم التفكر والتذكُّر، ولتحقق بذلك لُبُّ التكليف الذي هو اشتغال القلب بذكر الله.

والجواب: هذا الدليل دليل في غاية الجهل إلى درجة تُضحك الثكلى، فأي تفكّر هذا الذي يكون في كلام لا يمكن فهمه أبداً وأي ذكر هذا؟ إن الغرض من التفكر هو الانتقال من المعلوم التصوري أو التصديقي إلى المجهول واستنارة العقل بإدراك الحقائق. سبحان الله كيف تكون الحيرة كمالاً وعدم الفهم سعادةً؟! **الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**.

فهم القرآن يعتمد على معرفة أسباب النزول

يدُلُّ على ضرورة معرفة أسباب النزول لأجل الفهم الصحيح لآيات القرآن أمران:

الأول: أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب أو المخاطب أو الجميع إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين وبحسب مخاطبين وبحسب غير ذلك كالاستفهام لفظه واحد ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة وعمدتها مقتضيات الأحوال وليس كل حال ينقل ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط فهي من المهمات في فهم الكتاب[1].

و **الثاني**: وهو أن الجهل بأسباب التنزيل مُوقِعٌ في الشبه والإشكالات وموردٌ للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف وذلك مظنة وقوع النزاع، ويُوَضِّح هذا المعنى ما روى أبو عبيد عن إبراهيم التيمي قال: خلا عمر ذات يوم فجعل يحدث نفسه كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين! إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل فيكون لهم فيه رأي فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا فإذا اختلفوا اقتتلوا. قال فزجره عُمَر وانتهره، فانصرف ابن

(١) اقتبس المؤلف شريعت سنكلجي رحمه الله هذه الفقرة من كتاب «الموافقات» للشاطبي، ج٣/ ص ٣٤٧-٣٤٨. (تر)

عباس. ونظر عمر فيما قال فعرفه فأرسل إليه فقال: أعد عليَّ ما قلتَ! فأعاده عليه فعرف عمر قوله وأعجبه.[١]

أقول: والشواهد على هذا الأمر كثيرةٌ في كتاب الله:

أ- لفظ القنوت، حيث للقنوت معان متعددة مثل: الخشوع وعدم الالتفات والذكر وغيرها:

يقول تعالى: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة/ ٢٣٨]، فهنا معنى القنوت: السكوت وعدم كلام المصلين مع بعضهم أثناء صلاتهم، وقد قال الرسول الأكرم ﷺ: «**إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الآدميين إنما هي قرآن وتسبيح**»[٢]، وكانوا المسلمون يتكلمون أثناء الصلاة قبل نزول تلك الآية، فنهاهم رسول الله عن ذلك، ففهم معنى كلمة «القنوت» في هذه الآية يعتمد على معرفة سبب نزولها.

ب- استعمل عُمَرُ «قدامةَ بن مظعون» على البحرين فقدم الجارود على عمر فقال: إن قدامة شرب فسكر، فقال عمر: مَن يشهد على ما تقول؟ قال الجارود: أبو هريرة يشهد على أقول، فقال عمر: يا قدامة! إني جَالِدُك، قال: والله لو شربت كما يقول ما كان لك أن تجلدني، (وفي رواية: لم تجلدني؟ بيني وبينك كتاب الله!). قال عمر: ولِمَ؟ قال: لأن الله يقول: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٣] [المائدة/ ٩٣]. فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم

---

(١) مُقْتبس من كتاب الموافقات، للشاطبي، ج٣/ ص ٣٤٨. (تر)

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وأخرج نحوه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده والدارمي في مسنده كلهم بإسنادهم عن مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رفعه ولفظه: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**». (تر)

(٣) قال الشيخ الطوسي في تفسير الآية في تفسيره «التبيان»: «قال ابن عباس وابن مالك والبراء بن عازب ومجاهد، وقتادة والضحاك: إنه لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة: [يا رسول الله!] كيف بمن مات من إخواننا وهو يشربها؟! فأنزل الله الآية وبين أنه ليس عليهم في ذلك شيء إذا كانوا مؤمنين عاملين للصالحات، ثم يتقون المعاصي وجميع ما حرم الله عليهم. وذكر الطبرسي في مجمع البيان نحو ذلك. (تر)

اتقو وأحسنوا، شهدتُ مع رسول الله ﷺ بدراً، وأُحُداً، والخندق، والمشاهد. فقال عمر: ألا تردون عليه قوله؟ فقال ابن عباس: إن هذه الآيات أُنزلت عذراً للماضين وحُجَّة على الباقين، لأن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة/ ٩٠].(١)

ج- «جَاءَ إِلَى عَبْدِ الله بن مسعود رَجُلٌ فَقَالَ تَرَكْتُ فِي المَسْجِدِ رَجُلاً يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ يُفَسِّرُ هَذِهِ الآيَةَ ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الدخان/ ١٠-١٢]. قَالَ يَأْتِي النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دُخَانٌ فَيَأْخُذُ بِأَنْفَاسِهِمْ حَتَّى يَأْخُذَهُمْ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ. فَقَالَ عَبْدُ الله: مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَلْيَقُلْ بِهِ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ اللهُ أَعْلَمُ. إِنَّمَا كَانَ هَذَا أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعْصَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دَعَا عَلَيْهِمْ بِسِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ فَأَصَابَهُمْ قَحْطٌ وَجَهْدٌ حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجُهْدِ وَحَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله اسْتَغْفِرِ اللهَ لِمُضَرَ فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا فَقَالَ: «لِمُضَرَ إِنَّكَ لَجَرِيءٌ». قَالَ فَدَعَا اللهَ لَهُمْ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ قَالَ فَمُطِرُوا فَلَمَّا أَصَابَتْهُمُ الرَّفَاهِيَةُ - قَالَ - عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ - قَالَ - فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١﴾ ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓۚ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ قَالَ يَعْنِي يَوْمَ بَدْرٍ.»(٢).

---

(١) أصل هذه الرواية في السنن الكبرى للنسائي، كتاب الحد في الخمر، ج٣/ ص ٢٥٣، ح رقم (٥٢٨٩)، والسنن الكبرى للبيهقي، كتاب الأشربة (٨ / ٣١٥)، ورواها القرطبي وغيره من المفسرين في تفاسيرهم ذيل تفسيرهم للآية ٩٣ من سورة المائدة. (تر)

(٢) رواه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة../ باب الدخان، ح (٢٧٩٨). (تر)

فهم القرآن يحتاج إلى معرفة أحوال العرب في عصر نزوله

لما ثبت وجوب معرفة أسباب النزول على المتدبِّر للقرآن، فإنه مما يستتبع ذلك ضرورة معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجارى أحوالها حالة التنزيل،لأن القرآن إنما نزلت بلغة العرب، و كان المخاطبون المباشرون له هم العرب، ومن دون معرفة أحوال العرب [في الجاهلية] لن يكون من الممكن فهم بعض آيات القرآن، فهذا العلم لا بد منه لمن أراد الخوض في علم القرآن وإلا وقع في الشبه والإشكالات التي يتعذر الخروج منها إلا بهذه المعرفة، وسنذكر فيما يلي بعض الشواهد على ذلك:

١- قوله تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة/ ٢٨٦]. نُقِلَ عن أبي يوسف أن ذلك في الشرك لأنهم كانوا حديثي عهد بكفر فيريد أحدهم التوحيد فيهم فيخطئ بالكفر فعفا لهم عن ذلك كما عفا لهم عن النطق بالكفر عند الإكراه قال فهذا على الشرك ليس على الأيمان في الطلاق والعتاق والبيع والشراء، لم تكن الأيمان بالطلاق والعتاق في زمانهم.

٢- قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل/ ٥٠]، وكذلك: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك/ ١٧]، وأشباه هذه الآيات.

لما كان المشركون يتخذون إضافة إلى إله العالمين الواحد آلهةً في الأرض، جاءت الآيات بتعيين الفوق وتخصيصه تنبيها على نفي ما ادعوه في الأرض فلا يكون فيه دليل على إثبات جهة البتّة.

٣- ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم/ ٤٩]. سبب ذكر هذا الكوكب بالذات أن أبا كبشة دعا قبيلة خزاعة إلى عبادة كوكب «الشعرى»، ولم تعبد العرب من الكواكب غيرها فلذلك عُيِّنَتْ[١].

(١) هذه الفقرة استقاها المؤلف بتصرف يسير من كتاب الموافقات للشاطبي، ج٣/ ص٣٥١-٣٥٢. (تر)

القرآن يتضمّن كلّ ما يتعلّق بالدين والشريعة

الدليل على أن القرآن يحتوي على كلّ ما يتعلق بالدين والشريعة ثلاثة أمور:

١ - نصوص القرآن الكريم شاهدة على هذا المدعى كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة/ ٣]. وقوله أيضاً: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل/ ٨٩]، وأمثال هذه الآيات.

٢ - الأحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة. وفيما يلي بعضها:

رُوِيَ في «الكافي» [للكُلَيْنِيّ] بإسناده عن أبي عبد الله [الإمام الصادق] عليه السلام قال: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْزَلَ فِي الْقُرْآنِ تِبْيَانَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى وَاللهِ مَا تَرَكَ اللهُ شَيْئاً يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ عَبْدٌ يَقُولُ لَوْ كَانَ هَذَا أُنْزِلَ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا وَقَدْ أَنْزَلَهُ اللهُ فِيهِ**»[١].

وبإسناده عَنْ عُمَرَ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ [الإمام الباقر] عليه السلام قَالَ: «سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَدَعْ شَيْئاً يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ إِلَّا أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ وَبَيَّنَهُ لِرَسُولِهِ صلى الله عليه وآله وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدّاً وَجَعَلَ عَلَيْهِ دَلِيلًا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَى مَنْ تَعَدَّى ذَلِكَ الْحَدَّ حَدّاً**»[٢].

وبإسناده عَنْ عَنْ حَمَّادٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ (ع) قَالَ: «**سَمِعْتُهُ يَقُولُ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَفِيهِ كِتَابٌ أَوْ سُنَّةٌ**»[٣].

وبإسناده عَنْ أَبِي الْجَارُودِ قَالَ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ (ع): «**إِذَا حَدَّثْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَاسْأَلُونِي مِنْ كِتَابِ اللهِ ثُمَّ قَالَ فِي بَعْضِ حَدِيثِهِ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله نَهَى عَنِ الْقِيلِ وَالْقَالِ وَفَسَادِ الْمَالِ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ فَقِيلَ لَهُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ أَيْنَ هَذَا مِنْ كِتَابِ اللهِ قَالَ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وَقَالَ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ**

---

(١) الكُلَيْنِيّ، «الكافي»، ج ١/ ص ٥٩، ح ١، والمجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٦٥/ ص ٢٣٧. (تر)

(٢) الكُلَيْنِيّ، «الكافي»، ج ١ / ص ٥٩، ح ٢. (تر)

(٣) الكُلَيْنِيّ، «الكافي»، ج ١ / ص ٥٩، ح ٤. (تر)

ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ وَقَالَ: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾»[1].

٣- ومنها التجربة وهو أنه لا أحد من العلماء لجأ إلى القرآن في مسألة إلا وجد لها فيه أصلاً وأقرب الطوائف من إعواز المسائل النازلة أهل الظواهر الذين ينكرون القياس -وكذلك الإمامية- ولم يثبت عنهم أنهم عجزوا عن الدليل من القرآن في مسألة من المسائل. وقال ابن حزم الظاهري: كل أبواب الفقه ليس منها باب إلا وله أصل فى الكتاب والسنة نعلمه والحمد لِلَّه.

والتحقيق في مسألة أن القرآن بيان لكل شيء هو: أن المراد من ذلك بيان ما هو متعلق بالدين والشريعة، لأن للإنسان عقلين عقل نظري وعقل عملي، وبعبارة أخرى للإنسان قوة علّامة وقوة عمّالة، فالقوة العلامة هي منشأ آراء وعقائد الإنسان والقوة العمالة مبدأ أعماله وأفعاله، وإنما تحصل عقائد الإنسان وأعماله بواسطة هاتين القوتين، ولا يمكن لأي فرد أن يعيش بلا عقيدة وعمل، وإذا كانت آراء الإنسان وأعماله حقاً وحسناً أوصلته إلى السعادة الكبرى، وإذا كانت باطلاً وقبحاً أورثته شقاء في الدنيا والآخرة.

إن القرآن كتاب سماوي نزل على القلب الطاهر للنبي الأكرم لأجل تصحيح العقائد وتعديل أعمال العباد وأفعالهم، وهدف القرآن أن يخرج العقائد الباطلة والأوهام والخرافات من أدمغة البشر ويحل محلها العقائد الصحيحة والآراء الحقة، كما أن القرآن يولي كمال عنايته بإصلاح الأعمال، فينهى عن الأعمال السيئة ويأمر بالأعمال الصحيحة والعدل والإنصاف، فالقرآن كله ينطوي على إصلاح العلم والعمل، وفي هذا يقول الرب تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف/ ١٥٧].

وخلاصة الكلام أن القرآن جامع لمسائل الدين والشريعة، فإن قيل إن القرآن بيان لكلّ شيء

(١) الكُلَيْنِيّ، «الكافي»، ج ١ / ص ٦٠، ح ٥. (تر)

فمعنى ذلك أنه بيان لكل شيء مما يتعلّق بالدين والشريعة فقط، فالقرآن كتاب تربية وتعليم وشفاء لأمراض الروح، كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء/ ٨٢]، ووظيفة الرسل بيان الدين وتشريع الأحكام، فالقرآن نزل لتربية نفوس البشر وتقوية عقل الإنسان، وليس كتاباً في علوم الطبيعة أو الرياضيات أو التاريخ، وعندما يقوى العقل وتتحلّى النفس بالأخلاق الفاضلة يتّجه الإنسان إلى تحصيل العلوم وتعلّم الصناعات حسب احتياجه، فهذا هو المراد من كون القرآن بيان لكل شيء وليس المراد من كل شيء أن القرآن يبين خواص جميع الأشياء فيبين الجبر والرياضيات أو علم الجراثيم أو يعلّم كيفية صناعة المدافع والسيّارات والكهرباء، إذ ليس من وظيفة الأنبياء بحث هذه العلوم، ومقام هذه العلوم أدنى من رتبة القرآن. إن القرآن صانع للإنسان وهدف القرآن هو أن يوصل الإنسان إلى الرشد الحقيقي، فإذا رشد الناسُ تعلموا كل عمل صحيح وعلم مفيد لهم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة/ ٢].

ومن المفيد أن نذكر هنا مثالاً بسيطاً ليتضح الكلام بنحو جيد. إذا قال أبُقراط أبو الطب أنني أوضحت في كتابي «قرابادين» كل شيء، فلا شك أن مراده أنه أوضح كل شيء يتعلق بالطب والعلاج، فإذا جئتَ تبحث في كتاب أبُقراط عن فن النجارة أو الفقه أو سياسة المدن كان ذلك دليلاً على أنك لم تفهم كلامه ولا أدركت قصده من كتابه. إن أبُقراط بيَّن ما له علاقة بالطب والعلاج فقط.

وكذلك عندما يقول القرآن إن فيه تبياناً لكل شيء ينبغي أن نفهم أن قصده كل شيء يتعلق بهداية البشر وإصلاح علمهم وعملهم، فإذا قام شخص بالبحث في القرآن عن علم الجراثيم أو علم الفلك أو فن التاريخ وغيره فقد تنكَّب الصواب واتجه اتجاهاً خاطئاً ولم يدرك وظيفة الرسل. نعم يتكلم القرآن أحياناً عن خلق النجوم والشمس والقمر والجبال والنباتات والبحار والأنوار، ولكن ينبغي أن تعلم أنه إنما يفعل ذلك بوصف تلك الأمور شواهد تدل على الربوبية

فهو يثبت الصانع بهذه الطريقة ويوجه الناس إلى خالق العالم والبشر بدعوتهم إلى النظر والتأمل في الكون وخلق الإنسان، وليس مراده بيان التاريخ الطبيعي أو شرح علم التشريح أو علم النباتات، فالغاية الذاتية هي دعوة الخلائق إلى خالق العالم وتطهير النفوس من رجس المعاصي وبث روح الإنسانية في نفوس البشر وإحياء الإنسان من موت الجهل ورذائل الأخلاق. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ...﴾ [الأنفال/ ٢٤] وأيضاً: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل/ ٩٧].

أحكام الشريعة في القرآن مجملة وتحتاج إلى السنة

يثبت الاستقراء المعتبر أن معظم الأحكام التي وردت في كتاب الله أحكام كلية مجملة تحتاج إلى تفصيل لإجمالها، والسنة هي التي تبيِّن ما أجمله كتاب الله وتشرح كلّيّاته، فلا يمكن فهم القرآن دون سنّة النبي ﷺ، لذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [النحل/ ٤٤]، وهذا هو السرّ في جامعية القرآن رغم اختصاره، حيث أن القرآن يشتمل على الكليات وقد اكتمل الدين والشريعة باكتمال القرآن: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ [المائدة/ ٣].

إن نظرة بسيطة إلى القرآن تكشف بوضوح الحاجة الشديدة إلى السنة، فمثلاً نلاحظ أن تفاصيل الصلاة والصوم والزكاة وأمثالها ليست مُبَيَّنَة في القرآن وكذلك الأمر بالنسبة إلى فروع أحكام المعاملات والسياسات كالنكاح والعقود والقصاص والديات والحدود وغيرها. إذن من المسلم به أنه ينبغي على السُنَّة أن تُبيِّن تفاصيل الأحكام ولا يمكن العمل بكتاب الله دون السنة النبوية.

والدليل على حجية السنة واضحٌ في كتاب الله، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾[الحشر/ ٧]، فالاستنباط من القرآن دون النظر إلى شرحه في السنة لا يجوز، بل لا بد في فهم القرآن من الرجوع إلى السنة ولذلك قال الرسول الأكرم: «**إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ**

بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي. أو وَعِتْرَتِي.»[١].

والمراد من العترة الأئمة من أهل بيت النبي ﷺ، لأن العترة تبين السنة وفي الواقع هي عين السنة وهذا هو معنى الحديث المأثور في أن علم القرآن هو عند آل محمد أي المراد هو أن بيان سنة النبي موجود لدى أهل بيته.

وهاهنا موضوع يجدر توضيحه وهو أننا بحاجة إلى السنة في فهم الشريعة والأحكام، أما في المسائل الاعتقادية مثل إثبات صانع العالم والتوحيد والنُبُوَّة والمعاد فلما كان القرآن قد تعرَّض لإثباتها بكل تفصيل وأقام عليها براهين ساطعة لم نعد بحاجة إلى الرجوع إلى السنة في هذا المجال.

فإذا عرفنا أن مباحث القرآن كلّيّة ومجملة وأنه لا يمكننا أن نفهمها دون الرجوع إلى السنة اتضح لنا بطلان قول من يسعون إلى تخريب الإسلام وليس لهم في الآخرة نصيب وهم خارجون عن جماعة المسلمين الذين يقولون إن في القرآن بيان لكل شيء وأننا لسنا بحاجة إلى السنة، ثم قاموا بتأويلات باردة للقرآن واتبعوا أهواءهم وآراءهم في فهم كتاب الله. والمراد من السنة فعل النبي ﷺ وقوله وتقريره، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب/ ٢١]، والمراد من فعل النبي وقوله واضح والمراد من تقريره أن يصدر عن شخص فعل أو قول في محضر النبي ويعلم النبي الأكرم بذلك ويكون قادراً على نهيه ومنعه فلا يفعل، فيكون هذا تقريراً منه على جواز ذلك الفعل أو القول. وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ.

---

(١) رواه بلفظ قريب الترمذي في سننه: ٥٠-كتاب المناقب/ ٣٢- باب مناقب أهل بيت النبي ح ٣٧٨٦، و ح ٣٧٨٨و قَالَ: وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَأَبِي سَعِيدٍ وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ و حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ. (تر)

للقرآنِ ظهرٌ و بطنٌ

من الناس من زعم أن للقرآن ظاهراً وباطناً وربما نقلوا في ذلك بعض الأحاديث والآثار، فعن الحسن مما أرسله عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا أَنزل اللهُ آيَةً إِلَّا وَ لَهَا ظَهْرٌ وَ بَطْنٌ**»(١)، وفي رواية أخرى: «**إن للقرآن ظهراً و بطناً و لبطنه بطن إلى سبعة أبطن**»(٢).

إذا كان المراد بالظاهر هو المفهوم العربي وبالباطن فهم مراد الله تعالى من تنزيل كتابه ومن كلامه وخطابه، وبعبارة أخرى أن المراد بالباطن هو الوقوف على مراد المتكلِّم و فهم المقصود من الخطاب فإن هذا القولَ قولٌ صحيحٌ وسديدٌ وفي غاية الإتقان ولا نزاع فيه.

أما إذا كان المراد من باطن القرآن إثبات معنىً زائد على ما كان معلوماً عند صحابة النبي ﷺ وما تدبَّره التابعون من بعدهم، فلا بد من دليل قطعيٍّ يثبت هذه الدعوى لأنها أصلٌ يُحكم به على تفسير الكتاب فلا يكون ظنياً، وسنبيِّن للقرَّاء الكرام ههنا حقيقة هذا الأمر بما يرضي الله ورسوله:

١ – الأحاديث التي وردت في هذا الباب والتي تقول إن للقرآن **سبعة أبطن** أو **سبعين بطناً** كلها أحاديث مرسلة وليس لدينا أي حديث صحيح واحد في هذا الأمر أبداً.

---

(١) الحرّ العاملي، «وسائل الشيعة»، ج ٢٧/ ص ١٩٦، ولفظه: «عَنِ فُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ (ع) عَنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ **مَا مِنَ الْقُرْآنِ آيَةٌ إِلَّا وَلَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ**؟ قَالَ: ظَهْرُهُ [تَنْزِيلُهُ] وَبَطْنُهُ تَأْوِيلُه». (تر)

ومن طرق أهل السنة أخرجه أبو عبيد في «**فضائل القرآن**»، ص٤٣، ومن طريقه البغوي في «شرح السنة»، ١/ ٢٦٢/ رقم ١٢٢، بإسناد ضعيف، فيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف، وهو مرسل. وأخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره»، رقم ١١أط شاكر، والطبراني في «المعجم الكبير»، رقم ١٠٠٩٠، والبزار في «المسند»، رقم ٢٣١٢، وابن حبان في «الصحيح»، ١/ ٢٧٦/ رقم ٧٥أعن ابن مسعود مرفوعًا: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن». وإسناده ضعيف، فيه إبراهيم بن مسلم الهجري. وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، رقم ١٠، من طريق آخر بإسناد فيه مبهم؛ فهو ضعيف، وتكلم البغوي على شرح هذا الحديث بكلام مسهب حسن؛ فراجعه. (تر)

(٢) ابن أبي جمهور الإحسائي، عوالي اللآلي، ج ٤ / ص ١٠٧. وهو خبر لا أصل له لدى أهل السنة. (تر)

٢- هذه الأحاديث من وضع الإسماعيلية ومختلقات فرقة الباطنية، لذا نجدها مذكورة في تفاسير الإسماعيلية وكتبهم، كما نجد في رسائل إخوان الصفاء الذين كانوا من زعماء الباطنية أن الكتب السماوية لها تنزيل ظاهري وهو معاني ألفاظها، ولها تأويلات خفية وهي المعاني المعقولة. وزعموا كذلك أن لواضعي الشرائع [الأنبياء والرسل] أحكام ظاهرية وجلية، ولهم أسرار باطنية وخفية. وجاء في خطط المقريزي في الدعوة السادسة من دعوات الإسماعيلية التسع أنه عندما يصل المدعو إلى الرتبة الخامسة يبدأ الداعي بتفسير معاني شرائع الإسلام له من صلاة وصوم وزكاة وحج وطهارة وغيرها من الفرائض بأمور تخالف ظاهرها، وإذا طال زمن الدعوة وآمن المدعو بأن وضع أحكام الشريعة كان على سبيل الرمز الذي لوحظت فيه السياسة العامة وأن للشرائع معان غير معناها الظاهري، بدأ الداعي بدعوة المدعو إلى أقوال أفلاطون وأرسطو وفيثاغورث.

يقول الغزالي في كتابه «فضائح الباطنية»: «إن رتبة هذه الفرقة أخسّ من رتبة كل فرقة من فرق الضلال، إذ لا نجد فرقةً يُنقض مذهبها بنفس المذهب سوى هذه! إذ مذهبها إبطال النظر وتغيير الألفاظ عن موضوعاتها بدعوى الرموز وكل ما يُتصوَّر أن ينطلق به لسانهم إما نظرٌ أو نقلٌ: أمَّا النظر فقد أبطلوه، وأما اللفظ فقد جوَّزوا أن يُراد باللفظ غير موضوعه فلا يبقى لهم معتصمٌ».

ويقول أيضاً في كتابه ذاك: «والقول الوجيز فيه أنهم لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها واستفادوا بها انتزعوه من نفوسهم من مقتضى الألفاظ إبطال معاني الشرع، وبما زخرفوه من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعة والموالاة وأنهم لو صرحوا بالنفي المحض والتكذيب المجرد لم يحظوا بموالاة الموالين..».

وقد أخذ الباطنية اعتقادهم بأن للقرآن ظهر وبطن من فرقة من فرق «اليهود» كما قال الشهرستاني -وهو يتكلم عن فرق اليهود -: «المقاربة واليوذعانية: نسبوا إلى يوذعان من همدان، وقيل: كان اسمه يهوذا، كان يحث على الزهد وتكثير الصلاة وينهى عن اللحوم والأنبذة، وفيما

نقل عنه تعظيم أمر الداعي، وكان يزعم أن للتوراة ظاهراً وباطناً وتنزيلاً وتأويلاً وخالف بتأويلاته عامة اليهود، وخالفهم في التشبيه ومال إلى القدر...»[١].

وتأويلات الكاشي[٢] المعروف بتفسير محيي الدين، كلها تأويلات للقرآن بمعان صوفية لا علم لأحد من أصحاب النبي والسلف الصالح بها.

وإذا دققنا النظر بشكل صحيح أدركنا أن التأويلات الباردة التي ابتدعها الباطنية وبعض المتصوّفة واتبعهم في ذلك جماعة من أخباريي الإمامية عن علم أو عن جهل قد وجَّهت ضربة كبيرة للإسلام وسبَّبت وجود مهديين كُثُر وفي النتيجة أضعفت الإسلام وشتَّتَتْ المسلمين.

وخلاصة الكلام أنه إذا أريد بالباطن ذلك البيان الذي تذكره الباطنية خلافاً للعقل والمنطق والحقيقة فهو كفر وضلال، وأما إذا أُريد بالباطن معرفة مقصد القرآن ومراده فهذا معنى صحيح ومقبول.

المراد بالظاهر هو المفهوم العربي وبالباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه

كل ما كان من المعاني العربية التي لا ينبني فهم القرآن إلا عليها؛ فهو داخل تحت الظاهر، ويتضح هذا الأمر بذكر أمثلة من كتاب الله، فمن ذلك مثلاً الفرق بين «الضيق» و «الضائق» في قوله تعالى ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام/ ١٢٥]، وقوله سبحانه ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود/ ١٢]، حيث أن «ضَيِّق» صفة مشبهة دالة على الثبوت والدوام بخلاف «ضَائِقٌ» الذي هو اسم فاعل دال على الحدوث والتجدد، وأنه أمر عارض له ﷺ. ومن ذلك الفرق بين ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ج١/ ص ٢١٥ - ٢١٦. (تر)

(٢) يقصد كتاب «تأويلات القرآن» للكاشي: وهو الشيخ عبد الرزاق بن أحمد بن أبي الغنائم محمد الكاشي (أو الكاشاني أو القاشاني) (توفي ٧٣٠ هـ) كان من مشاهير علماء الصوفية، من كتبه الأخرى «شرح منازل السائرين» للخواجة عبد الله الأنصاري الهروي الحنبلي، وكتاب «كشف وجوه الغر لمعاني نظمن الدر» في شرح تائية ابن الفارض و«اصطلاحات الصوفية» و«شرح فصوص الحِكم لابن عربي».

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ مدنية خاصة و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مكية خاصة، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ و﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ التي خوطب بها جميع الناس كافة. ومثله الفرق بين الرفع في ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ ﴾ [هود/ ٦٩]، والنصب فيما قبله من قوله: ﴿قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ [هود/ ٦٩]، وأشباه ذلك من الأمور المعتبرة عند متأخّري أهل البيان، فإذا حصل فهم ذلك كلُّه على ترتيبه في اللسان العربي؛ فقد حصل فهم ظاهر القرآن.

وكل ما كان من المعاني التي تقتضي- تحقيق المخاطب بوصف العبودية، والإقرار لِلَّهِ بالربوبية؛ فذلك هو الباطن المراد والمقصود الذي أُنزل القرآن لأجله، لأن هدف القرآن وقصده بث روح الإنسانية لدى البشر و توجيه الخلائق نحو خالق العالم. ويتضح هذا المطلب بذكر عدد من الأمثلة:

لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة/ ٢٤٥]، قال أبو الدحداح: إن الله كريمٌ وغنيٌّ وقد استقرض منّا ما أعطانا، ففهم باطن الآية ومقصدها، وقالت اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران/ ١٨١]؛ ففهمُ أبي الدحداح هو الفقه، وهو الباطن المراد، وفهمُ اليهود لم يزد على مجرد القول العربي الظاهر، ثم حمل استقراض الرب الغني على استقراض العبد الفقير، عافانا الله من ذلك.

ومن ذلك أن العبادات المأمور بها، بل المأمورات والمنهيات كلها إنما طلب بها العبد شكرًا لما أنعم الله به عليه، ألا ترى قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل/ ٧٨]، وفي الأخرى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف/ ١٠]. والشكر ضد الكفر؛ فالإيمان وفروعه هو الشكر، فإذا دخل المكلف تحت أعباء التكليف بهذا القصد؛ فهو الذي فهم المراد من الخطاب، وحصَّل باطنه على التمام، فإذا كانت الصلاة تشعر بإلزام الشكر بالخضوع لِلَّهِ والتعظيم لأمره والخشوع أمام خالق العالم؛ فمن دخلها عُريًّا من الخشوع كيف يُعَدُّ مِمَّن فهم باطن القرآن ومقصده؟

وكذلك باطن آيات الزكاة وقصد الشارع من تشريعها هو إنفاق المال أولاً وإصلاح نفس

شخص الغني و تربية ملكة السخاء والكرم في نفسه، و وقايته من رذيلة الشح والبخل، وثانياً القصد منها ترفيه حال الفقراء والمحرومين، وإعانة المساكين مما له نفع كبير في الدارين، إلى فوائد كثيرة أخرى لا نحتاج إلى ذكرها ههنا.

فإذا احتال شخصٌ له مال قد حال عليه الحول، فوهبه لابنه عند رأس الحول فرارًا من أدائها إلى مستحقيها كان عمله هذا مخالفاً لباطن القرآن وقصده.

وكذلك من يضارّ الزوجة لتنفكّ له من المهر على غير طيب نفس لا يُعَدُّ عاملاً بالقرآن بل كان بعمله هذا مخالفاً للدِّين ومقصد سيد المرسلين.

ومن هذا القبيل ما يقومون به من حيل شرعية لأكل الربا وأكل أموال الناس ويحسبون أن هذه الوسائل تجعل الربا حلالاً! ولسوء الحظ إن هذا الأمر الشنيع الذي يناقض مقاصد القرآن وباطن الدين منتشر بأسوأ صورة لدينا بين مُدَّعي التَدَيُّن والتقوى!!

وكذلك لم يفهم الخوارج باطن الكتاب ومقصده عندما كفَّرُوا أميرَ المؤمنين عليَّ بنَ أبي طالب و قالوا: إنه حَكَّمَ الخلق في دين الله، واللهُ يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام/ ٥٧]، وقالوا أيضاً: إنه محا نفسه من إمارة المؤمنين؛ فهو إذن أمير الكافرين! ولو تدبَّر الخوارج في كتاب الله و فهموا مراد القرآن وقصده لعرفوا جواز تحكيم الخلق في الدين كما قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة/ ٩٥]، وقال: ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء/ ٣٥]، ولفهموا أن قوله تعالى ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ لا يخالف التحكيم ولما اجترؤوا على مقام أمير المؤمنين ولما أوقعوا عالم الإسلام في تلك المصائب.

وكذلك، وبسبب عدم تدبرها بعمق في آيات الكتاب وجمودها على ظواهر الكلام وعدم فهمها لباطن القرآن ومقصده قامت فرقة المجسِّمة (المشبهة) بحمل الآيات الواردة في القرآن حول صفات الله على معناها الظاهري، فأثبتت لِلَّهِ يداً وعيناً وأذناً ووجهاً وقاست الرب بذلك على الخلق، فوقعت في التجسيم وأخذت بالمتشابهات ولم ترجع إلى المحكم حيث قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى/ ١١].

وخلاصة الكلام أن المراد من باطن القرآن مقاصده ومراميه. فياللعجب! لقد قام بعض الناس باختلاق مراد من الباطن على صورة أخرى جعلوا فيها آيات القرآن تابعة لأهوائهم وأغراضهم الشخصية والسياسية وذلك كقولهم إن المراد من البعوضة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة/ ٢٦] هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب! وكذلك أن المراد من الإبل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية/ ١٧] هو عَلِيٌّ أيضاً! فقاموا بهذه الترهات والأوهام بتحريفٍ غريب للدين ولمعاني القرآن وألصقوا بالقرآن كل منكر وقبيح.

لكل من ظاهر القرآن وباطنه شرط، فشرط الظاهر أن يوافق لغة العرب ولا يخالف الشرع

كون الظاهر هو المفهوم العربي مجردًا لا إشكال فيه؛ لأن الموالف والمخالف اتفقوا على أنه منزل بلسان عربي واضح مبين قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل/ ١٠٣]. وبناءً عليه لم يختلف أحد في فهم الظاهر العربي للقرآن وأما ما اختُلف فيه فهو باطن القرآن ومقصده، وشرط فهم ظاهر القرآن أن يكون جارياً على مقتضى اللغة العربية المحضة، فكل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي؛ فليس من علوم القرآن في شيء، لا مما يستفاد منه، ولا مما يستفاد به، ومن ادعى فيه ذلك؛ فهو في دعواه مبطل.

ومن أمثلة ذلك ما ادعاه «**بيان بن سمعان**»[1]، حيث زعم أنه المراد بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ

(١) هو بيان بن سمعان النهدي التميمي الزنديق رأس فرقة «البيانية» (وقد ضبطه الشهرستاني في الملل والنحل بالباء ثم النون وسمَّى الفرقة المنسوبة إليه البنانية) من فرق غلاة الشيعة المنقرضة، كانوا يقولون إن الله عز وجل نور على صورة إنسان عضواً عضواً وجزءاً جزءاً يَهلِكُ كلُّه إلا وجهَه. وادعى بيان أنه يعرف الاسم الأعظم، وأنه يدعو كوكب «الزُّهرَة» فتجيبه. وقيل إن جماعة من البيانية كانوا يعتبرون بياناً نبيّاً. قُتل سنة ١١٩هـ. (تر)

لِّلنَّاسِ...﴾ [آل عمران/ ١٣٨]!

ومثله فرقة «**المنصورية**» الذين ادَّعى زعيمهم «**أبو منصور**»[(١)] أنه المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور/ ٤٤].

وحكى بعض العلماء أن عُبَيْدَ الله الشيعي المسمى بالمهدي حين ملك أفريقية واستولى عليها؛ كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره، وكان أحدهما يسمى بنصر الله، والآخر بالفتح؛ فكان يقول لهما: أنتما اللذان ذكركما الله في كتابه فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر/ ١] قالوا: وقد كان عمل ذلك في آيات من كتاب الله تعالى؛ فبدل قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران/ ١١٠] بقوله (كتامة خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)!! و مثل ذلك ما فعله البابية والبهائية والأزلية الذين أوَّلوا آيات القرآن بتأويلات منكرة و باردة و وطبقوها على أشخاص معينين.

وقال بعض من لا علم له بوضع لغة العرب في مثنى وثلاث ورباع بجواز نكاح الرجل من تسع نسوة حرائر مستدلاً على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء/ ٣].

منهم من يرى شحم الخنزير وجلده حلالًا؛ لأن الله قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة/ ٣]، فلم تحرِّم الآية شيئًا من أعضاء الخنزير غير لحمه!

وكذلك فسَّر بعضهم كلمة «غوى» في قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه/ ١٢١]

---

(١) هو أبو منصور العجلي، والكِسْف لقبه، صلبه يوسف بن عمر الثقفي والي العراق في أيام هشام بن عبد الملك، وكان أبو منصور يزعم أنه عرج به إلى السماء، وأن الله مسح بيده على رأسه، وقال له: يا بني! بلِّغ عني. وأباح المحرمات، وأسقط الفرائض، وكان أتباعه يؤمنون بنبوّته. و انظر المزيد عنه وعن طائفته «المنصورية» في: «الفَرْق بين الفِرَق»٢٤٣-٢٤٥)، و«اختلاف الحديث» (١/ ٢١٨-٢١٩)، و«عيون الأخبار» (٢/ ١٤٧)، و«الفِصَل» (٤/ ١٨٥)، و«الملل والنِّحَل» (٢/ ١٤، ١٥). (تر)

بمعنى أنه تخم من أكل الشجرة، من قول العرب: «غوي الفصيل يغوي غوىً» إذا بشم من شرب اللبن، وهو فاسد، لأن غَوِيَ الفصيلُ «فَعِلَ» بفتح فكسر، من باب فَرِحَ، والذي في القرآن على وزن «فَعَلَ» أي بالفتح.

وكذلك فسَّر بعضهم كلمة «خليلاً» في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء/ ١٢٥]، بمعنى: فقيراً إلى رحمته، من الخَلَّة بفتح الخاء بمعنى المسكنة!.

فهذه الجماعة لما لم يكن لها علم كامل بلغة العرب و قواعد الأدب العربي تمسكوا بتلك الأوهام و فسروا كتاب الله بآرائهم واتبعوا في ذلك أهواءهم وقد أدَّى بهم ذلك إلى تحريف كلام الله وتفسيره حسب هواهم وبما لا يشهد له اللسان العربي.

وخلاصة الكلام، كل معنى يُراد أخذه من ألفاظ القرآن لا بد أن يكون موافقاً لقواعد الكلام العربي وأن يكون معنىً يفهمه المخاطبون، كما أنه إذا كان العرب يستعملون لفظة معينة في معنى خاص لم يجز أن يُعطى لتلك اللفظة معنى آخر اتِّباعاً للهوى.

شرط فهم باطن القرآن أن يوافق لغة العرب ويشهد له الشرع، وتأويلات فرق الباطنية باطلة

هناك شرطان لازمان لفهم باطن القرآن أي المراد من الخطاب فيه وحقيقة قصده وهما:

الشرط الأول: أن يصح ذلك المعنى الباطن على مقتضى الظاهر المقرَّر في لسان العرب، ويجري على المقاصد العربية. والدليل على ذلك أنه من الواضح أن القرآن عربيٌّ، فلو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب؛ لم يوصف بكونه عربيّاً بإطلاق، فكل معنى ليس في ألفاظ القرآن ما يدل عليه، لم يصح أن ينسب إليه أصلًا، بل هو معنى مخترع ومصطنع.

ولأنه لو صح أن نفسر القرآن بمعان لا يدل عليها لفظه العربيّ أبداً، لجاز أن يفسره غيرنا بضد المعاني التي فسَّرناهُ بها، ولا مرجّح يدل على أحدهما؛ فإثبات أحدهما تحكُّمٌ وتقوُّلٌ على القرآن ظاهرٌ، ولأنه عندما لا نهتم أصلاً بالألفاظ واستعمالاتها في اللغة العربية فإنه يمكننا أن ننسب للقرآن أي معنى نريده وذلك مثل من زعموا في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾

[الشمس/ ١] أن المراد من «الشمس» النبي الأكرم، والمراد من «ضحاها» أمير المؤمنين علي بن أبي طالب! ويوجد الكثير من مثل هذه التفسيرات في تفاسير الأخبارية من الشيعة.

أولاً: ينبغي أن ننظر هل يفهم العرب من كلمة الشمس معنى الرسول الأكرم؟ أم هل يوجد في أي كتاب من كتب اللغة أن أحد معاني الضحى هو أمير المؤمنين؟ لا شك أنه لا يوجد مثل ذلك إطلاقاً. وثانياً إن مثل هذه التفسيرات هي في الواقع لعب بالقرآن وافتراء على الله والقيام بذلك إثم كبير وفتح للباب أمام الدجالين وأدعياء الباطل ليدَّعوا مَعَان للقرآن ما أنزل الله بها من سلطان!

والشرط الثاني: أن يكون لهذا المعنى شاهدٌ نصّاً أو ظاهراً في محل آخر من القرآن يشهد لصحته من غير معارض، أو أن تشهد له سنة رسول الله ﷺ.

بهذين الشرطين فقط: موافقة لغة العرب و وجود شاهد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ يمكن فهم باطن القرآن. فتبين من ذلك أن المعاني التي يفسر بها الباطنية كتاب الله كلها أباطيل وأوهام، وذلك مثل قولهم في «الجنابة»: إن معناها مبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق، ومعنى «الغسل» تجديد العهد على من فعل ذلك، ومعنى «الطهور» هو التبرّي والتطهُّر من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام، و«التيمُّم» الأخذ من المأذون إلى أن يشاهد الداعي أو الإمام، و«الصيام» الإمساك عن كشف السر، و«الكعبة» النبيّ، و«الباب» عليّ، و«الصفا» هو النبيّ، و«المروة» عليّ، و«التلبية» إجابة الداعي، و«الطواف سبعًا» هو الطواف بمحمد -عليه الصلاة والسلام- إلى تمام الأئمة السبعة، و«الصلوات الخمس» أدلة على الأصول الأربعة وعلى الإمام، و«نار إبراهيم» هو غضب نمرود لا النار الحقيقية، وذبح «إسحاق» هو أخذ العهد عليه، و«عصا موسى» حجته التي تلقفت شبه السحرة، و«انفلاق البحر» افتراق علم موسى -عليه السلام- فيهم، و«البحر» هو العالم، و«تظليل الغمام» نصب موسى الإمام لإرشادهم، و«المن» علمٌ نزل من السماء، و«السلوى» داع من الدعاة، و«الجراد والقمل والضفادع» سؤالات موسى وإلزاماته التي تسلَّطت عليهم، و«تسبيح الجبال» رجال شداد في الدين، و«الجن الذين

ملكهم سليمان» باطنية ذلك الزمان، و«الشياطين» هم الظاهرية الذين كلفوا الأعمال الشاقة، إلى سائر ما نقل من خطابهم الذي هو عين الخبال، وضحكة السامع، نعوذ بالله من الخذلان[١].

هذه التأويلات الباردة، البعيدة عن المعاني الحقيقية للألفاظ وعن المنطق والعقل والدين، شاعت بين المسلمين إلى درجة أصبح إنكارها ومنع القول بها عملاً في غاية الصعوبة، حتى أن جماعة الأخباريين من الإمامية رغم مخالفتهم للباطنية في الأصول والفروع أوردوا أمثال تلك التأويلات في كتبهم!

هذه التأويلات وأمثالها هي التي كانت السبب في نشأة فرق ضالة كالقاديانية والبابية والأزلية والبهائية وملاحدة الصوفية. أعاذنا الله وجميع المؤمنين من شرور أنفسنا.

التفسير بالرأي وتقسيمه إلى جائز و ممنوع

لا شك أن تفسير الإنسان لآيات القرآن برأيه الشخصي- وعقائده الذاتية يُعَدُّ عملاً مذموماً في الشرع المقدس يعرِّض فاعله لعذاب النار، ويكفي في ذم هذا العمل الحديث النبوي الشريف الذي يقول: «**مَن فسَّر القرآن برأيه فليتبوَّأْ مقعدهُ من النار**»[٢]، وقد أُثِرَ عن الأئمة الهادين عليهم السلام أن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح، والنصِّ الصريح.

والتحقيق في هذا المبحث هو أن التفسير إذا تم على نحو مطابق لكلام العرب وموافقٍ

---

(١) منقول من كتاب الموافقات للشاطبي، ج٤/ ص ٢٣٣. وقال محققه: وتوجد هذه الأمثلة ونحوها في «قواعد عقائد آل محمد» (ص٤٧) لمحمد بن الحسن الديلمي، ط إستانبول، مطبعة الدولة، ١٩٣٨م. (تر)

(٢) ورد هذا المعنى بألفاظ قريبة في عدة روايات عن الإمام الصادق ذكرها الحر العاملي في «وسائل الشيعة»، منها الحديث (٣٣٥٦٦) وفيه: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار» ومنها الحديث (٣٣٥٦٨) وفيه: «وَ مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَقَدِ افْتَرَى عَلَى الله الْكَذِب». ومن طرق أهل السنة أخرجه الترمذي (ح ٢٩٥١) من حديث ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «..**وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»، وقال هذا حديث حسن. وهو عند النسائي في الكبرى. وفيه روايةٍ أخرى رواها الترمذي وأبو داود في سننهما والنسائي في سننه الكبرى: «**عن جندب قال قال رسول الله ﷺ: من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ**». (تر)

للكتاب والسنَّة فلا يمكن القول بأن مثل هذا التفسير منهيٌّ عنه وممنوع، وذلك لعدَّة وجوه:

١ – لقد أمر الله تعالى بالتدبُّر في كتابه لفهم مراده واستنباط الأحكام منه، ولم يصل إلينا من المعصوم تفسير جميع آيات القرآن، في حين أن الحاجات والحوادث تزداد يوماً بعد يوم، وبالتالي فإمَّا أن نتوقَّف عن العمل بالقرآن ونعطل الأحكام وهذا غير ممكن، أو أن نجتهد في فهم القرآن ونستخرج منه الحكم بشأن الحوادث المستجدَّة والحاجات المتجدِّدة.

٢ – لو كان تعلُّمُ كتاب الله وتدبُّرُ آياته عملاً غير جائز، ولو كان الاجتهاد في فهم القرآن وتفسيره بالرأي المحمود حراماً مطلقاً لكان من اللازم أن يفسِّر الرسول الأكرم والأئمة الطاهرين جميع آيات القرآن كي لا يحتاج أحدٌ إلى إعمال النظر والفكر فيها، ومن المسَلَّم به أن الرسول والأئمَّة قد بيَّنوا معاني الآيات التي لا سبيل لعقل الإنسان أن يدرك مراميها، ولكنهم أوكلوا إلى عقول علماء الأمة المرحومة واجتهاد الراسخين في العلم فَهْمَ وتفسير أغلب الآيات وأكثرها، وبناء عليه ليس من الضروري أن يُؤثر عن الرسول ﷺ والأئمة الطاهرين تفسير جميع آيات القرآن وكلماته.

٣– كان أصحاب رسول الله ﷺ أولى بالاحتياط من غيرهم وأجدر بالامتناع عن تفسير معاني آيات القرآن لو كان ذلك ممنوعاً، هذا في حين أننا نجد أنهم كانوا يفسرون القرآن بما يفهمونه ومعظم التفاسير وصلت إلينا عن طريقهم:

أما لو كان إبداء الرأي والاجتهاد في تفسير آيات القرآن غير مطابق للغة العرب ولا للأدلة الشرعية من الكتاب والسنة فلا شك أنه تفسير بالرأي المذموم واجتهاد خاطئ مرفوض وافتراء على الله، وقد منع الشارع مثل هذا التفسير بالرأي منعاً مؤكداً.

إذن للنهي عن الرأي في القرآن وجهان:

الوجه الأول: أن يكون للمفسر رأي في شيء وله إليه ميلٌ من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج به على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى.

وهذا الوجه من التفسير بالرأي المذموم على عدة أقسام:

القسم الأول: أن يكون هذا التفسير بالرأي مع العلم. كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبِّس به على خصمه. **وهذا مثل صنيع الفرق الضالة التي تفسِّر آيات القرآن طبقاً لأهوائها لإضلال الناس.**

والقسم الثاني: أن يحصل هذا التفسير بالرأي على جهلٍ من صاحبه، أي أن يتخيل صاحبه أنه يفهم القرآن مع أنه جاهل بمعناه، فإذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه فيكون قد فسَّر برأيه، أي أن رأيَهُ هو الذي يحمله على ذلك التفسير ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه[1].

لو دقَّقْنا النظر في كثير من التفاسير الموجودة لرأينا أن كثيراً منها اعتمد على آراء صاحبه الشخصية دون أن يكون لتفسيره أي علاقة بكتاب الله. فمثلاً نرى أن شخصاً معتزلياً يفسر آيات القرآن طبقاً لعقائد المعتزلة، مثل تفسير الكشاف، أو نرى مفسراً أشعرياً قد اتخذ آراءه وعقائده من أدلة غير كتاب الله، ثم أتى إلى القرآن فأخذ يفسّر آياته طبقاً لعقائده الأشعرية وذلك مثل تفسير البيضاوي وتفسير الفخر الرازي، أو نرى فيلسوفاً يؤمن بآراء الفلاسفة وعقائدهم فيفسر القرآن طبقاً لعقائده الفلسفية وذلك مثل صدر المتألِّهين الشيرازي الذي فسر القرآن طبقاً لفلسفته، أو نرى شخصاً باطنياً قد بنى عقائده وآراءه من مصادر غير القرآن، ثم أتى إلى القرآن فأخذ يؤوله طبقاً لآراء الباطنية، وذلك مثل الملا عبد الرزاق الكاشي (أو الكاشاني)، أو نرى شخصاً صوفياً أخذ عقائده الصوفية من غير القرآن ثم لما أراد أن يفسر القرآن فسره طبقاً لآراء الصوفية وعقائدهم، والأمر ذاته ينطبق على بقية المذاهب والفرق المختلفة التي نشأت في الإسلام حيث قامت كل فرقة بتطبيق القرآن على عقائدها مما أوقع الإسلام والمسلمين في الاختلاف والتشتت وجعل أربعمئة مليون مسلم خاضعين لسيطرة الأمم الأخرى ووقع عليهم ما وقع!.

---

(١) استفاده المؤلف رحمه الله من إحياء علوم الدين للإمام الغزالي بتصرف يسير. (تر)

والقسم الثالث من الوجه الأول للتفسير المذموم بالرأي: أنه قد يكون للشخص غرضٌ صحيحٌ فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدلُّ عليه مما يعلم أنه ما أريد به! كالذي يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول: قال الله عز وجل: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه/ ٢٤] ويشير إلى قلبه ويومئ إلى أنه – أي القلب القاسي– هو المراد بفرعون! أو كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله ﷺ: «**تَسَحَّرُوا فإن في السحور بركة**»[(١)] ويزعم أن المراد به التسحُّر بالذكر وهو يعلم أن المراد به التسحُّر بالأكل. وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع لأنه من التفسير بالرأي الذي نهى عنه الشرع المقدَّس نهياً أكيداً[(٢)].

والوجه الثاني من التفسير المذموم بالرأي: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير رجوع إلى أسباب النزول و تاريخ العرب في الجاهلية و سنة النبي ﷺ، ودون استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلّق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدّلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير. فمن لم يحكم بظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية دون مراجعة النقل والسنَّة والسماع، كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسّر بالرأي الذي بين النبي ﷺ أنه يتبوَّأ مقعده من النار.

الطريقة المثلى لتفسير كتاب الله وفهمه: من أراد أن يفسِّر القرآن فعليه أن يبحث عن تفسير القرآنُ في القرآنِ نفسه لأن القرآن يفسِّر بعضه بعضاً، فما أُجْمِلَ في مكَانٍ قد بُسِطَ في مَوْضِعٍ آخرَ، فإن أعْياهُ فَعَلَيْهِ بسُنَّة النبي؛ فإنها شَارِحةٌ للقُرْآنِ وَمُوَضِّحةٌ له، وحِينَئذٍ إذا لم يَجِدِ التفْسِيرَ فِي القُرآنِ ولا في السُّنةِ رَجَعَ في ذلك إلى أهل بيت النبيِّ عَليهِمُ السَّلام وإلى أَقْوالِ الصَّحابةِ؛ فالرجوع إلى أهل البيت طريقٌ مرضيٌّ للغاية لأن أهل البيت أدرى بما فيه، والرجوع إلى الصحابة

(١) المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٥٩/ ص ٢٩٢. والحديث متفق عليه لدى أهل السنة حيث رواه البخاري ومسلم وغيرهما. (تر)

(٢) استفاد المؤلف رحمه الله هذه الفقرة من إحياء علوم الدين للإمام الغزالي بتصرف يسير. (تر)

طريق صحيح أيضاً لأنهم أدْرَى بذلك لما شَاهَدُوا من القَرائِنِ والأحْوالِ حين نزول القرآن.

وبالنسبة إلى الاستفادة من التفاسير والرجوع إليها فإن أفضل التفاسير التفسير الكبير لابن جرير الطبري، وتفسير مجمع البيان [للطبرسي] و مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني، إذ إن معرفة معاني ألفاظ القرآن معينة جداً على فهمه. اللهم ارزقنا فهم القرآن برحمتك يا أرحم الراحمين.

تقسيم موضوعات القرآن وبيان محتوياته

سرُّ القرآن ومقصوده الأقصى دعوة الخلائق إلى خالقهم وخالق العالم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦]. والغاية المطلوبة للقرآن هي الرقي بالعبد من حضيض النقصان إلى أوج الكمال والعرفان، وسوق الناس إلى كعبة الكمال والإيمان، فهذا الكتاب يبحث في كيفية السفر نحو الله ومجاورة المقربين من ساحة قدسه في طبقات الجنان وكيفية النجاة من الشقاء ومن دركات الجحيم، ولهذا تنحصر فصول القرآن وأبوابه وسوره وآياته في ثلاثة مقاصد تشكل أركان القرآن وأصوله الهامة الأساسية وثلاثة مقاصد أخرى متفرعة عنها ومتممة لها.

أما الأصول الثلاثة المهمة

١ - معرفة مبدأ العالم بالربوبية وبيان صفات الربوبية وكيفية عبادة رب العالمين، وبيان توحيد الذات والصفات وتوحيد الإلهية وتوحيد العبادة ونبذ الأنداد، وقد بينا هذا الموضوع بشكل كامل في رسالتنا «**توحيد العبادة**» التي طُبعت في طهران.

٢ - معرفة الصراط المستقيم وطريقة معرفة الله والطريق الذي يوصل الإنسان إلى الله.

٣- معرفة المعاد -أي الآخرة- وكيفيتها وبيان حال العباد في تلك النشأة.

وأشرف هذه الأصول العلم بالله وباليوم الآخر: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء/ ٣٩]. وبعد ذلك معرفة الصراط المستقيم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة/ ٦]. والمراد من الصراط المستقيم معرفة كيفية تزكية النفس وتنوير القلب وتخليص النفس من شوائب الطبيعة وكثافة

عالم المادة.

وأما الأصول الثلاثة التابعة والمتممة

١- أحوال الرجال الذين سلكوا الطريق إلى الله ووصلوا إلى غاية المقصود من الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين.

٢- أحوال الذين أعرضوا عن الله وانحرفوا عن طريق الإنسانية المستقيم فوقعوا أسرى الشياطين وتاهوا في أودية الشرك والجهالة وهلكوا في الدنيا والآخرة مثل فرعون وقارون وأصحاب لوط وقوم نوح وأمثالهم.

٣- بيان معالم الطريق وكيف يمكن للإنسان أن يُحصّل زاد السفر.

وبيان ذلك باختصار أن الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله، والبدن هو مَرْكَب الإنسان فلا تجوز الغفلة عن تدبير المنزل والمركب، ولا يمكن لهذا السفر أن يتم وينتهي إلا بحفظ الدين وبقاء النوع، فالإنسان محتاج إلى قانون يدير حياته، وجميع آيات الأخلاق في القرآن وأبواب الفقه فيه من طهارات وعبادات ومعاملات وسياسات ونكاح وطلاق وإرث وكتاب أطعمة وأشربة هي بيان لمعالم الطريق.

لقد أعطى القرآن للإنسان دستوراً كاملاً للحياة منذ انعقاد نطفته وحتى لحظة وفاته، والمراد من بيان معالم الطريق هو هذا الأمر، ولما كانت هذه الرسالة مبنية على قاعدة الاختصار فإننا نحجم هنا عن بيان دقائق الأحكام ونحيل القرّاء الكرام إلى كتاب مفصل ألّفته عن سر التشريع. وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ.

مقاصد القرآن من تشريع الشريعة والأحكام

قبل الشروع في المقصود لا بد من مقدمة كلامية مسلمة في هذا الموضوع:وهي أن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً، والقرآن أمر بما فيه مصلحة العباد ونهى عما فيه مفسدتهم، و وظيفة الرسل هي بيان المصالح والمفاسد وهذا هو سبب الحاجة للرسل.

والشاهد على ذلك الآيات الواردة في كتاب الله والتي ذكرت الغايات والمصالح التي لأجلها

شرع الله الشرائع.

١- قال تعالى مبينا الغاية والمصلحة من بعثة الرسل بشكل عام: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء/ ١٦٥]، وقال أيضاً بشأن بعثة الرسول الأكرم خاصَّةً: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء/ ١٠٧].

٢- وقال تعالى في بيان الحكمة والمصحة من أصل الخلقة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود/ ٧]، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات/ ٥٦]، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك/ ٢].

وأما تعليلات تفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة، فأكثر من أن تحصى، ونكتفي هنا بذكر بعضها:

١- قال تعالى بعد آية الوضوء: ﴿ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة/ ٦].

٢- وقال في الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة/ ١٨٣]

٣- وفي الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت/ ٤٥].

٤- وقال في القبلة: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [البقرة/ ١٥٠].

٥- وفي الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ [الحج/ ٣٩]

٦- وفي القصاص: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة/ ١٧٩].

٧- وفي التقرير على التوحيد: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف/ ١٧٢]، والمقصود التنبيه.

وإذا دل الاستقراء على هذا، وكانت مثل هذه القضية مفيدة للعلم، فنحن نقطع بأن الأمر

مستمر في جميع تفاصيل الشريعة.

مقاصد الشريعة ضروريَّة و حاجيَّة و تحسينيَّة

أما الضروريات، فهي التي لا بد منها لقيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فُقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين، مثلها في ذلك مثل الماء والهواء اللذين إذا لم يوجدا امتنع التنفس واستحالت حياة الإنسان، فكذلك المقاصد الضرورية إذا لم تتم مراعاتها استحالت حياة الدنيا والآخرة.

أما الحاجيات، فمعناها أنها مُفتقرٌ إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراع دخل على المكلفين- على الجملة- الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة. فالحاجيات يُقصد منها ترفيه العباد والتيسير عليهم مثل قصر الصلاة والإفطار من الصوم في السفر وأكل الميتة في المخمصة، يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج/ ٧٨].

أما التحسينيات، فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق.

الضروريات خمسة

ومجموع الضروريات خمسة، وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل.

١- **حفظ الدين**: لأن أول شيء يدعو الأنبياءُ والرُّسُلُ البشَرَ إليه هو الدين، والمراد من الدين الاعتقاد بالمبدأ والمعاد وربط الخلائق بالله، وغاية خلقة الإنسان عبادة الله الواحد الأحد: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦]، وهذه العبادة وربط الخلق بالحق تمثل جوهر الحياة ولب المعرفة والغاية القصوى لسير الإنسانية، فما لم يعرف الناسُ اللهَ وما لم يعبدوه ويتقربون إليه زُلفى لن يحيوا، فأهم أصل في القرآن حفظ الدين وربط الخلق برب العالمين، وبناء

عليه أَمَرَ اللهُ في القرآن بسلسلة من أحكام الشريعة التي تهدف إلى حفظ هذا الأصل، أي تقريب الإنسان من الله وإيجاد روح الطاعة والعبودية في نفسه لِلَّهِ، كالصلاة والصوم والزكاة والصدقات وأمثالها. كما نهى القرآن الإنسانَ عن كل ما يبعده عن الله كالشرك الأكبر والأصغر وطاعة غير الله وطلب الحوائج من غيره والأمن من مكر الله واليأس من روحه وأمثالها.

٢- **حفظ العقل**: غرض القرآن الآخر من وضع الشريعة حفظ العقل. يجب على الأنبياء والرسل أن يحفظوا عقول الناس وما لم يتم حفظ عقل الناس وقيام الناس باستخدام عقلهم وإرادتهم فلن يكون من الممكن أن يصلوا إلى الرقي والتكامل وتحصيل سعادة النشأتين. فالقرآن يخاطب العقلاء فلا بد أن يضع أحكاماً تحفظ للإنسان عقله كي ينتبه إلى كعبة الكمال.

ولذلك أمر القرآن بما يحفظ العقل كالتدبُّر في آيات الله ومطالعة عالم الخليقة والتفكُّر والتعلُّم وأمثالها. كما نهى عما يخرب العقل مثل تقليد الآباء وطاعة الكبراء والرهبان والأحبار واتباع الظن، ومثل تحريمه لشرب الخمر والمسكرات وأمثالها حفظاً لعقول الناس.

٣- **حفظ البدن**: لما كانت الدنيا مزرعة الآخرة وكان الإنسان في حالة سفر، فما لم يتم حفظ المركب لن يصل الإنسان إلى المقصد، لذا اعتنى القرآن بشكل كامل بحفظ النفوس. فأمر القرآن بكل ما يحفظ النفس ونهى عن كل ما يهلكها كالقتل والضرب والظلم والجور والجرائم وأمثالها.

٤- **حفظ النسل**: لما كان أفراد البشر غير خالدين في الدنيا وكان دوام الإنسان ببقاء نسله فقد أمر القرآن بما يحفظ النوع من طريق التناسل ونهى عما يهلك النسل ويقطعه كالزنا واللواط وأمثالها.

٥- **حفظ المال**: بما أن الإنسان لا يستطيع طي منازل الحياة إلا إذا امتلك المال؛ أمر القرآن بما يحفظ المال ونهى عما يتلفه فنهى عن الإسراف والسرقة والخيانة والإضرار بالآخرين وأمثال ذلك.

وخلاصة الكلام إن الغاية من الشريعة حفظ هذه الأصول الخمسة وقد ذكرناها هنا على سبيل الإشارة لأن تفصيل هذا المجمل يحتاج إلى كتاب مفصل وبناؤنا في هذه الرسالة على

الاختصار لذا أعرضنا عن بيان تفاصيل هذه الأمور، وأحيل القُرّاء إلى كتابي المفصل في الفقه الذي كتبتُهُ حول هذا الموضوع وأسأل الله تعالى أن يوفقني لإصلاحه وطبعه ونشره.

الناسخ والمنسوخ في القرآن

النسخ في أصل اللغة معناه إبطال الشيء وإزالته وإحلال شيء آخر محله، وفي اصطلاح المحققين هو انتهاء مصلحة الحكم الأول. وقد بينا سابقاً أن أحكام الشرائع والديانات إنما وُضعت لأجل جلب المصالح للعباد وما من حكم شرعه الله إلا وفيه مصلحة للناس، فالشارع المقدس يلاحظ المصلحة أولاً ثم يشرع لتحقيقها ذلك الحكم، ولما كانت مصالح العباد تختلف حسب الأزمنة والأمكنة، كما أن نظام أمور الجمهور يختلف حسب الأزمنة فقد وقع النسخ في الشرائع من هذه الجهة. ونكتفي هنا بذكر مثال يوضِّح هذا الأمر، وهو أن نقول إن أوامر الشارع ونواهيه تشبه أوامر الطبيب ونواهيه؛ فعندما يذهب المريض إلى الطبيب فيقول له الطبيب عليك أن تتناول مسهلاً أو تأخذ الدواء الفلاني أو يقول له عليك أن تجتنب أكل الحامض، فإن أمر الطبيب هذا ونهيه محدودان في الواقع بزمان خاص، لكن المريض قد يتصور أن هذا الأمر والنهي دائمان، ولا شك أن الطبيب أراد من ذلك الأمر والنهي جلب المنفعة ودفع المضرة عن المريض، وعندما يتم إحراز هذه المصلحة وإزالة تلك المفسدة يتم نسخ حكم الطبيب أي لا تعود هناك مصلحة في تناول ذلك الدواء أو الحمية من الحوامض، فَنَسْخُ أحكامَ الشرع هو على هذا المنوال بمعنى أن مصلحة الحكم قد انتهت وليس معناه أن الحكم من أساسه رُفع. إذا عرفت معنى النسخ وحقيقته فإننا نبين لك أمرين لفهم النسخ في القرآن والشريعة:

١ – من المسلمات أن الأمور التي نزل القرآن للدعوة إليها في بداية الإسلام والتي تكفَّلت بذكرها السور المكية هي الأحكام الكلية والقواعد الأصولية في الدين؛ فأول ما دعا القرآنُ الخلائقَ إليه هو الإيمانُ بالله وبرسوله وباليوم الآخر، ثم شرع بعد ذلك الصلاة ونهى عن الشرك والكفر وتوابعها كالذبح لغير الله وأمثال ذلك نهياً أكيداً، كما دعا إلى مكارم الأخلاق كالعدل والإنسان وأمر بالوفاء بالعهد والإعراض عن الجاهل والدفع بالتي هي أحسن وخوف الله

والصبر والشكر. ونهى عن الأخلاق الرذيلة وعن الفحشاء والمنكر والبغي والقول بغير علم والتطفيف في الكيل والوزن والفساد في الأرض والزنا والقتل ووأد البنات وأمثالها من الأمور التي كانت رائجة في دين أهل الجاهلية. إذن تكفَّلت الآيات المكية بالكليات. ثم بعد الهجرة إلى المدينة المنورة بدأ إكمال تلك القواعد:

٢- من البديهيات الأولية أن الأحكام العقلية الكلية لا تقبل النسخ والتخصيص، فمثلاً القاعدة العقلية التي تقول إن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، أو إن الكل أعظم من الجزء، لا يمكن تصور نسخها بأي شكل من الأشكال، وقد ذكرنا في الفصل السابق أن القرآن حافظ للضروريات والحاجيات والتحسينيات، وأن الضروريات هي حفظ الدين والعقل والبدن والنسل والمال، وكليات الشرائع كليات عقلية لا تقبل النسخ والتخصيص، وقد جاءت جميع الشرائع السماوية لحفظ هذه الأصول، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ...﴾ [الشورى/ ١٣].

ففي هذه الآية المباركة تصريح بأن جميع الأنبياء دعوا إلى أصول واحدة ولا اختلاف بين الرسل في ذلك، قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة/ ٢٨٥]. إذن، اختلاف الشرائع هو في الأمور الجزئية فقط والنسخ في الشرائع هو في الجزئيات فحسب، فناسخ القرآن ومنسوخه ليس في الكليات العقلية لأنها لا تقبل النسخ أبداً: «**حَلَالُ مُحَمَّدٍ حَلَالٌ أَبَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ حَرَامُهُ حَرَامٌ أَبَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1].

وخلاصة الكلام إن النسخ في الديانات وكذلك النسخ في بعض أحكام القرآن إنما هو في الأمور الجزئية فقط وبعبارة أوضح نسخ الأحكام هو في الأمور التحسينية والشكلية في الشريعة والدين وليس في الكليات وقواعد الشريعة، وذلك مثل تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أو تغيير حكم طلاق المرأة الذي كان في بداية الأمر غير محدود بعدد ثم حُدِّد بثلاث طلقات، أو

(١) الكُلَيْنِيّ، «الكافي»، ج١/ ص٥٨، ح ١٩. (تر)

أن الظهار كان يُعَدُّ طلاقاً ثم لم يَعُدْ يُعْتَبَر طلاقاً وأمثال ذلك. وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ.

المحكم والمتشابه في القرآن وبيان حقيقته

مبحث محكم القرآن ومتشابهه من مشكلات فن علوم القرآن وقد وُجِدَتْ فيه آراء وأهواء متضادة، ولما لم يأتِ الناسُ هذا الأمرَ من أبوابه الصحيحة تشتَّتْ أفكارُهم، ولذلك فإننا سنقوم ببيان مخ هذا المطلب ولب حقيقته مستمدين المدد لذلك من رب العالمين، فنقول وبالله التوفيق:

إن القرآن يصرح في بعض مواضعه أنه محكمٌ كلُّه ويصرح في موضع آخر أنه متشابه كلُّه، و يبين لنا في موضع ثالث أن بعضه محكم وبعضه متشابه.

أما الآيات التي تدل على أنه محكمٌ كلُّه فقوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس/ ١]، وقوله ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود/ ١].

أما الموضع الذي يقول فيه أنه متشابهٌ كلُّه فهو قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[الزمر/ ٢٣].

أي: أن الله أنزل أحسن الحديث كتاباً يشبه بعضه بعضاً في الإعجاز وجودة الألفاظ وصحة المعاني والحسن والجمال والهداية والبلاغة ويصدق بعض الكتاب بعضه الآخر، وقد أشار تعالى إلى هذا الأمر في قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء/ ٨٢].

والمراد من المثاني أن حوادث الزمان لا تُبلي القرآن، فكل شيء يندرس ويضمحل مع الزمن إلا القرآن، ويمكن أن يكون المراد من المثاني أن للقرآن فوائد متجددة يكتشف الناس منه كل يوم فوائد لم يدركها السابقون، والقرآن يعين على تكامل البشر ورقيهم، وهذا القرآن خالد. وفسر بعضهم المثاني أن القرآن مشتمل على أزواج من المعاني مثل الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والرحمة والعذاب، والجنة والنار، والمؤمن والكافر.

وأما الآيات التي تدل على أن بعض القرآن محكم وبعضه متشابه، وهي موضع بحثنا، فهي قوله تعالى في الآية المباركة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران/ ٧].

تصرح هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن فيه محكم ومتشابه ولأجل تحقيق المحكم والمتشابه سنحتاج إلى بيان بعض المباحث التالية:

١- **المحكم**: العرب تقول: حاكمت وحكمت وأحكمت بمعنى رددت، ومنعت، والحاكم يمنع الظالم عن الظلم وحكمة اللجام التي هي تمنع الفرس عن الاضطراب، وفي حديث النَّخَعِيّ: «أَحْكِمِ اليتيمَ كما تُحْكِم وَلَدك» أي امْنَعه من الفساد كما تمنع ولدك. وقال جرير: أحكموا سفهاءكم، أي امنعوهم، وبناءٌ محكمٌ أي وثيقٌ يمنع من تعرَّض له، وسميت الحكمة حكمة لأنها تمنع عما لا ينبغي[(١)].

٢- **المتشابه**: الشِّبه والشَّبَه والشبيه حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفية كاللون والطعم وكالعدالة والظلم، والشُّبْهَة هو أن لا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو معنىً، قال: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة/ ٢٥] أي يشبه بعضه بعضا لوناً لا طعماً وحقيقةً، وقيل متماثلاً في الكمال والجودة، وقوله: (تشابهت قلوبهم) أي في الغيّ والجهالة، قال: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران/ ٧] والمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره إما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى[(٢)].

٣- **أم الكتاب**: يُقَال لكل ما كان أصلاً لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه أمٌّ، قال الخليل: كل شيء ضم إليه سائر ما يليه يسمى أمَّاً، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

---

(١) فخر الدين الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، ذيل تفسير الآية ٧ من سورة آل عمران. (تر)

(٢) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، مادة (شبه). باختصار. (تر)

[الزخرف/ ٤]: أي اللوح المحفوظ وذلك لكون العلوم كلها منسوبة إليه ومتولدة منه. وقيل لمكة أم القرى وذلك لما روى أن الدنيا دحيت من تحتها، وأم النجوم المجرَّة[١].

٤- **التأويل**: يقول الراغب الأصفهاني: «التأويل من الأَوْل أي الرجوع إلى الأصل ومنه الموئل للموضع الذي يرجع إليه وذلك هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كان أو فعلاً، ففي العلم نحو: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ..﴾ [آل عمران/ ٧]. وفي الفعل كقول الشاعر: * وللنوى قبل يوم البين تأويلُ * وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ..﴾ [الأعراف/ ٥٣]: أي بيانه الذي هو غايته المقصودة منه.».

وأما التأويل في اصطلاح أهل التفسير والسلف من أهل الفقه والحديث فمرادهم به معنى التفسير والبيان ومنه قول ابن جرير وغيره: «القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا» يريد تفسيره.

وأما المعتزلة والجهمية وغيرهم من فرق المتكلمين فمرادهم بالتأويل صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهره وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه ولهذا يقولون التأويل على خلاف الأصل والتأويل يحتاج إلى دليل، والتأويل على معنى صرف اللفظ عن ظاهره هو الذي فتح الباب لدخول البدع والخرافات إلى الإسلام.

ومن أقسام لتأويل الباطل تأويل أهل الشام لقول النبي ﷺ لعمار: «**تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ**»[٢]، حيث أوّل أهل الشام كلام النبي هذا بقولهم لم نقتل عماراً وإنما قتله الذين أتوا به إلى الحرب، لكن هذا التأويل مخالف لحقيقة اللفظ وظاهره لأن ظاهر اللفظ يدل على أن المراد من باشر قتل عمار لا من طلب منه النصرة، ولو صح هذا التأويل لوجب اعتبار الرسول الأكرم قاتل حمزة سيد الشهداء -والعياذ بالله- لأن النبي أتى به إلى أحد فنال الشهادة بسيف المشركين.

وسنذكر فيما يلي بعض الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة «تأويل» لرفع الشبهة وإبطال ما ذكره المتأخرون في تفسير مصطلح التأويل وما ادعوه له من معنى:

---

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، ص ٢٢. باختصار. (تر)

(٢) حديث مشهور ومتفق عليه رواه مسلم والبخاري في صحيحيهما وغيرهما. (تر)

١ - قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء/ ٥٩].

قال مجاهد وقتادة أن المراد من التأويل هنا الثواب والجزاء. وذهب السديّ وابن زيد وابن قتيبة والزجاج إلى أن المراد بالتأويل في الآية عاقبة الأمر، وكلا المعنيين يتضمن معنى المآل. لكن المعنى الثاني أعم ويشمل حسن المآل في الدنيا، إذ كثيراً ما يقع التنازع في الأمور الدنيوية فيكون مآل الرجوع إلى كتاب الله وإلى شخص الرسول زمن حياته أو إلى سنته بعد وفاته، وفاقاً وسلامة من البغضاء والعداوة. ولا يمكن أبداً تفسير «التأويل» في الآية بمعنى صرف الكلام عن معناه الظاهر، لأن الكلام في الآية يدور حول التنازع وحول حسن عاقبة الرد إلى الله والرسول ﷺ.

٢ - وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣ ﴾ [الأعراف/ ٥٢-٥٣].

يقول ابن عباس إن المراد من التأويل في هذه الآية التصديق بالوعد والوعيد، أي معنى قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ..﴾ أي يوم يظهر صدق ما وُعِدُوا به من أمر الآخرة.

عن قتادة أن المراد من «تأويله»: ثوابه. وعن مجاهد: جزاؤه. وعن السدي: عواقبه، وعن ابن زيد: قال: تحقيقه أو حقيقته. وهذه المعاني كلها قريبة من بعضها البعض والمراد منها: ما يؤول إليه حال الشيء وما يقع فيما بعد مما أخبر عنه القرآن.

٣- وفي سورة يونس وبعد أن يبيِّن الله تعالى أن القرآن مصدق للتوراة والإنجيل ومنزَّه عمَّا يدعيه المشركون من أنه مفترىً وبعد أن يبيِّن عجز المشركين عن الإتيان بسورةٍ مثله، يقول: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس/ ٣٩].

فسّر أهل التفسير والأخبار لفظةَ «التأويل» في الآية بمعنى المآل، أي أن ما أخبر الله تعالى به

سيقع كما أخبر وسيظهر صدق القرآن، وكما أن عاقبة مكذبي الرسل هي الهلاك فكذلك عاقبة المكذبين بالقرآن هي الهلاك.

٤- وفي سورة يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف/ ٦]. وكذلك قوله تعالى قاصاً قصة صديقي السجن اللذين قالا ليوسف: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف/ ٣٦]، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يوسف/ ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف/ ٤٤]. وقوله كذلك: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف/ ١٠١].

فالمراد بتأويل الأحاديث والأحلام في كل تلك الآيات الأمر الوجودي الذي سيتحقق في الخارج، وليس المراد القول أو اللفظ كما نجد ذلك صريحاً في قوله: ﴿نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف/ ٣٧]، فإنباؤه إياهما بتأويل ذلك هو إخباره عن الأمر الذي سيقع عليهم في المستقبل، ومثله قوله تعالى: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف/ ١٠٠]، أي أن الأمر الذي وقع في الخارج يعني سجود أبي يوسف وأمه وإخوته الأحد عشر أمام يوسف هو الأمر الواقعي الذي هو تأويل رؤيا يوسف الذي أُشير إليه في بداية سور يوسف في قوله تعالى: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف/ ٤].

٥- وفي سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء/ ٣٥]. أي هذا العمل أحسن عاقبةً وجزاءً.

٦- وفي سورة الكهف ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف/ ٧٨]. فلما أخبر الخضر موسى عن حقيقة ومآل الأعمال التي قام بها قال له: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف/ ٨٢].

إذن تبين مما ذكرناه من آيات كريمة ومن نص أهل اللغة أن كلمة «**التأويل**» ليس معناها أبداً صرف اللفظ عن ظاهره كما شاع لدى الخلف، بل معناه مآل الأمر سواء كان بمعنى وقوعه

الخارجي أو التصديق به.

التحقيق في بيان المحكم والمتشابه

إذا تدبرنا ما ذكرناه من مباحث أعلاه سَهُلَ علينا أن نفهم المقصود من المحكم والمتشابه، لكن توضيح ذلك يحتاج إلى تقديم مقدمتين:

المقدمة الأولى: من المسلمات والضروريات أن القرآن يشتمل على دعوة العامة والخاصة كلاهما، بل إن مخاطبي الأنبياء والرسل أولاً وبالذات هم العوام والمراد إصلاح شأنهم، لأنه إذا صلح عامة الناس صلح الرجال والعلماء والملوك والأشراف الذين ينشؤون في الأساس من عامة الناس، عل عكس الفلاسفة الذين لا يستهدفون في دعوتهم إصلاح الشعب والعامة بل ينحصر ما يقومون به من تربية وتعليم، بصفوة المجتمع ونخبته من أصحاب الفهم، ولو تأملنا بدقة لرأينا أن عمل الفلاسفة هذا لا يفيد المجتمع كثيراً، لأنه إذا صلح في المجتمع عشرة أشخاص أو مئة شخص فقط وصاروا ذوي أخلاق فاضلة فإن هذا لن يؤثر في المجتمع، بل إن هؤلاء الرجال الأفاضل سيعانون الشقاء لعيشهم في مجتمع يعج بالجهل وسوء الأخلاق، وسيطردهم الناس من مجتمعهم، مثل حالنا في مجتمعنا الحالي وما يعانيه الفضلاء في مجتمعنا من شقاء بسبب غلبة الجهل والأخلاق الرذيلة.

وهذا الأمر الذي ذكرناه من أن الأنبياء يستهدفون في الدرجة الأولى عوام الناس، قد أشار إليه الله تعالى في كتابه وهو يقص علينا قصة قوم نوح الذين قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء/ ١١١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود/ ٢٧].

ومخاطبة عوام الناس وطبقاتهم الدنيا أمر ليس باليسير، كما أن تعريفهم بحقائق الأمور أمر

عسير جداً ولذا قال الرسول الأكرم: «**شيَّبَتْني هود**»[١]، والمراد قوله تعالى في سورة هود: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود/ ١١٢].

إذن تربية جهال الناس وأراذلهم أمر في غاية الصعوبة ورياضة مهمة ومن هنا قالوا «البلاء للولاء».

ولما كانت إدراكات عوام الناس محدودة وطبائعهم عاجزة عن فهم الحقائق وكان سلطان الحس غالباً عليهم ولا يستطيعون تصور شيء سوى المحسوس، فكيف يمكن للأنبياء والرسل أن يبينوا لهم حقائق عالم الغيب ودقائق نشأة الآخرة ودرجات الرقي، ودركات تنزل النفس كما هي على حقيقتها، لذلك ليس أمامهم إلا مراعاة عقول مخاطبيهم كما ورد في الحديث الشريف: «**نحن معاشر الأنبياء أُمِرْنا أن نكلِّمَ الناس على قدر عقولهم**»[٢].

بناء عليه من الأصلح للناس أن تبين لهم الحقائق المجردة والمسائل المعقولة في قالب عبارات وكلمات يمكن أن يستفيد الجاهلون منها كما يستفيد العقلاء.

مثلاً عندما يسمع الشخص العامي أن عليه أن يتوجه إلى كائن ليس بجسم ولا مكان له ولا يحيط به زمان ولا لون له ولا يمكن الإشارة إليه بالحواس فإن هذا الشخص العامي يتصور أن ما يطلب منه التوجه إليه معدوم وليس موجوداً! إذ كيف يمكن أن يكون هناك شيء موجود ولا يكون له جسم وليس له زمان ولا مكان إذن نفي هذه الأمور سيؤدي إلى نفي الله. لذا فإن الأنبياء يشبهون هذه الحقائق بالمحسوسات كي يقوم عامة الخلق المنهمكين في عالم الحس بعبادة الحق تعالى في قالب التشبيه لأنهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى مقام التنزيه، ولهذا السبب ذكر

---

(١) الشيخ الصدوق، «الأمالي» (ص ٢٣٣) و «الخصال» (١/ ١٩٩) ولفظه: «شَيَّبَتْنِي هُودُ وَالوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ». ومن طرق أهل السنة رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٠٧٣) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. (تر)

(٢) الكُلَيْنِيّ، «الكافي»، ج ١/ ص ٢٣أو ج ٨/ ص ٢٦٨. ومن طرق أهل السنة: قال العجلوني في كشف الخفاء (ج١/ ص٢٢٤): رواه الديلمي بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعا وفي اللآلئ بعد عزوه لمسند الفردوس عن ابن عباس مرفوعاً قال وفي إسناده ضعيف ومجهول انتهى. (تر)

القرآن الكريم صفات لرب العالمين مثل: البصير والسميع والمستولي على العرش ويد الله ووجه الله وأمثال هذه العبارات التي تعرف الحق تعالى للناس الجاهلين الغارقين في عالم الحس بلباس عبارات ظاهرة التشبيه، وبذلك يستفيد أولئك العامة من التشبيه الاستفادة ذاتها التي يستفيدها العقلاء من التنزيه.

المقدمة الثانية: وهي أن عالم الوجود يحتوي على عوالم عدة لكن أصول العوالم ثلاثة عالم الإله وعالم الغيب وعالم الشهادة، وكل من عالمي الغيب والشهادة يشتمل عل عوالم عديدة:

أنت تظن أن لا عالم غير هذا ولا أرض ولا سماء غير هذه

الدودة داخل التفاحة أيضاً أرضها وسماؤها هي التفاحة

يقول تعالى: «عالم الغيب والشهادة».

إن للغيب غيم وماء آخر وله سماء وشمس أخرى

لا يظهر إلا للخاصة من الناس والباقون في لبس من خلق جديد

وعوالم الوجود متطابقة ونشآت عالم الكون متحاذية، ونسبة العالم الأدنى إلى العالم الأعلى كنسبة الشيء الصافي إلى الكدر ونسبة اللب إلى القشر، وكذلك مثل نسبة الفرع إلى الأصل والظل إلى الشخص، ونسبة الشخص إلى الطبيعة ونسبة المثال إلى الحقيقة، فكل ما هو في الدنيا لا بد أن يكون له أصل وإلا لكان سراباً باطلاً وخيالاً عاطلاً، وكل ما كان في الغيب والآخرة لا بد أن يكون له في الدنيا مثال، وإلا لكان مقدمة بدون نتيجة وشجرة بلا ثمر وعلة بلا معلول وجواداً من غير جود. ولما كانت الدنيا عالَمَ الشهادة والمُلْك والآخرةُ عالَمَ الغيب والملكوت، وكان لكل إنسان دنيا وآخرة، والمراد من الدنيا حالته قبل الموت الإنساني والمراد من الآخرة حالته بعد موته، فدنيا الإنسان وآخرته من جملة حالاته ودرجاته، فالحالة والدرجة القريبة تسمى الدنيا (من الدنو بمعنى القرب) والحالة المتأخرة والبعيدة تسمى الآخرة.

وليس تقدم الدنيا على الآخرة بحسب الواقع ونفس الأمر بل هو تقدم إضافي لأن الإنسان في البداية يحدث ويظهر في عالم الحس والشهادة ثم يتحرك بالتدريج لينتقل إلى عالم الآخرة. يقول

الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الإنشقاق/ ٦].

إذن بالنسبة إلى الإنسان: الدنيا أوله والآخرة آخره، وكما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في مرتبة الوجود ولكنها في الرؤيا هي أول، كذلك الدنيا حكاية لعالم الغيب.

والناس في هذا المقام صنفان: الأول أولئك الذين استطاعوا العبور من عالم المُلْك والوصول إلى عالم المَلَكُوت وكذلك من الشهادة إلى الغيب وهذا العبور يطلقون عليه اسم «العبرة» كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [آل عمران/ ١٣]، وقال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر/ ٢].

والصنف الثاني العميان والمحبوسون في سجن الطبيعة وأسرى عالم الحس والمحسوس، ويقولون ليس وراء مدينة عبادان قرية و لا وراء جسم الإنسان المادّيّ شيء آخر، وقد سيطر عليهم الحس والخيال وعالم المادة والزمان إلى درجة أصبحوا معها غير قادرين على فهم العالم المجرد فلم يعد لهم طريق إلى عالم الحقائق، فسُلَّمُهم الحس وهو سلم لا يوصل إلى سطح الحقيقة ولا يتناسب معها.

ومعظم القرآن شرح لحقائق عالم الربوبية والآخرة والغيب، ولا يمكن تقرير عالم الغيب للبشر إلا بالتمثيل كما يقول تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٣].

حيث المراد من «العالمون» في هذه الآية الأشخاص الذين عبروا عالم الحس والمحسوس وتجاوزوه ووصلوا إلى عالم العقل والمعقول.

ولما كان الخيال حاكماً في هذا العالم على معظم الناس وكلهم يتحركون بنوع من الخيال كما قال الشاعر:

صُلحُهُم وحربُهُم من الخيال وشهرتهم وعارهم من الخيال

فمثلهم مثل شخص نائم كما قال أمير المؤمنين علي (ع): «**النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا**»[١].

فما يقع في اليقظة لا يظهر في الحلم إلا بنحو المثال الذي يحتاج إلى التفسير، كما أن ما يظهر في يقظة الآخرة لا يظهر في ليل الدنيا الظلماني إلا في لباس المثال، وعلماء تفسير الأحلام يعبرون من عالم المثال ويصلون إلى عالم الحقيقة. ولأجل توضيح هذا الأمر نذكر هنا بعض الأمثلة من تفسيرات ابن سيرين للأحلام، والعقل تكفيه الإشارة والغبي لا يغنيه ألف عبارة.

جاء شخص إلى ابن سيرين وقال: رأيت في الحلم أن خاتماً في يدي وأنني أختم به أفواه الناس وفروجهم. قال ابن سيرين: ستصبح مؤذناً وستؤذن قبل الفجر في شهر رمضان.

وذهب شخص آخر إلى ابن سيرين وقال: رأيت نفسي أضع الدرّ على رقبة خنزير. قال ابن سيرين إنك شخص تعلم العلم لمن ليس له أهل، وكذلك إذا رأى شخص في حلمه حيواناً مفترساً يهجم عليه فتفسيره في اليقظة أنه عدو، أو إذا رأى أنه يشرب حليباً فتفسيره في اليقظة أنه يأخذ العلم، وأمثال هذه الأمور.

إذن في عالم الأحلام يقوم الملك الموكل بالنوم بإظهار الحقائق في لباس أمثلة وتشبيهات، لأن الشخص النائم يرى الحقائق بعين الخيال، وتفسير الأحلام من أوله إلى آخره مثالٌ للطريقة التي يُفهم منها المثل.

وكما أن الحقائق يتم إظهارها في الحلم على نحو المثال والتجسيم، ولا يوجد طريقة غير ذلك، فكذلك لا يمكن لسلسلة الرسل أن يشرحوا للناس المنهمكين في الحس والطبيعة عالمَ الغيب والآخرة إلا بالتمثيل، لأن الرسل مكلفون بمخاطبة الناس على قدر عقولهم، وقد قال كبار العلماء: إن الدنيا دار المنام والأحياء فيها مثل الشخص النائم الذي لا يفهم الحقائق إلا بالتمثيل، فإذا مات صار بصره حديداً وانتبه وعرف الحقائق، وأدرك تفسير الحلم الذي كان فيه. وإذا نظرنا إلى صورة الحلم وجدناها شيئاً آخر، أما عندما ننتبه إلى حقيقتها فيظهر لنا معناها

---

(١) المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٤/ ص ٤٣. ومن طرق أهل السنة ليس حديثاً نبوياً بل قول منسوب إلى علي بن أبي طالب (ع). انظر العجلوني، كشف الخفاء، ج ٢/ ص١٧٩٣. (تر)

الحقيقي. مثلاً يرى الشخص في الحلم أن حيواناً مفترساً يتَّجه نحوه يريد أن يفترسه فإذا استيقظ لم يجد أي حيوان مفترس، ولكن عندما يرى عدوَّه متَّجهاً نحوه يريد القضاء عليه فإن صاحب الحلم يدرك عندئذٍ أن هذا العدو هو ذلك الحيوان المفترس الذي رآه في منامه وبهذا يظهر له تأويل رؤياه.

النتيجة

إذا فُهمت هاتان المقدمتان وإذا دققنا جيداً في المباحث السابقة علمنا أن المراد من المتشابه في القرآن هو أن الحقائق المعقولة في مبدأ العالم والدقائق المحسوسة من اللذات والآلام في المعاد، والمعاني والحقائق التي لا يستطيع الناس المتوغلون في عالم الحس والخيال أن يدركوها، يتم تنزيلها في قوالب الأمثلة والعبارات وإظهارها في لباس الكنايات والاستعارات والتشبيهات، كي يسهُل على الناس الجاهلين فهمها ويتم إرشادهم من خلالها إلى الحقيقة وإلى معرفة الله كي يتخلَّقوا بالأخلاق الفاضلة.

إذن لم تنزل المتشابهات على النبيِّ كي لا يفهمها أحد إلا الله وكي يعجز حتى الأنبياء والأولياء والعلماء عن إدراكها، بل نزول المتشابه هو لأجل هداية الجاهلين وعامة الناس.

ومتشابهات القرآن منحصرة في بيان صفات خالق الكون مثل وصفه بالأذن والعين واليد والوجه والاستواء على العرش وأمثالها، وكذلك في بيان كيفية القيامة والمعاد من مجيء الله والملائكة وكيفية الجنة والحور والقصور والأشجار والأنهار والسندس والإستبرق والأكواب والأباريق وبيان كيفيات جهنم من النار والغسلين والصديد وطبقات الجحيم ودركاتها وأمثال ذلك.

والأمر ذاته قصص القرآن التي ليس الغرض منها بيان التاريخ الصرف بل كلها عبرة لأولي الألباب.

ومن متشابهات القرآن الأخرى كيفية خلق آدم وحواء والخروج من الجنة، وكلها حقائق تجلت في عالم العبارات والكنايات يعلمها الراسخون في العلم.

أما الآيات التي تتكلَّم عن الشريعة وأحكامها وعن الحقوق والسياسات والأخلاق والمعاملات الاجتماعية وتدبير المنزل والمدن، فليست من المتشابهات أبداً، وكذلك الأمر في آيات إثبات المبدأ والمعاد والنبوَّة، بل كلها آيات محكمة وأم الكتاب وليس أي منها من المتشابهات.

وخلاصة الكلام إن القرآن يشتمل على الآيات المحكمة التي هي آيات واضحة بينة وهي أصل وأساس الكتاب وأم القرآن ومرجع ومآل الآيات المتشابهة. والناس في المتشابهات قسمان: قسم وقفوا عند المتشابه ولم يرجعوا إلى أم الكتاب ومحكماته فهؤلاء ضلوا وأضلوا.

والقسم الآخر الراسخون في العلم، والمراد من الراسخين في العلم الذين يميزون المحكمات عن المتشابهات ويعلمون أن المحكم هو الأصل وأم الكتاب ويجب إرجاع المتشابهات إليه، وتأويل المتشابه هو أن يتم إرجاعه إلى المحكم، أي أننا يجب أن نرى مآل المتشابه في المحكم.

وسنبين فيما يلي بعض الأمثلة من القرآن على المحكم والمتشابه، وسنذكر طريقة تأويل المتشابه وإرجاعه إلى المحكم كي يكون في ذلك تبصرةً لقرَّاء الكتاب والمتدبرين في القرآن الكريم.

أمثلة على المحكم والمتشابه وطرق تأويل المتشابه

١ - آيات الصفات: من قبيل الأذن والعين واليد والوجه الاستواء على العرش وأمثالها التي توهم التجسيم، والواقع أن آيات الصفات هذه هي تشبيه لحقائق الغيب المجرد بأمور محسوسة، فكما قلنا لا يستطيع عوام الناس أن يتصوروا موجوداً مجرداً صرفاً يحيط بالمسموعات دون حاسة سمع يسمع بها ويحيط بالمبصرات دون عين يبصر بها، كما أن عامة الناس لا يستطيعون إدراك القدرة دون يد، فآيات الصفات تعبر عن إحاطة الحق بجميع المحسوسات وعلمه بها بتعبير السميع والبصير، وهي توجه الناس في هذه التشبيهات العلمية إلى حقيقة أن الله تعالى عالم بجميع الجزئيات والكليات ولكن على نحو يفهمه العامة لأنه مما لا ريب فيه أن الله بصير دون [حاسة] بصر وسميع دون [حاسة] سمع وقادر دون يد، وهذه التعبيرات هي لأجل إفهام الناس الجاهلين وغير المستعدين لعالم الغيب وهي لأجل تعريف الحقّ إلى الخلق الجاهلين، فمن

المُسلَّم به أنه من الواجب أن تقوم محكمات الكتاب بتفهيم وتأويل آياته الموهمة للتجسيم، وأن تُعَاد الآيات المتشابهات إلى أم الكتاب، أي إلى آيات من قبيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى/ ١١]، و﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام/ ١٠٣]. وإلى مثل سورة الإخلاص المباركة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص/ ١-٤]، وآية: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة/ ٢٥٥]، والحديث الشريف: «**إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار و إن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم**»(١).

فمحكمات القرآنِ تُعَرِّفُ اللهَ تعالى بأعلى مراتب التنزيه، وآيات الصفات تقرِّر صفات الحق بلباس التشبيه لعامة أهل الحس والخيال، والشخص الراسخ في علمه بالله يعبد الله بالتنزيه الصرف والتجريد البحت راداً الآيات المتشابهة إلى المحكمة.

وطبقاً لمفاد قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران/ ٣٠]، التي يحذِّر اللهُ تعالى فيها طلاب تصور الحقيقة من طلب المحال؛ ينبغي على الراسخين في العلم أن يتَّبعوا الطريقة الصحيحة التي يقول الرسول الأكرم فيها: «**تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ وَلا تَفَكَّرُوا فِي ذاتِ اللهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدِرُوا قَدْرَه**»(٢).

٢- الآيات الواردة في كيفية إضلال الشيطان: يتَّبع أهل الزيغ هذا المتشابه ويقولون في تصورهم الخاطئ إن الشيطان موجود مستقل في مقابل الرحمن، وكما أن الرحمن يهدي، وكل الخيرات من عنده، فكذلك الشيطان يُضِلُّ وكلُّ الشرور بسببه، وهذه في الحقيقة عقيدة الثنوية عينها الذين قالوا بأصلين للعالم أي يزدان [الله] والشيطان (أهريمن)، فاعتبروا يزدان أصل كل

(١) المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٦٦/ ص ٢٩٢. (تر)

(٢) المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٦٨/ ص ٣٢٢. ومن طرق أهل السنة رواه السيوطي في الجامع الصغير (دون الجملة الأخيرة)، وعزاه إلى أبي الشيخ في العظمة والطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان بسندهم عن ابن عمر مرفوعاً. وحَسَّنَه الألباني في صحيح الجامع الصغير ح (٢٩٧٥). (تر)

خير والشيطان مبدأ كل شر. لاحظوا كيف أن الوقوف عند المتشابه والجمود عليه وعدم إرجاعه إلى المحكم جر ملة الإسلام نحو الثنوية ولوَّث توحيد الإسلام بلوثة الفكر الثنوي.

إن مراد القرآن من الشيطان كل مبدأ ومنشأ للشر والأخلاق الرذيلة من الجن والإنس كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس/ ١-٦].

وقال أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام/ ١١٢].

فبناء على نص هاتين الآيتين ليس الشيطان شخصاً متفرداً بل هو نوع من الأشخاص يضم أفراداً من الجن والإنس وليس مُوجِداً مستقلاً نِدّاً لرب العالمين بحيث أن الله يريد الخير، والشيطان يعارضه ويمنعه ويحقِّق الشر! بل يقول الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم/ ٩٣].

فلا بد من التدبر في الكتاب كي نرى ما هي الآيات المحكمة التي يجب أن نرد إليها الآيات المتشابهة التي تقول إن الشيطان مضل والذي يلزم عنه أن البشر مجبرون على المعصية، كي لا يُجر المسلمون المساكين نحو الثنوية؟

إن الآية المحكمة في هذا الأمر هي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ...﴾ [يوسف/ ٥٣].

ففي هذه الآية تصريح بأن نفس الإنسان الشريرة تأمره بالسوء وتسبب أن يمدّها شياطين الإنس والجن في الضلالة، فالشيطان ليس مؤثراً مستقلاً، بل مبدأ الشرور هو نفس الإنسان الأمارة بالسوء، والشيطان يؤيدها ويدعمها بوسوسته، كما يصرِّح الله تعالى بذلك في قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ

﴿٢٢٣﴾ ﴾ [الشعراء/ ٢٢١-٢٢٣].

فالقرآن يعتبر مرجعَ الشرور في عالم البشرية الإنسانَ ذاتَه، كما يقول سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم/ ٤١]. ويقول كذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد/ ١١]. أي إن الله لا يغير النعمة والعافية التي كان يرفل بها قوم من الأقوام إلا عندما يقومون هم أنفسهم بتغيير ما بأنفسهم أي عندما تتبدل أحوالهم الصالحة إلى الأخلاق الرذيلة.

وخلاصة الكلام، إن الآيات التي تتكلَّم عن الشيطان هي من المتشابه التي يقوم الراسخون في العلم بتأويلها بالمحكم الذي هو أم الكتاب فلا يخافون من الشيطان بل يخافون من أنفسهم وأخلاقهم الرذيلة ولا يُبتلى بعقيدة الثنوية.

٣- الآيات التي تتكلَّم عن كيفية الجنة من حور وقصور وأنهار حليب وعسل وخمر، وسندس وإستبرق، وأنواع فاكهة الجنة كلها من باب المتشابه لأن لذّات الآخرة ودرجات الجنة المعنوية أكمل بكثير وألذ من الحليب والعسل الذي يتصوره الناس، كما يصرِّح القرآن بذلك في قوله إن خمر الآخرة ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ و﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ وأن في الجنة ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي لا يفسد ولا يتعفن، فهذه الآيات تمثيل وتشبيه لأهل الحس عن مراتب ودرجات المؤمنين وإلا فإن حقيقة الأمر أعلى من ذلك بكثير ولا يمكن للإنسان أن يتصورها والآية المحكمة في هذا الباب هي قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة/ ١٧]. وكذلك قول النبي ﷺ في الحديث القدسي: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. فَأَقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ..﴾**»[1].

إننا لا نريد القول بأنه لا توجد لذات حسية أو جسمية في الجنة -والعياذ بالله- بل ما نريد

(١) المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٨/ ص ٩٢. والحديث رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَ مُسْلِمٌ في صحيحيها.

قوله أن اللذائذ الحسية في الآخرة أعلى بكثير وأكمل من الحس والمحسوسات في هذا العالم وهذه النشأة.

وكذلك الآيات التي تتكلم عن جهنم وتذكر الصديد والغسلين والنار، حيث أن جميع الآلام والمصائب التي ستحل بالعصاة في الآخرة بأشد صورة، يتم تنزيلها إلى عالم الدنيا بصورة ثعابين وعقارب وكلاب وذئاب مفترسة، ونار وصديد وظلام وأمثال ذلك مع أن الواقع أن الآلام أصعب مما يمكننا أن نتصوره لأنه في عالم الدنيا يمكننا أن نقتل الثعبان والذئب والعقرب كما يمكننا أن نطفئ نار الدنيا بالماء، لكن ثعابين وعقارب ونار الآخرة لا يمكن إزالتها اللهم إلا بعفو الله ورحمته. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ ﴾ [الهمزة/ ٦-٧]، وذئب وكلب الأخلاق الرذيلة لا يمكن قتلها بأي سم من السموم.

اللهم إنا نعوذ بك من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

٤- ومن متشابهات القرآن قصة آدم وحواء وخروجهما من الجنة كما ذهب إلى ذلك جماعة من المحققين والتحقيق في هذه المسألة يحتاج إلى توضيح عدد من الأمور:

١. ليس لدينا في القرآن نص صريح بأن آدم كان نبياً بل مفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء/ ١٦٣]، هو أن نوح كان أول الأنبياء الذين أُوْحِيَ إليهم وَبُعِثُوا بالرسالة، وتؤيد ذلك الآية المباركة: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الحديد/ ٢٦]. ونلاحظ أيضاً أن الله تعالى لم يذكر في السور التي ذكر فيها أسماء الأنبياء مثل سورة هود ومريم والأنبياء والشعراء والصافات والقمر أي إشارة إلى نبوَّة آدم.

وقد قال الإمام الفخر الرازي في تفسيره لآية ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ ﴾ أن السبب في ابتداء الله تعالى بذكر نوح هو أنه كان أول نبي يبعث بالرسالة، وقد تابعه على ذلك النيشابوري وأبو السعود والخازن وجماعة آخرون من المفسرين.

٢. يعتبر المليون [أي أتباع الأديان السماوية] أن آدم هو أبو البشر ويقولون إن آدم خُلِق قبل

ستة آلاف عام، وقد ذُكر في كتب المسيحيين أن المدة بين طوفان نوح وعيسى ثلاثة آلاف وثلاثمئة وثمان سنوات وما بين عيسى وآدم أربعة آلاف وأربعمئة سنة فالفترة التي بيننا وبين آدم -حسب عقيدتهم- لن تزيد على خمسة آلاف وستة عشر سنة.

أما الفلاسفة فيُخَطِّئون هذا الحساب ويقولون إن الاختلاف الشديد الذي نشاهده بين أصناف البشر كاختلافهم في لغاتهم وديانـاتهم وأجسامهم وصورهم لا يكفي لحصوله ستون قرن، وإن أقدم الآثار والنقوش المصرية التي يعود زمنها إلى حوالي أربعة آلاف سنة قبل الآن تظهر اختلاف أشكال شعوب إفريقيا وسوريا ومصر على نحو مشابه لاختلافهم اليوم، أي أن الشعوب المذكورة تختلف في الشكل والجمجمة والدماغ والأعضاء الأخرى، فمن هذه الآثار المذكورة يتَّضح تماماً أنه لا يمكن أبداً أن تنشأ خلال ألفي سنة فقط كل هذه الاختلافات في الشعوب المتحدِّرة جميعاً عن أب وأم واحدَيْن.

لقد شغل تاريخ وجود الإنسان على الأرض أفكار العلماء وأهل البحث دائماً رغم أن كل ما قيل حتى الآن في هذا الصدد لا يعدو التخمين والظن.

طلب ملك مصر اليوناني بطليموس فيلادلف من كبير علماء عصره «منتيون» الذي كان في القرن الثاني قبل الميلاد أن يحدد له أقدم عصور المصريين القدماء، فكانت نتيجة بحث وتحقيق ذلك العالم هي أن تاريخ قدماء المصريين يعود إلى ٣٥ ألف سنة ماضية.

أما ديودور المؤرخ اليوناني في القرن الميلادي الأول فاعتبر أن أقدم عصر للمصريين يعود إلى ٢٣ ألف وخمسمائة سنة.

أما فلاسفة القرون المعاصرة فاعتمدوا في تحديد تاريخ وجود الإنسان الأول على علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) حيث يحسبون مدة تراكم طبقات الأرض على الهياكل البشرية التي تقع في أعمق نقاط الأرض. وقد أصبح حساب التشكل التدريجي لطبقات الأرض اليوم أمراً سهلاً وميسوراً للعلماء، وإن لم يصل إلى حد إعطاء معلومات قطعية ويقينية، وذلك لأن رسوبات الأرض لا تخضع في كل مكان إل قاعدة موحدة، ولكن هذه الطريقة تبقى من أفضل

الطرق لتحديد عمر الإنسان على الأرض ولو على وجه التقريب.

وقامت جمعية إنجليزية بإرسال السيد هورنو في مهمة علمية إلى أرض مصر ـ لكي يقوم باستكشاف تاريخ بناء مسلة عين شمس بوصفها منطلقاً لمعرفة تاريخ الشعب المصري، وقد بُنيت هذه المسلة حوالي ٢٣٠٠ عام قبل الميلاد، ولما تمت إزالة الأتربة المحيطة بها تبين أنها كانت مطمورة بتراب ارتفاعه حوالي إحدى عشر قدماً إنجليزياً ثم قاموا بحساب أعمق نقاط الأرض التي بقيت فيها آثار وبقايا إنسانية فوجدوا أن هناك آثاراً إنسانية في عمق ٣٩ قدماً تحت الأرض فاستنتجوا من ذلك أن عمر الإنسان على الأرض يعود إلى حوالي ٣٠ ألف عام.

ووجدت في أمريكا جمجمة قديمة في أعماق الأرض قام العالم الأمريكي «بونت دونون» بحساب تاريخها وقال إنها تعود إلى ما لا يقل عن ٨٥ ألف عام وهي المدة اللازمة لكي تتراكم تلك الرسوبات المتوالية بهذا العمق إلى سطح الأرض.

هذا هو مقدار الاختلاف بين أتباع الأديان السابقة والفلاسفة في تاريخ ظهور الإنسان على الأرض ولذلك فعلينا أن نحل هذا الاختلاف على نحو يتطابق مع روح الإسلام.

لذا نقول ليس في القرآن والسنة الصحيحة أي خبرٍ بشأن تاريخ وجود آدم فوق الأرض، وما ذكره المفسرون في هذا المجال هو من الإسرائيليات المأخوذة عن كتب اليهود، في حين أنه توجد في الكتب الإسلامية أقوال تلائم روح العلوم الجديدة وتتوافق معها أو على الأقل يستطيع رجال العصر الحالي أن يصدقوا أن الإسلام يستوعب مثل هذه الآراء العصرية الجديدة.

ذكر علاء الدين البسنويّ[1] في كتابه محاضرة الأوائل الذي ألفه سنة ٩٨٨ هـ أنه قد ورد في الخبر أنه لما خُلق آدم قالت له الأرض: يا آدم عندما وضعت قدمك عليّ كانت نضارتي وشبابي قد

(١) علاء الدين البوسنوي: هو الشيخ الفاضل علي دده بن مصطفى الموستاري ثم السكتواري، الملقب بشيخ التربة (١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م). فاضلٌ بوسنويٌّ ولد في بلدة «موستار» [التي تقع اليوم في جنوب جمهورية البوسنة والهرسك] وتعلَّمَ بها ثم في استانبول. وقام بسياحة، فحج وزار مرات، وألف عدة كتب بالعربية من أهمها: «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر» و«خواتم الحكم» ألفه في الحرم المكي سنة ١٠٠١هـ. (انظر الأعلام للزركلي). (تر)

انتهت وهرمتُ واهترأتُ. ثم قال وقد ورد في بعض التواريخ إنه كان قبل آدم مخلوقات ذات جسم ولحم ودم على الأرض والقرآن يشهد على هذا في قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ؟؟﴾ [البقرة/ ٣٠]. فالملائكة إنما قالوا ذلك استناداً إلى ما عرفوه من صنيع من كانوا قبل آدم من البشر وقد أرسل الله لهم نبياً باسم يوسف فأخذوه وقتلوه.

و من طرق الإمامية أورد الصدوق في كتابه جامع الأخبار في الفصل الخامس عشر- خبراً طويلاً جاء فيه أن الله خلق قبل آدم ثلاثين آدماً بين كل آدم وآدم ألف سنة، ثم أصبحت الدنيا دماراً وخراباً مدَّةً تقرب من خمسين ألف سنة ثم عُمرت خمسين ألف سنة أخرى ثم خُلق بعدها أبونا آدم!

وروى ابن بابويه [الصدوق] في كتاب «التوحيد» عن الإمام الصادق (ع) حديثاً طويلاً جاء فيه قول الإمام: «**تَرَى أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ الْوَاحِدَ؟ وَتَرَى أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ بَشَراً غَيْرَكُمْ؟ بَلَى وَاللهِ لَقَدْ خَلَقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَلْفَ أَلْفِ عَالَمٍ وَأَلْفَ أَلْفِ آدَمٍ، أَنْتَ فِي آخِرِ تِلْكَ الْعَوَالِمِ وَأُولَئِكَ الْآدَمِيِّينَ**».

كما روى ابن بابويه في كتابه الخصائص حديثاً يُفهم منه مثل هذا التعدُّد للعوالم حيث قال فيه الإمام الصادق: «**إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ عَالَمٍ كُلُّ عَالَمٍ مِنْهُمْ أَكْبَرُ مِنْ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ وَسَبْعِ أَرَضِينَ مَا يَرَى عَالَمٌ مِنْهُمْ أَنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَالَماً غَيْرَهُمْ...**»[1].

ويقول الشيخ محي الدين في «الفتوحات المكية» حول حدوث العالم: لقد طفت الكعبة مع أقوام لا أعرفهم وقالوا لي بيتين حفظت أحدهما ونسيت الآخر والبيت المحفوظ هو:

لقد طفتم كما طفنا سنينا بهذا البيت طراً أجمعون

فسألت أحدهم من أنتم؟ فقال نحن من أجدادكم الأوائل فقلت: كم تسبقونا من مدة، فقال: قرابة أربعين ألف عام ونيِّف، فقلت له: لا يوجد من الآدميين القريبين إلينا من هو بهذا السن! فقال: أيُّ آدمٍ تقصد؟ هل الذين هم أقرب إليك أم الآخرين؟ فتأملت في إجابته وبُهِتُّ

(١) الشيخ الصدوق، الخصال، ج٢/ ص٦٣٩. (تر)

وتذكَّرْتُ حديثاً رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق قبل آدم المعروف مئة ألف آدم آخر!»[١].

ويذكر الشيخ أيضاً في الفتوحات المكية أنه اجتمع مع إدريس في عالم الأرواح وسأله عن صحة هذه المكاشفة والخبر الوارد في هذا الباب فقال له إدريس: شهودك صحيح ومكاشفتك صحيحة والخبر الذي سمعته صادق ونحن معشر الأنبياء نؤمن بحدوث العالم ولكنَّ علمنا منقطع عن مبدأ الموجودات والأعيان.

يقول الشيخ إن تاريخ بداية العالم مجهول، والأنبياء والعلماء والمجتهدون يؤمنون بحدوث العالم، في حين يذهب بعض الفلاسفة القدماء والمتأخرين إلى قِدَمِ العالم ولا يؤمنون بحدوثه. وفي هذا الباب لا ينبغي الاعتماد على أقوال المؤرخين الجاهلين.

النتيجة

إذا علمت هذه المقدمات تبين لك بكل وضوح أن قصة آدم وحواء وعصيانهما وهبوطهما إلى الأرض ليست على ظاهرها الحرفي، وقد ذهب المسلمون بهذا الشأن مذهبين:

١ - طريقة السلف الصالح الذين يقولون بالتنزيه الكامل لِلَّهِ تعالى ويفوضون الأمر إليه ويقولون إن ما كانت حقائقه مجهولة بالنسبة إلينا فإننا نكله إلى الله العليم القدير، ويقولون إن حقيقة الواقع في قضية آدم مجهولة لنا ونحن نؤمن بما جاء به النبيّ ونكل العلم بحقيقته إلى الله، وفي حكاية هذه القصة فوائد للإنسان في الأخلاق والأعمال والأحوال وقد قرّب الله تعالى لعقول البشر بعض الحقائق والمعاني من خلال هذه القصة.

٢ - طريقة الخلف وهي التأويل. يقولون لما كان الإسلام يقوم على المنطق والعقل ولم يكن فيه أي مجافاة أو ابتعاد عن صريح العقل، فحيثما جزم العقل بشيء على نحو قاطع ثم ظهر في ظاهر النقل ما يخالفه، كان صريح العقل قرينةً قطعيةً على أن ظاهر النقل غير مُراد على الحقيقة بل

---

(١) لا أصل له. (تر)

هذا النقل محمول على معنى يوافق العقل وهذا لا يتم إلا بالتأويل.

أما نحن، فعلى طريقة السلف إن شاء الله، وكل ما يتعلق بالله وصفاته وما يتعلق بعالم الغيب نفوِّض حقيقته إلى الحق تعالى. ولكن لكي نبين ونوضح الأمور للناس ونذكِّر العلماء نشير هنا إلى خلاصة طريقة المتأخرين فنقول:

حاصل كلامهم إنه ليس المراد من «آدم» في [قصة آدم في القرآن] آدمٌ شخصيٌّ واحدٌ بل المراد آدمُ النوعيّ [أي نوع البشر] وأن الله تبارك وتعالى خلق نوع الإنسان وجعله قابلاً لكمالاتٍ لا نهاية لها. ويقولون إن كل الآيات الواردة في هذا الباب تقصُّ علينا حقائق تم بيانها بصورة التمثيل والاستعارة، وأنه لا ينبغي الجمود على المتشابه بل ينبغي أن نرده إلى محكم الكتاب حيث تبين الآية المحكمة التالية أن المراد من آدم هو النوع الإنساني وليس شخصاً محدداً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ...﴾ [الأعراف/ ١١].

بعد أن بحثنا موضوع المحكم والمتشابه ومعنى التأويل وكيف يجب ردّ المتشابه إلى المحكم وطريقة الراسخين في العلم في ذلك، وذكرنا على ذلك أمثلة من الكتاب، نفسِّر الآن الآية الأساسية حول هذا الموضوع كي لا يبقى أي إشكال في الأمر:

يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران/ ٧].

قال بعضهم لا يعلم أحد بالآيات المتشابهة غير الله، أما نحن فقد بينا أن «الراسخين في العلم» يعلمون بها، ولو كان قول من ينفون علمهم بها صحيحاً، للزم منه أن الرسول الأكرم ﷺ أيضاً لا يعلم بالآيات المتشابهة وهذا القول كفر، لأنه إذا كانت ذات الرسول المقدسة نفسه لا يفهم متشابهات القرآن فكيف يمكنه أن يكون هادياً للناس؟ وإذا دار الأمر بين أن لا يفهم الرسول الأكرم المتشابهات، وبين ما بيناه من أن العامة الجاهلين يستفيدون من متشابهات القرآن، والراسخون في العلم يؤولون المتشابهات بالمحكمات فلا شك أن المعنى الثاني هو المعنى الأصح

والمقطوع به، وقد أثبتنا سابقاً بالأدلة المتقنة من الكتاب والسنة والدليل العقلي أن جميع القرآن قابل للفهم ولكن بالشروط التي ذُكرت. وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ.

أقسام القرآن

أقسم الله تعالى في القرآن المجيد بأشياء من مخلوقاته والسبب في ذلك أمران:

١ - كان الكفّار أحياناً يعترفون بأن الرسول الأكرم ﷺ قادر على إقامة البراهين بأكمل وجه لكنهم يقولون إن الرسول الأكرم مُجِيدٌ لفن الجدل وهو يعلم أن ما يقوله فاسد في ذاته، وإنما يتغلَّب علينا بما أوتيه من قوة الجدل لا لصحَّة مقاله. ومثل هذا الأمر نشاهده أحياناً لدى بعض الناس الذين يفحمهم خصمهم بالأدلة الواضحة، ويجدون أنفسهم عاجزين عن رد أدلَّته، فيتذرَّعون لتبرير عجزهم بالقول إن غلبة الخصم لا تنبع من صحّة قوله وبطلان قولنا، بل من براعة الخصم في فنّ الاستدلال وقوَّته في المجادلة، وهو يعلم في قرارة نفسه أن الحقَّ معنا!!. في مثل هذه الحالة لا يملك المستدلُّ طريقاً لإقامة البراهين، لأنه كلَّما أقام برهاناً مهما كان قاطعاً حمله الخصم على مجرد قدرته على الاستدلال وبراعته في الجدال، ولم يذعن لحقية الكلام.

في مثل هذه الصورة لا يبقى للمستدلِّ طريق إلا القَسَم بأن يقول: والله إن كلامي لصحيح وليس غرضي المجادلة، وأقسم بالله أنني أقول الحق، وذلك لكي يحث مخاطبه على التصديق بحقية كلامه.

٢ - من معتقدات العرب قبل الإسلام أن حَلْفَ الشخص كاذباً يسبب خراب بيته وهلاكه، فالحَلْفُ الكاذب نذير بالشؤم، لذا كان كثير منهم يجتنب القَسَم كذباً، ومن هذا المنطلق فإن قَسَم النبيِّ الأكرم بأشياء كثيرة، وازدياد مقامه وعظمته رفعةً يوماً بعد يوم، كان برهاناً محكماً على صحة دعوته وصدق مقاله.

المُقْسَمُ به أو ما أقسم الله به

للعلماء في المُقْسَم به قولان:

القول الأول: أن المراد في المقسَم به في تمام أقسام القرآن خالق الأشياء التي تم القسم بها

لا عينها، فالمراد من قوله تعالى: والشمس وضحاها القسم بخالق الشمس وخالق ضحاها، واستدل القائلون بذلك بثلاثة أوجه:

١- نهى النبي الأكرم عن الحلف بغير الله فكيف يقسم الله في قرآنه الكريم بغير الله؟

٢- القَسَم بشيء دليل على تعظيم ذلك الشيء وتكريمه، ولا يليق التعظيم والتكريم بأحد سوى الحق تعالى.

٣- ما ذكرناه من أن المراد من القَسَم بالأشياء القَسَم بخالقها، قد صرَّح به القرآن في بعض المواضع كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [الشمس/ ٥-٧].

القول الثاني: أن الله أقسم بأعيان هذه الأشياء، واستدلوا على ذلك بما يلي:

١- ظاهر اللفظ يدل على أن الله أقسم بعين هذه الأشياء والعدول عن الظاهر خلاف للأصل.

٢- لا يصحّ الوجه الثالث للقائلين بأن المقسم به هو خالق الأشياء، لأنه في بداية الآيات التي استُدِل بها تم القسم بالسماء لا بخالقها حيث قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس/ ٥]. أي أن الله أقسم أولاً بالسماء ثم بالذي بناها ولو كان المراد من القَسَم بالسماء القَسَم ببانيها لكان في الكلام تكرارٌ، ومن المسلَّم به أن هذا لا يجوز.

فواتح سور القرآن

أثبتنا في المبحث الأول من كتابنا هذا أنه لا توجد في القرآن آية بل حتى كلمة واحدة غير مفهومة للبشر، ولا نجد داعياً لتكرار استدلالنا على هذه الحقيقة، ومن هذا البيان يظهر بطلان قول من يقول إنه لا علم للبشر بالمقصود من فواتح السور، ونذكر فيما يلي دليلين على أن فواتح السور مفهومة:

١- كان الرسول الأكرم ﷺ في فترة بعثته، لاسيما في الفترة المكية، يتعرَّض إلى أشد الإيذاء مِن قِبَل المشركين وإلى افتراءاتهم المتوالية في حقه كاتهامهم له بالجنون وبأنه شاعر كذَّاب وبأنه

كاهن وأنه يعلِّمُهُ بشر- وغير ذلك، وكانوا يبحثون عن عيب في الرسول الأكرم أو في القرآن ليشهِّرُوا به، ومع ذلك كيف نفسِّر أن يقوم النبي بقراءة عبارات من أمثال كهيعص أو حمعسق أو طه وأمثالها ثم لا يفهمها المشركون أبداً ورغم عداوتهم للرسول الأكرم لا يلومونه على قراءة مثل هذه الكلمات التي لا معنى لها أو لا يستغلون ذلك للاستهزاء به والسخرية منه، بل إن ذكر كلمات غير مفهومة أصلاً كان بإمكانه أن يصبح ذريعة للمشركين ليستدلوا بذلك على جنون النبي -والعياذ بالله- وأنه يقول أباطيل لا معنى ها، وبالتالي يزدادون جرأة على إهانة مقام الرسالة. ولكن أيا من هذا لم يحصل مما يدل على أن المشركين كانوا يفهمون المراد من ذكر تلك الحروف. وقد نقل السيوطي في كتابه الإتقان [في علوم القرآن]: إن كلمة «طه» في لغة الحبشة والنبط معناها «يا أيها الرجل» وكلمة «يس» في لغة الحبشة معناها «أيها الإنسان» وحرف «ن» في الآية المباركة ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم/ ١] معناها الدواة.

٢- كان المشركون يثيرون الإشكالات على كل ما لا يعجبهم من القرآن، وكان من عادة القرآن دائماً أن ينقل لنا إشكالاتهم ويردّ عليها، فلو كانت هذه الكلمات [أي حروف فواتح السور] غير مفهومة أصلاً لأشكل المشركون عليها ولقالوا إن القرآن الذي يتحدانا بأن نأتي بسورة أو آية من مثله يتضمن كلمات لا نفهمها، فكيف نستطيع أن نعارضه؟ أو لسألوا النبي أن يبيِّن لهم المراد من تلك الكلمات، لكننا لحسن الحظ لا نجد في القرآن أي إشارة لعدم فهم تلك الكلمات ولا أي ذكر لاعتراض المخاطبين بالقرآن، سواء المشركون أم المؤمنون، لعدم فهمهم تلك الحروف؛ لذا نحكم جازمين وبكل قطع أن المخاطبين بالقرآن من المؤمنين والمشركين كانوا واقفين على المراد من تلك الكلمات، وأما جهلنا نحن بها فسببه بُعْدُنا عن عهد الرسالة الذي أبعدنا عن فهم مقاصد الكلام العربي في ذلك الزمن، وجهلُنا هذا لا يدل على أن تلك الكلمات لم تكن مفهومة أبداً في ذلك العصر.

وقد ذكر علماء الإسلام وجوهاً متعددة في بيان معنى هذه الحروف المقطعة الواردة في أوائل بعض السور، ونشير فيما يلي إلى أهم تلك الوجوه رغم أننا لا نستطيع أن نرجح وجهاً منها على

آخر:

أقوال العلماء في معاني فواتح سور القرآن

القول الأول: وهو قول أكثر المتكلّمين وقول الخليل وسيبويه الذين يقولون إن هذه الكلمات أسماءٌ لسور القرآن. ويقول القفّال -وهو من علماء المعتزلة-: كان من عادة العرب أن يسموا بالحروف فكان اسم أبي حارثة: «لام» ويسمون النُّحَاس «صاد» ويسمون النقد «عين»، ويسمون الغيم «غين» ويسمون الجبل «قاف» ويسمون الحوت أو السمك «نون».

القول الثاني: قول جماعة بأن هذه الحروف أسماء الله.

القول الثالث: قول الكلبي والسدي وقتادة إن هذه الحروف أسماء للقرآن المجيد.

الرابع: قول أبي العالية إن كل حرف منها بيان لمدة أقوام، ولآجال آخرين. قال ابن عباس ﷺ: مرَّ أبو ياسر بن أخطب برسول الله ﷺ وهو يتلو سورة البقرة ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة/ ١ - ٢] ثم أتى أخوه:حُيَيُّ بن أخطب وكعب بن الأشرف فسألوه عن ﴿الٓمٓ﴾ وقالوا: ننشدك الله الذي لا إله إلا هو أحق أنها أتتك من السماء؟؟ فقال النبي ﷺ: «نعم كذلك نزلت»، فقال:حُيَيُّ: إن كنت صادقاً إني لأَعلم أجل هذه الأمة من السنين، ثم قال: كيف ندخل في دين رجل دلَّت هذه الحروف بحساب الجُمَّل على أن منتهى أجل أمته إحدى وسبعون سنة! فضحك النبي ﷺ، فقال:حُيَيُّ: فهل غير هذا؟ فقال: نعم ﴿الٓمَصٓ﴾، فقال:حُيَيُّ: هذا أكثر من الأول هذا مائة وإحدى وستون سنة، فهل غير هذا، قال: نعم ﴿الر﴾، فقال:حُيَيُّ هذا أكثر من الأولى والثانية، فنحن نشهد إن كنت صادقاً ما ملكت أمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة، فهل غير هذا؟ فقال: نعم ﴿الٓمٓرٰ﴾، قال:حُيَيُّ: فنحن نشهد أنا من الذين لا يؤمنون ولا ندري بأي أقوالك نأخذ. فقال أبو ياسر: أما أنا فاشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة ولم يبينوا أنها كم تكون، فإن كان محمد صادقاً فيما يقول إني لأراه يستجمع له هذا كله فقام اليهود، وقالوا

اشتبه علينا أمرك كله، فلا ندري أبالقليل نأخذ أم بالكثير؟[1].

الخامس: هذه الحروف تدلُّ على انقطاع كلام واستئناف كلام آخر، قال أحمد بن يحيى بن ثعلب: إن العرب إذا استأنفت كلاماً فمن شأنهم أن يأتوا بشيء غير الكلام الذي يريدون استئنافه، فيجعلونه تنبيهاً للمخاطبين على قطع الكلام الأول واستئناف الكلام الجديد.

السادس: قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره:

[[الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئاً غيره ليلتفت المخاطب بسببه إليه ويقبل بقلبه عليه، ثم يشرع في المقصود. إذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلاماً له معنى مفهوم، كقول القائل اسمع، واجعل بالك إلي، وكن لي، وقد يكون شيئاً هو في معنى الكلام المفهوم كقول القائل أزيد و يا زيد وألا يا زيد، وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتاً غير مفهوم كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه، وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل السامع عليه. ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم، كان المقدم على المقصود أكثر. ولهذا ينادي القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بيا فيقال يا زيد، والغافل ينبه أولاً فيقال ألا يا زيد.

---

(١) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير المعروف بمفاتيح الغيب، ذيل تفسيره للآية الأولى من سورة البقرة. وهذه الرواية رواها بألفاظ قريبة ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٥٤٥)، كما أخرجها البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٠٨)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٩٢-٩٣/ رقم ٢٤٦أط شاكر) بسندهم عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رئاب، ونقلها ابن كثير في تفسيره وقال بشأنها: «وأما من زعم أنها [أي الحروف المقطعة أوائل السور] دالة على معرفة المُدَد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفن والملاحم - فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطارد! وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته". ثم نقل هذا الحديث من هذا الموضع من الطبري - ثم قال: "فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به» انتهى. (تر)

إذا ثبت هذا فنقول إن النبي ﷺ وإن كان يقظان الجنان لكنه إنسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفاً هي كالمنبِّهات، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف التي لها معنى، لأن تقديم الحروف إذا كان لإقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فإذا كان ذلك المقدم كلاماً منظوماً وقولا مفهوماً فإذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه. أما إذا سمع منه صوتاً بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود، فإذن تقديم الحروف التي لا معنى لها في الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة، فإن قال قائل فما الحكمة في اختصاص بعض السور بهذه الحروف؟ فنقول عقل البشر عن إدراك الأشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز، والله أعلم بجميع الأشياء، لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول كل سورة في أوائلها حروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ..﴾ [البقرة/ ١-٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران/ ١-٣]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ..﴾ [الأعراف/ ١-٢]، ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس/ ١-٢]، ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق/ ١]، ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ..﴾ [السجدة/ ١-٢]، ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ..﴾ [الجاثية/ ١-٢].

إلا ثلاث سور: ١- ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم/ ١]. ٢- ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ..﴾ [الروم/ ١-٢]. ٣- ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ...﴾ [العنكبوت/ ١-٢].

والحكمة في افتتاح السور التي فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هي أن القرآن عظيم والإنزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل/ ٥]. وكل سورة في أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه.

لا يُقَال كل سورةٍ قرآنٌ واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظاً أو لم يكن،

فكان الواجب أن يكون في أوائل كل سورة منبه، وأيضاً فقد وردت سورة فيها ذكر الإنزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ..﴾ [الكهف/ ١]، وقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا..﴾ [النور/ ١]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ..﴾ [الفرقان/ ١]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر/ ١]؛ لأنا نقول جواباً عن الأول: لا ريب في أن كل سورة من القرآن، لكن السورة التي فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فإن قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه/ ١-٢] مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن، فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما، وكتاب آخر يرد منه عليه فيه: إنا كتبنا إليك كتباً إليك كتباً فيها أوامرنا فامتثلها، لا شك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الأول. وعن الثاني: أن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف/ ١] تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج إلى منبه بخلاف الأوامر والنواهي. وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا..﴾ قد بينا أنها من القرآن فيها ذكر إنزالها وفي السورة التي ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم في النفس وأثقل.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر/ ١] فنقول هذا ليس وارداً على مشغول القلب بشيء غيره بدليل أنه ذكر الكناية فيها وهي ترجع إلى مذكور سابق أو معلوم وقوله: {**إِنَّا أنزلناه**} الهاء راجع إلى معلوم عند النبي ﷺ فكان متنبهاً له فلم ينبه.

واعلَمْ أن التنبيه قد حصل في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج/ ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ..﴾ [الأحزاب/ ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ..﴾ [التحريم/ ١]؛ لأنها أشياء هائلة عظيمة، فإن تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذي يكون للبعيد الغافل عنها تنبيهاً، وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الابتداء بالكتاب والقرآن، وذلك لأن القرآن ثقله وعبئه بما

فيه من التكاليف والمعاني، وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟؟﴾ [العنكبوت/ ٢]، يعني لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف، فوجد المعنى الذي في السور التي فيها ذكر القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي.

فإن قيل: مثل هذا الكلام، وفي معناه ورد في سورة التوبة وهو قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ [التوبة/ ١٦] ولم يقدم عليه حروف التهجي؟!

فنقول: الجواب عنه في غاية الظهور، وهو أن هذا ابتداء كلام، ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ ؟﴾، وذلك [أي قوله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾] وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون في أول الكلام لا في أثنائه]][1].

[[وأما ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ..﴾ [الروم/ ١-٢]، حيث ذكر حروف التنبيه ﴿الٓمٓ ﴾ رغم عدم ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن، فعلَّته أن الآية ذُكر في أولها ما هو معجزة وهو الإخبار عن الغيب، فقدمت الحروف التي لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيُقْبِلُ بقلبه على الاستماع، ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الأسماع.]][2]. انتهى تحقيق الفخر الرازي في موضوع فواتح السور.

الثامن: أن هذه الحروف المقطَّعة لإسكات الكفار وحملهم على الاستماع لما يرد عليهم من القرآن؛ وذلك لأن المشركين كانوا قد تعاهدوا فيما بينهم أن يعرضوا عن الاستماع للنبي والقرآن كما صرح القرآن بذلك في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت/ ٢٦]

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش كان يوصي بعضهم بعضاً إذ قرأ الرسول الأكرم ﷺ القرآن أن يتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار

---

(١) فخر الدين الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، ذيل تفسيره للآية الأولى من سورة البقرة. (تر)

(٢) فخر الدين الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، ذيل تفسيره للآية الأولى من سورة الروم. (تر)

الفاسدة والكلمات الباطلة، أو كان بعضهم يصفِّر وآخرون يصفِّقون بأيديهم وبعضهم ينشد الأشعار الباطلة، كل هذا حتى يخلطوا على النبي قراءته ويشوشوا عليه ويغلبوا على قراءته، فلا يستطيع أن يقرأ القرآن على الناس[١].

فللحيلولة دون عمل المشركين هذا ولدفع شرّهم، أنزل الله تعالى عليهم هذه الحروف المقطَّعة فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين: اسمعوا إلى ما يجيء به محمد ﷺ، فإذا أصغوا هجم عليهم القرآن فكان ذلك سبباً لاستماعهم وطريقاً إلى انتفاعهم.

وذكر المفسرون أقوالاً أخرى في هذا الباب وألف أبو علي ابن سينا رسالة مستقلة في موضوع فواتح السور، سماها بالرسالة النيروزية، ولو أردنا أن نذكرها هنا بتمامها لخرجنا عن خطة الكتاب القائمة على الاختصار والتخفيف، **وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ**.

الحكمة من نزول القرآن الكريم على نحو التدريج مُفَرَّقاً ومُنَجَّماً

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ [الفرقان/ ٣٢].

يقول ابن جريج: استغرق نزول القرآن من أول آية إلى آخر آية ثلاثة وعشرين عاماً.

تضمنت الإجابة التي رد اللهُ بها على قول الكفار الأمور التالية:

١ – أن الرسول الأكرم ﷺ كان أمياً لا علم له بالقراءة والكتابة كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [العنكبوت/ ٤٨].

ولما كان النبي الأكرم أمياً، فلو نزل عليه القرآن كله دفعة واحدة لصعب عليه حفظه كله وضبطه ولكان نسيان بعضه محتملاً، أما التوراة فكانت كتاباً وكان موسى من أهل القراءة والكتابة.

٢ – الذي يكون لديه كتاب كامل ربما اعتمد على كتابه وتساهل في حفظه، لذا لم يُنزِل الله تعالى القرآن دفعةً واحدةً بل فرَّقه وأنزله بالتدريج كي يعين النبي ﷺ على حفظه وضبطه.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير والتفسير الكبير للفخر الرازي ذيل تفسيرهما للآية ٢٦ من سورة فصلت. (تر)

أضف إلى ذلك أن الأمة أيضاً كانت [في غالبها] أمَّةً أمِّيَّةً، ولم تكن من أهل الكتابة والقراءة، لذا كان من المناسب أن ينزل القرآن على الأمَّة بالتدريج كي تتمكن من ضبطه وحفظه.

٣- بما أن كثيراً من آيات القرآن تبيّن أحكاماً عمليةً فلو نزل القرآن كله دفعة واحدة لكان حفظ كل تلك الأحكام مرة واحدة والعمل بها أمراً عسيراً، لكن نزوله التدريجي ساعد على حفظ تلك الأحكام وسهّل العمل بها.

٤- إن مشاهدة النبي ﷺ لجبريل في حالات متعددة وأزمنة مختلفة كان من شأنه أن يقوّي قلب النبي ويعينه على تحمّل مشاق الدعوة ويجعله أكثر صبراً على احتمال أذى الخلق وأكثر ثباتاً في قتال الكفار.

٥- إن نزول القرآن بالتدريج هو في حد ذاته معجزة كبرى للنبي، فرغم أنه كانت تنزل عليه أحياناً عشر آيات أو سورة صغيرة كان المشركون عاجزين عن معارضة القرآن والإتيان بسورة من مثله، وكان عجز المشركين أكثر وضوحاً بنزول القرآن مفرقاً، مما لو نزل جملة واحدة.

٦- كان القرآن ينزل طبقاً للوقائع التي تحدث للناس وهذا يقتضي نزوله مفرَّقاً وبالتدريج، **وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ**.

أمثال القرآن

يقـــــــول الله تعـــــــالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبـــوت/ ٤٣]. ويقـــول أيضـــاً: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم/ ٢٥].

معنى المَثَل وفرقه عن المِثْل

يقول أبو البقاء في «الكليات»: «والمَثَلُ بفتحتين لغةً اسمٌ لنوع من الكلام وهو ما تراضاه العامة والخاصة لتعريف الشيء بغير ما وضع له من اللفظ، يستعمل في السراء والضراء.... وهو أبلغ من الحكمة». ويُطلَق المَثَل على معنيين: الأول بمعنى «المِثْل» بمعنى الشِّبْه والشَّبَه والنِّقض والنَّقْض. وقال بعضهم يطلق لفظ «المَثَل» أحياناً على صفة الشيء و وصفه كقوله تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الرعد/ ٣٥]، أي وصف الجنة التي وعهدها الله للمتقين هو كذا.. ويُطلق أحياناً على مشابهة شيء لشيء آخر في معنى من المعاني.

أما لفظ «المِثْل» بالكسر فهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة، والنظير أخص منه وكذا الند فإنه [أي الندّ] يقال لما يشاركه في الجوهر فقط وكذا الشبه يقال لما يشاركه في الكَيْف، والمساوي يقال لما يشاركه في الكمّ، والشكل يقال لما يشاركه في المقاس والحجم، أما «المِثْل» فهو أعم من كل تلك المشابهات ويشملها جميعاً، لذا لما أراد الله أن ينفي وجود شبيه له من جميع الجهات كلها عبر عن ذلك بلفظ «المثل» فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى/ ١١]، والجمع بين الكاف و المثل في هذه الآية لمزيد من تأكيد نفي المشابه له، وإشارة إلى أن استعمال الكاف و المثل كلاهما لا يصح، وقال بعضهم في تفسير هذه الآية إن «المِثْل» بمعنى الصفة أي ليس هناك صفة مثل صفاته، ومرادهم أنه رغم وصفهم الله تعالى بكثير من صفات البشر إلا أن تلك الصفات للباري تعالى ليست أبدا على النحو المستعمل بحق البشر، ومنه قول الله تعالى:

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل/ ٦٠]، أي الصفات السيئة والمذمومة لمنكري الآخرة، والصفات العليا لله تعالى.

وقد منع الله تعالى العباد أن يضربوا له الأمثال فقال: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [النحل/ ٧٤]، أشار إلى أنه تعالى يضرب لنفسه ما يشاء من الأمثال أما نحن فلا يجوز أن نقتدي به في ذلك، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل/ ٧٤]، ثم ضرب لنفسه مثلاً فقال: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا ... ﴾ [النحل/ ٧٥]، وفي هذا إشارة إلى أنه لا يجوز وصف الله تعالى بصفة من صفات البشر إلا ما وصف الله به نفسه.

فائدة التمثيل

اعلم أن التمثيل أفضل وسيلة لجعل الوهم مسخَّراً للعقل ومطيعاً له، لأن من طبع الخيال المحاكاة والتشبُّه فإذا ذُكر المعنى وحده أدركه العقل ولكن مع منازعة الخيال، وإذا ذُكر معه الشبه أدركه العقل مع معاونة الخيال، ولا شك أن الثاني يكون أكمل، وأيضاً فنحن نرى أن الإنسان يذكر معنى ولا يلوح له كما ينبغي فإذا ذكر المثال اتضح وصار مبيناً مكشوفاً، فإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح، وجب ذكره في الكتاب الذي لا يُراد منه إلا الإيضاح والبيان. فالتمثيل يُزيل الحجاب عن المعقولات الخفية، و يجعلها واضحة للحواس، فيجعل المجهولَ معلوماً والوحشيَّ مألوفاً، لذا كانت عادة الأنبياء أن يُبيِّنوا الحِكَم في بعض المقامات بصورة أمثلة وأن يأتوا بالحقائق العقلية الصعبة بصورة أمثلة حسية، لأن ناحية الحس غالبة لدى أكثر الناس، و لا يمكنهم فهم البراهين العقلية، وأن يجرِّدوا المعاني من ألبسة الصور، فالذين يتمتّعون بذهن صافٍ و عقل كامل ينفذون من المثل إلى الحقائق كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت/ ٤٣].

يقول إبراهيم النظام[١]: «**يجتمع في الأمثال أربعة لا تجتمع في غيرها من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية؛ فهو نهاية البلاغة. وقال ابن المقفَّع: إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وآنَقَ للسمع وأَوْسَعَ لشُعُوب الحديث**»[٢].

وليس للأمثال قاعدة تنظمها أو ترتبها بل هي متفاوتة من حيث الدرجات ومختلفة، لذا نجد القرآن الكريم يمثل بأشياء بدءاً من البعوضة وانتهاء بالرسول الأكرم.

والسور التي ذكر الله تعالى فيها أمثلة هي: البقرة، آل عمران، الأنعام، الأعراف، يونس، هود، الرعد، إبراهيم، النحل، بني إسرائيل (أي الإسراء)، الكهف، الحج، النور، الفرقان، العنكبوت، الروم، يس، الزمر، الزخرف، محمد، الفتح، الحديد، الحشر، الجمعة، التحريم، المدثر.

أمثال القرآن على قسمين

أمثال القرآن على قسمين: الأول: ظاهر وهو المصرّح به، والثاني: كامن وهو الذي لا ذكر للمثل فيه وحكمه حكم الأمثال.

أما القسم الأول، فهو كثير ونذكر للقراء الكرام بعضاً منه للتذكير:

١- قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة/ ٥].

٢- قوله سبحانه: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۡۚ..﴾

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام، أحد كبار شيوخ المعتزلة، وتنسب إليه فرقة النظامية، أخذ الاعتزال عن خاله أبي هذيل العلاف، توفي ما بين سنة: ٢٢١-٢٢٣هـ. انظر: الفرق بين الفِرق، لعبد القاهر البغدادي، ص (١٣١)، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، (٦/ ٩٧). (تر)

(٢) أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، «مجمع الأمثال»، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، بيروت، دار المعرفة، (ج١/ ص١)، وانظر الأمثال في الحديث النبوي، للحافظ أبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق د. عبد العلي عبد الحميد حامد، الدار السلفية، بومباي، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.، ص ١٨. (تر)

[الأعراف/ ١٧٦].

٣- قوله سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ..﴾ [البقرة/ ١٧].

شبَّه الله تعالى حال من هيأ له أسباب الهداية والتوفيق ولكنه لم يستفد من هذه الفرصة للوصول للنعمة الأبدية، وأضاع الفرصة على نفسه، بحال من بذل جهداً كبيراً حتى تمكن من إيقاد نار في وسط الظلام الدامس، فلما أضاءت النار واستنار بها إذا بها تنطفئ و يعود من جديد إلى الظلمات.

٤- قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً..﴾ [البقرة/ ١٧١].

شبه الله تعالى: الذين كفروا بالأغنام التي يدعوها صاحبها فبين المعنى ببيان جميل وراعى المقابلة في المعنى لا في اللفظ، وتفصيل الكلام أن مثل الكفار ومثل داعيهم إلى الإيمان مثل الأغنام التي يدعوها الراعي فلا تسمع من دعائه إلا جرس النغمة ودوي الصوت، من غير إلقاء أذهان ولا استبصار، كمثل الناعق بالبهائم، التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذي هو تصويت بها وزجر لها، ولا تفقه شيئاً آخر ولا تعي، كما يفهم العقلاء ويعون.

٥- قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ...﴾ [البقرة/ ٢٦١].

ومثلها سائر أمثلة القرآن.

وأما القسم الثاني من أمثال القرآن فهو الأمثال الكامنة التي لم يُصرَّح فيها بذكر المثل:

قال الماوردي: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم، يقول: سمعت أبى يقول: سألت الحسين بن فضل، فقلت: إنّك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله: "خير الأُمور أوسطها"؟ قال: نعم في أربعة مواضع:

١- قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة/ ٦٨].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان/ ٦٧].

٣- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء/ ١١٠].

٤- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء/ ٢٩].

قلت: فهل تجد في كتاب الله "من جهل شيئاً عاداه"؟ قال: نعم، في موضعين:

١- قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس/ ٣٩].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف/ ١١].

قلت: فهل تجد في كتاب الله "احذر شر من أحسنت إليه"؟ قال: نعم.

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ..﴾ [التوبة/ ٧٤].

قلت: فهل تجد في كتاب الله "ليس الخبر كالعيان"؟ قال: في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

قلت: فهل تجد "في الحركات البركات"؟ قال: في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء/ ١٠٠].

قلت: فهل تجد "كما تدين تدان"؟ قال: في قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء/ ١٢٣].

قلت: فهل تجد فيه: "لا يُلدغ المؤمن من جُحْرٍ مرّتين"؟ قال: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف/ ٦٤].

قلت: فهل تجد فيه "من أعان ظالماً سُلّط عليه"؟ قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج/ ٤].

قلت: فهل تجد فيه قولهم: "ولا تلد الحية إلا حيّة"؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح/ ٢٧].

قلت: فهل تجد فيه: "للحيطان آذان"؟ قال: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ [التوبة/ ٤٧].

قلت: فهل تجد فيه: "الجاهل مرزوق والعالم محروم"؟ قال: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم/ ٧٥].

قلت: فهل تجد فيه: "الحلال لا يأتيك إلا قوتاً، والحرام لا يأتيك إلا جزافاً"؟ قال: ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡ﴾ [الأعراف/ ١٦٣][1].

القرآن يحتوي على البراهين على أصول الإيمان

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء/ ١٧٤].

من الظُّلم الذي ظُلِمَ به القرآن الكريم ومن الإهمال الذي تَعَرَّض له كتاب الله، زَعْمُ طوائف من المتكلمين والمتفلسفين أن القرآن لم يُقِمْ أيَّ برهانٍ على المسائل الاعتقادية ولم يذكر أي دليل على صحّة أصول الدين التي يدعو إليها، وأن دلالة القرآن على الأمور الاعتقادية مثل المبدأ والمعاد (أي الإيمان بالله وباليوم الآخر) والنبوّة والقضاء والقدر والخير والشرّ وأمثالها مُبْتَنِيةٌ على قبول خبر المُخْبِرِ الصادق فحسب، بمعنى أنه لما كان النبي ﷺ صادقاً ومبعوثاً من قِبَل رب العالمين، فيجب تصديق كل ما يخبر به.

والواقع أن هذا الادعاء خطأ فاضح وضلال واضح، وأصحابه لا يدرون أن القرآن أقام في الحقيقة براهين متقنة على أصول الدين وقواعد الإيمان وذَكَرَ أدلةً محكمةً على صحتها وحقيقتها، وفيما يلي الدليل على ما نقول:

١ـ نص الآية المذكورة أعلاه الصريح الذي يبين أن القرآن أتى الناس ببرهان من ربهم و

(١) السيوطي، «الإتقان في علوم القرآن»، ج٢/ ص ٣٦٤. (تر)

بنور مبين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء/ ١٧٤].

٢ـ كيف يُمْكن تصوّر أن يدعوَ شخصٌ الناسَ إلى عقائد ومبادئ ثم لا يقيم على صحتها أي برهان ولا يذكر أي دليل، بل يقول لهم لقد أتيتكم بهذه العقائد والأصول من عند الله، فإذا أردتم البراهين على صحّتها فيجب أن تذهبوا إلى كتب الفلاسفة والمتكلمين لتحصّلوا أدلّتها!.

٣ـ لقد حَرَّم القرآنُ التقليدَ ونهى عن الطاعة العمياء من غير علم، كما قال سبحانه، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء/ ٣٦]، كما خاطب اليهود قائلاً: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة/ ١١١] فكيف يُعْقَل أن يطلب من الآخرين البرهان على عقائدهم ثم لا يأتي هو بالبراهين على العقائد التي يدعو الخلائق إليها؟.

٤ـ أي طريق كان يعتمد عليه أئمة الدين والسلف الصالح في إثبات عقائد الدين قبل دخول الفلسفة في الإسلام و ظهور علم الكلام؟ هل يُعْقَل أن يعتقد أولئك السلف الذين كانوا يعتبرون – تبعاً لتعاليم القرآن – التقليد الأعمى ضلالاً، عقائدهم دون برهان وأنه لم يكن لهم أيّة أدلّة وبراهين على عقائدهم من كتاب الله؟!.

إنه لمن المؤسف جداً أن نرى الجهلَ بالقرآن وعدم التدبُّر فيه قد أوصلا أمة الإسلام إلى حالةٍ أصبحت فيها بحاجة إلى الأجانب في جميع شؤونها حتى في إقامة البراهين على أصول إيمانها! والأعجب من ذلك قول من لا خَلاَقَ له في الآخرة ومَنْ هو جندٌ من جُنْد الشيطان: إننا لا نفهم القرآن ولن يمكننا فهمه أبداً حتى يظهر إمام الزمان فيفسّره لنا!! هذه عقيدة كُفْر ولو كان صاحبها مدركاً لحقيقة ما يقول وقاصداً للوازم كلامه لصار من زمرة الكفار! لأن قوله هذا بمثابة فأسٍ يجتثُّ بها القرآن من جذوره. هذه الأفكار الباطلة والآراء الكاسدة هي التي أوصلت الناس إلى حد لم يعودوا يهتمون فيه بالقرآن وصاروا يبنون عقائدهم على مصادر غير قرآنية، حتى أصبح كثير منهم مسلمين بالظاهر أما في عقائدهم فهم كفار خالصون، وهؤلاء هم الذين سيشتكي النبي الخاتم منهم إلى الله يوم القيامة ويقول: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا

ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان/ ٣٠]. وسنذكر فيما يلي، حمايةً للقرآن وهدايةً لأهل الإيمان، أول طريقة ذهب إليها العقلاء في كشف الحقائق ثم نبين طريقة القرآن في اقتناص الحقائق ثم نذكر البراهين الواردة في كتاب الله والطريقة القرآنية ذات الشعب الثلاثة في الدعوة أي: الدعوة بالحكمة وبالموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

مقدِّمة

تنقسم العلوم إلى قسمين: القسم الأول العلوم الضرورية والبديهية التي لا تحتاج إلى كسب وتحصيل (بل هي مغروسة في فطرة الإنسان). والقسم الثاني: العلوم الكسبية التي تحتاج إلى النظر والاكتساب والتحصيل.

منذ أن وضع الإنسان قدميه في عالم الطبيعة الترابي هذا، وهو يبحث عن حقائق الأشياء وعللها، ويلاحظ الكون ويتأمّله، أوّل ما لَفَتَ نظره هو البحث عن إجابة على هذه الأسئلة: ما هي حقيقة هذا الكون وعالم الوجود؟ وما هي نسبتي لهذا الكون؟ وماذا عليّ فعله في هذا العالم؟ هذه الأسئلة دفعت الإنسان إلى البحث والتحقيق، ونشأت لدى البشر من خلال ذلك آراء وعقائد مختلفة.

فقال بعضهم إنه لا توجد أي حقيقة، ولا سبيل للإنسان للتوصل إلى أي حقيقة، وسُمِّيَتْ هذه الجماعة بالسفسطائية.

وقال آخرون: العالم منحصر بالمحسوس ولا يوجد أي حقيقة أو عالم آخر خارج عالم المادة والحس، وسُمِّي هؤلاء بالحسيين.

وقال فريق ثالث توجد عوالم كثيرة لا حصر لها غير هذا العالم المحسوس ولا يمكن للحواس أن تلاحظ تلك العوالم، بل البحث في تلك العوالم الغيبية ينحصر بالبرهان العقلي، وسمي هذا الفريق بالفلاسفة الإلهيين.

وقال فريق رابع إن طريق الوصول إلى الحقائق منحصر بالمكاشفة فقط والاستدلال العقلي استدلالٌ ضعيفٌ وذو أساس مهتز، وهذا الفريق هم جماعة الصوفيّة.

أما القرآن الكريم فقد اعتبر أن الطريق للوصول إلى الحقائق هو الدليل والبرهان بالشروط التي سنبينها بعد أن نذكر طرق المعرفة المختلفة التي مرّ ذكرها.

طريقة السفسطائية و الردّ عليها

يقول الشيخ نصير الدين الطوسي[١] في كتابه «نقد المُحَصَّل»: «إن كلمة سوفسطا كلمة يونانية مركبة من كلمتين: سوفا: بمعنى العلم، و اسطا: بمعنى الغلط، فمعنى الكلمة هو: العلم خطأٌ. كما أن كلمة الفلسفة أصلها يوناني هو «فيلوسوفي» المركبة من كلمتين: فيلو: يعني المحب وسوفي: يعني الحكمة فمعناها: محب الحكمة، فتم تعريب تلكما الكلمتين اليونانيتين إلى كلمتي سفسطة وفلسفة».

وقال الطوسي: «إنه ليس في العالم قوم يختارون هذا المذهب ولكن كل من غلط في الدليل فهو سوفسطائي، ولما كان أكثر الناس ليس لهم مذهب صحيح ويعيشون في الحيرة، فإنهم رتّبوا سلسلة من الأسئلة والاعترافات ونسبوها إلى السفسطائية» إلى هنا انتهى كلام الخواجة نصير الدين الطوسي، وسيتبين لنا فيما بعد أنه أخطأ خطأً كبيراً في معنى كلمة سفسطائي وفي حقيقة فرقة السفسطائية.

ويقول صاحب كتاب «تاريخ الفلسفة» حنّا أسعد فهمي:

«حكى شيشرون في كتابه «بروتوس» إنه بعد سقوط طغاة صقيليا. رفع الأهالي الدعاوي

---

(١) نصير الدين الطوسي: محمد بن محمد بن الحسن، أبو جعفر (٥٩٧ - ٦٧٢هـ)، فيلسوف شيعيٌّ. كان رأساً في العلوم العقلية، علامةً بالأرصاد والمجسطي والرياضيات، ولد بطوس و توفي ببغداد، وابتنى بمراغة قبةً ومرصداً عظيماً، واتخذ خزانةً ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، علت منزلته عند (هولاكو) فكان يطيعه فيما يشير به عليه. ترك مصنفات كثيرة من أشهرها «تجريد الاعتقاد»، ومن كتبه «نقد المحَصَّل» ويعرف أيضاً باسم «تلخيص المحصَّل» علق فيه ناقداً على كتابٍ «محصَّل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين» تأليف المفسِّر والمتكلِّم الأشعري الشهير فخر الدين محمد بن عمر الرازي الشافعي (٦٠٦هـ) في علم الكلام. (تر)

أمام المحاكم ليستردوا ممتلكاتهم التي اغتصبها أولئك الطغاة. فانتشر حينذاك المحامون وتباروا في الفصاحة والخطابة لإقامة الحجة والدليل على صحة دعاويهم. وأعظم من اشتهر منهم «كوراكس» و«تسياس» اللذين كانا أول من فكرا بتدوين الخطب في القرطاس. وحذا حذوهما «بروتغوراس» و«جورجياس» فأعدَّا محلات عمومية يعلّمان فيها الخطابة نظير أجر معلوم واتخذ لقب «سوفوس» مع نعتها «سوفست» أي الإنسان الحكيم الماهر في كل علم، إذ إن من شروط المحامي أن يكون ملماً بالمعارف المتعددة.

بيد أن لقب «سوفست» (أي السفسطة) تحول معناه الحقيقي وأصبح علماً على كل مغالط أو مكابر في الحق. لأن المهنة التي اتخذها أولئك السفسطائيون كان من أمرها أن تدافع عن كل دعوى سواء كانت صحيحة أو باطلة. والمحامي في استطاعته أن يأتي بالبراهين ليقنع خصمه بأمر ما. ثم يمكنه أن يدافع ضد ذاك الأمر ببراهين أخرى. وقد نشأ عن ذلك أن تخلل الشك والارتياب أفئدتهم فلم يعترفوا بحقيقة ما، ولما كانوا أقوياء الحجة قام في وجوههم خصوم أكفاء لهم كسقراط وأفلاطون وأرسطو ولقد شبه المؤرخون الجيل الخامس قبل الميلاد بالجيل الثامن عشر المسيحي، والسفسطائيين بالانسكلوبديين» انتهى[١].

وإذا رجعنا إلى تاريخ الفلسفة رأينا أن مذهب «**الشك أو اللاأدرية**» كان يظهر في كل عصر من العصور فمثلاً، كان «جورجياس» أحد زعماء السفسطائية يقول: «إننا نشك في وجود الأشياء [أي ربما لا يوجد شيء!]، وإن كانت الأشياء موجودة فلا سبيل إلى معرفتها. وإن وجد شيء وأمكن معرفته فلا يمكنا تعريفه للآخرين!».

وفي العصور الحديثة كان زعيم الشكاك «ديفيد هيوم»[٢]، فقد أبان أن وسائل المعرفة التي

---

(١) كتاب «**تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها حتى الآن**»، حنا أسعد فهمي، ومحمد علي مصطفى، تقديم: محمد فريد وجدي، وطنطاوي جوهري، مصر، المطبعة اليوسفية، ١٩٢١م. ص ٤٥ - ٤٦. (تر)

(٢) ديفيد هيوم: فيلسوف انجليزي ملحد ولد في «ادنبره» عام ١٧١١م. نشر كتابه «الطبيعة البشرية» عام ١٧٤٠ ثم لخص بعد بضع سنوات أفكاره الفلسفية في كتاب مبسوط ووجيز هو «أبحاث العقل البشري» توفي في ادنبره عام ١٧٧٦م. (تر)

يعتمد عليها العقل البشري كالعلة والمعلول، والسبب والمسبب، والجوهر والعرض ونحو ذلك، ليست إلا وهماً وخداعاً، ومن ثم لا تمكن المعرفة.

وإذا رجعنا إلى العصر اليوناني القديم نجد أنه قد اشتهر من هؤلاء الشُكَّاك (اللاأدريين) في ذلك العصر «**بيرو**» - ويظهر أنه هو الذي يسميه القفطي[1] في كتابه أخبار الحكماء بـ «**فورون اللذّي**» (أي القائل باللذة) - وقد ولد سنة ٣٦٠ ق.م. واشترك في الحملة التي سيَّرها الإسكندر إلى الهند، ولم يخلِّف لنا كتباً نعرف منها آراءه إنما نعرف عنه من تلميذه «**تيمون**».

يقول «**بيرو**» إن خير طريق يسلكه الحكيم أن يسأل نفسه هذه الأسئلة الثلاثة: (أولاً) ما هي هذه الأشياء التي بين أيدينا وكيف تكوّنت؟ (ثانياً) ما علاقتنا بهذه الأشياء؟ (ثالثاً) ماذا يجب أن يكون موقفنا إزاءها؟ أما السؤال الأول فالإجابة عنه أنا لا نعرفها، إنما نعرف ظواهرها، أما حقيقتها الباطنية فنحن بها جدّ جاهلين، والشيء الواحد يظهر بمظاهر مختلفة للأشخاص المختلفة لهذا كان من المستحيل أن نعرف أي الآراء حق، ومن أوضح الأدلة على ذلك أن آراء العقلاء مختلفة كاختلاف آراء العامة، وكل وجهة نظر يمكن البرهنة على صحتها وتأييدها كنقيضها.

ورأيي مهما كان واضحاً عندي فعكسه واضح عند غيري ومقتنع به اقتناعي، فما عند كل إنسان رأيٌ لا حقيقة، وهذه هي العلاقة بيننا وبين الأشياء، وهو الإجابة عن السؤال الثاني، أما عن السؤال الثالث فيجب أن يكون «الوقف» التام فنحن لا نستطيع أن نتأكد من شيء ولو كان تافهاً، ومن ثم كان أتباع «**بيرو**» لا يُصدرون على الأشياء أحكاماً قاطعةً، فهم لا يقولون إن الحق

---

(١) القفطي = علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني، القفطي، أبو الحسن (٥٦٨ - ٦٤٦هـ). وزير، مؤرِّخ، من الكتَّاب. ولد بقفط (من الصعيد الأعلى بمصر) وسكن حلب، فولي بها القضاء في أيام الملك الظاهر، ثم الوزارة في أيام الملك العزيز سنة ٦٣٣هـ) وأطلق عليه لقب " الوزير الأكرم" وكان صدراً محتشماً، جمَّاعاً للكتب، تساوي مكتبته خمسين ألف دينار، لا يحب من الدنيا سواها. توفي بحلب. من تصانيفه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» و «إنباه الرواة على أنباه النحاة»، و «أخبار مصر» و «أخبار اليمن» و«نزهة الخاطر في الأدب. (تر)

كذا، وإنما يقولون «يظهر لنا كذا» و«ربما كان كذا» و «من المحتمل» ونحو ذلك، وكما قالوا ذلك في الأشياء المادية قالوه في الأخلاق وفي القانون، وفي الأشياء المعنوية، فلا شيء في نفسه حق، ولا شيء في ذاته خير أو شر، وإنما هو خير في رأيي أو رأيك أو حسب القانون والعرف – وإذا عرف العاقل ذلك لم يفضِّل شيئاً على آخر، وكانت النتيجة الجمود التام، وعدم العمل، فإن أي عمل إنما هو نتيجة التفضيل، فإذا ذهبت يميناً أو شمالاً فمعنى ذلك أنى أفضل ذلك لغرض؛ فإذا انعدم هذا التفضيل انعدم العمل، وهو ما يرمي إليه «**بيرو**»، فالعمل مؤسس على العقيدة.

ويقولون أيضاً: يجب رمي الملذات والرغبات بعيداً وأن يعيش الإنسان حياته بعقل مطمئن بدون رغبة وهوس و أن يخلي نفسه من أي وهم، كي ينال السعادة، فإذا أعرض الشخص العاقل عن اللذات وأدار ظهره للرغبات و الأوهام نجا من الشقاء؛ فعلى العاقل أن يستوي لديه الشيء ونقيضه، فالصحة والمرض والحياة والموت والغنى والفقر سيان لدى الحكيم، وإذا لم يكن راغباً بطرف معيَّن، فإنه عندما يعيش في هذه الدنيا يُجْبرُ على العمل وبالتالي فعليه أن يخضع للعرف والقانون دون أن يعتبرها حقَّاً وميزاناً!

وقد كان لأكاديمية أفلاطون رؤساء ساروا جميعاً على نهج أفلاطون حتى وصلت رئاسة الأكاديمة إلى «أرسيليوس»الذي أدخل إليها **مدرسة الشكّ**، وقد اتخذت الأكاديمة حينها اسم الأكاديمية الجديدة و كان من مميزاتها المعارضة الشديدة للرواقيين، وكانوا يقولون إن الرواقيين يصدقون كل موضوع دون إقامة البرهان عليه و أنهم أشخاص سُذَّج.

لقد ردَّ «أرسيليوس» على نظرية الرواقيين و قال إنه لا أساس للمعرفة، وليس هناك مقياس نقيس به الحقيقة لا الحوّاس ولا العقل، ومن مأثور قوله: «لست أدرى، ولست أدرى أنني لا أدرى». ولكن الأكاديمية الحديثة لم تبالغ في الشك كما بالغ «**بيرو**»، فقد ذهبوا إلى أن الإنسان يجب أن يعمل، وإذا لم يكن في الإمكان معرفة الحق فاحتمال الحق وظنه كافيان في الهداية إلى العمل.

ويُعَدُّ «كاردنيادس» أشهر الأكاديمية الشكاكة، ومما يمثل رأيه قوله:

١- لا يمكن البرهنة على شيء لأن النتيجة يجب أن يبرهن عليها بالمقدّمات، والمقدّمات تحتاج إلى برهان وهكذا فيؤدّي ذلك إلى التسلسل.

٢- لا يمكن أن نعرف إن كان رأينا في شيء حقاً أو لا لأنا لا نستطيع المقارنة بين الشيء ورأينا، لأن ذلك يتطلّب أن نخرج من عقلنا، فنحن لا نعرف عن الشيء إلا رأينا فيه، فكان من المستحيل المقارنة بين الشيء وصورته في ذهننا، لأننا لا ندرك إلا الصورة.

وبعد أن خمد مذهب الشك حيناً عاد فظهر في «الأكاديمية» واشتهر من الدعاة إليه «اينيسيديموس»، وكان معاصراً لـ «شيشرون»، وقد امتاز المتأخرون من الشكاك برجوعهم إلى تعاليم بيرو - وقد اشتهر «اينيسيديموس» هذا بوضعه للمبادئ العشرة التي يبيِّن فيها استحالة المعرفة، وهي في الحقيقة ليست عشرة وإنما هي اثنان أو ثلاثة صاغها بأشكال مختلفة، وجعلها عشرة للولوع بعدد العشرة، وهي:

١- إن شعور الأحياء وإدراكهم الحسي للأشياء يختلف.

٢- الناس يختلفون طبيعياً وعقلياً، وهذا الاختلاف يجعل الأشياء تظهر أمامهم بمظاهر مختلفة.

٣- اختلاف الحواس يسبِّب اختلاف تأثرها بالأشياء.

٤- إن إدراكنا للأشياء يعتمد على حالتنا العقلية والطبيعية وقت إدراكاً.

٥- إن الأشياء تظهر بمظاهر مختلفة في الأوضاع المختلفة وعلى المسافات المختلفة.

٦- إدراكنا الحسي للأشياء ليس إدراكاً مباشراً بل بواسطة. فمثلاً نحن ننظر إلى الأشياء وقد توسط بينها وبين حواسنا الهواء.

٧- تختلف مظاهر الأشياء باختلاف كميتها ولونها وحركتها ودرجة حرارتها.

٨- يختلف تأثرنا بالشيء بمقدار إلفنا وعدم إلفنا له.

٩- كل ما نزعمه من المعلومات محمول على موضوع، وكل هذه المحمولات ليست إلا علاقات بين بعض الأشياء وبعض أو بينها وبين أنفسنا، وليست تخبرنا بحقيقة الأشياء ذاتها.

١٠- آراء الناس وعرفهم يختلف باختلاف البلاد.

ويريد أن يصل بهذه القضايا العشر إلى القول بأن العلم بكنه الأشياء لا يمكن، لأن ما عندنا من الوسائل لا يمكننا من ذلك[١].

وخلاصة كل ما تقدم أن السفسطائية انقسموا إلى ثلاث فرق:

١- **اللاأدرية**: الذين يقولون: لسنا ندري ولسنا ندري أننا لا ندري!.

٢- **العنادية**: الذين يقولون لا توجد أي قضيّة بديهية أو نظرية إلا ويوجد لها ما يعارضها، وتوجد معاندة بين القضايا، مثلاً قضية «العالم حادث» وبراهينها تتعارض مع قضية «العالم قديم» وبراهينها، وبما أنه يوجد تعارض وتناقض دائم بين القضايا فلا يمكننا الترجيح بينها، والحكم بشأنها!

٣- **العندية**: الذين يقولون عقيدة كل قوم هي حق بالنسبة إليهم وباطلة بالنسبة إلى حضورهم. [يعني الشيء الواحد يمكن أن يكون حق وباطل في الوقت ذاته! فهؤلاء يقولونا بالنسبية المطلقة وإنكار الحقائق الذاتية للأشياء].

إبطال كلام السفسطائية

إن مَثَلَ السفسطائية في قولهم: بما أنّنا لا نملك القدرة على كشف الحقائق فلابد أن نتوقف عن ذلك ونكف عن البحث عن الحقيقة ونتفرّغ بالتالي للحياة ونجعل أعمالنا مطابقة للعرف السائد والعادة الجارية بين الناس، مَثَلَ من يلاحظ رتبة الملك وعظمته ويرى أنه مطاعٌ ومُتَّبعٌ، وأوامره جارية وأحكامه سارية في البرايا، ثم ينظر إلى نفسه ويلاحظ نقصه وضعفه وصغر شأنه فيقول في نفسه: من المستحيل عليَّ أن أصل إلى مرتبة الملكية، وإن كان من الممكن لي أن أصل إلى مرتبة الوزارة أو شغل رفيع آخر، دون رتبة الملك، لكن بما أنني لا يمكنني الوصول لمرتبة الملك فلا

(١) أحمد أمين، و زكي نجيب محمود، «قصة الفلسفة اليونانية»، ط٢، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥م، ص ٣٠٥ إلى ٣١١. (تر)

أرغب بالأعمال الأخرى، ويستقر في ذهنه الفكرة القائلة بما أنني لا أستطيع الوصول لمرتبة الملك فعليَّ أن أقنع بشغل أبي الذي كان كنّاساً! مع أن الكنّاس عاجز عن تحصيل لقمة العيش التي يسد بها رمقه وعن تأمين اللباس الذي يقيه من البرد والحرّ. فيحفظ سيرة الآباء قائلاً لنفسه:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

لو تأمل هذا الشخص ذو الهمة الضعيفة والفطرة المنحطّة والنظرة القاصرة وفكر جيداً لعلم أن بين درجة الكنَّاس والملك منازل ودرجات كثيرة، وأنه إذا كان لا يستطيع الوصول إلى أعلى درجة فلا ينبغي عليه أن يقنع بأسفل درجة بل عليه أن يشد العزم والهمّة لينطلق من أسفل المراتب ليصل إلى أعلى ما يمكنه من مرتبة، فكل مرتبة يصل إليها ستكون مرتبة عزة وسيادة بالنسبة إلى مرتبته الدنيا الحالية، وكذلك فإن درجات السعادة العلمية والعملية متفاوتة فكل من كانت له منزلة من العلم لا ينبغي أن يقول طالما لا أستطيع الوصول إلى جميع الحقائق كلها فعلي أن لا أسعى للعلم أصلاً وأن أقنع بجهلي، بل عليه أن يعمل بقاعدة: «ما لا يُدْرَك كله لا يُتْرَك كله!».

وخلاصة الكلام إن السفسطائية في كلامهم هذا قد أخطؤوا خطأً فاحشاً وسدُّوا على أنفسهم باب المعرفة وقنعوا برداءة الجهل، كالكناس الذي قنع بمهنة الكنس، نعوذ بالله من الضلال.

وينبغي أن نعلم أن قول السفسطائيين بنفي الحقائق مكابرة للعقل وللحسّ، ويكفي للردّ عليهم أن يُقال لهم: هل قولكم «إنه ليس للأشياء حقيقة» حق أم باطل؟ إن قلتم هو حق فقد أثبتُّم حقيقةً ما ونقضتم قولكم، وإن قلتم هو كلام باطل اعترفتم ببطلان دعواكم أنه ليس للأشياء حقيقة!!

ونقول أيضاً للشكاكين منهم: هل شكُّكُم هذا ثابت وصحيحٌ وحقيقيٌّ أم أنه غير موجود وغير صحيح؟ إن قلتم بل هو موجود وصحيح فقد أثبتُّم حقيقةً من الحقائق، وإن قلتم بل هو غير موجود وغير صحيح فقد أبطلتم شكَّكُم ونفيتموه ومن البديهي أن نفي الشك معناه إثبات

الحقائق.

أما قول من قال إن كل قضية هي حق عند من يعتبرها حقاً وهي باطل عند من يعتبرها باطلاً، فجوابه: إن مجرّد الاعتقاد بأن شيئاً ما حقٌّ لا يجعله حقاً، كما أن مجرد الاعتقاد بأن شيئاً ما باطلٌ لا يجعله في حقيقته باطلاً، بل الحق هو الموجود الثابت في واقع الأمر و نفسه وذاته ولا دخل للاعتقاد في ثبوته أو عدم ثبوته في ذاته، ولا تتغير حقيقة الشيء بسبب الاعتقاد به أو عدم الاعتقاد به، ولو صح كلامكم هذا لكان الشيء الواحد ثابتاً وموجوداً، ومنفياً ومعدوماً في الوقت نفسه!! وهذا يؤدي لاجتماع النقيضين وبطلانه من أوضح البديهيات.

طريقة الحِسِّيِّين والتجريبيين وإبطالها

يرى أصحاب هذا المذهب أنه لا يوجد شيء سوى المادة والأجسام المادية، ويقولون إن الموجودات هي فقط تلك التي تلتقطها الحواس، وليس وراء الحس شيء، ويقولون إن موضوع المعرفة وما يمكن للبشر أن يصلوا إليه من علم هو الأمور المحسوسة فقط ويعتبرون العلم منحصراً فقط في حدود المحسوسات التي تقع تحت التجربة ويمكن التحكُّم بها أما ما ليس بمحسوس، فلا يمكن للتفكير العقلي أن يثبت وجوده، وكل علم يستند إلى المعقولات ويدور حولها لا يَعْتَبِرُونه علماً بل مجرّد وَهمٍ ورَجمٍ بالغيب.

إذن موضوع علم الحِسِّيِّين هو المحسوسات، ويعتبرون أن القوة التي يمكن للإنسان أن يتعرّف بها على الأشياء هي قوة الإحساس والشعور. والحواس في نظرهم ليست شيئاً سوى الأعصاب، وطريقة بحثهم هي طريقة التجربة والحسّ فكل ما أوصلا إليه فهو العلم، لذلك فأصحاب هذا المذهب لا يعتبرون الإلهيات والنبّوات وعلم النفس والأخلاق علماً لأن مباحثها لا تتعلَّق بالأمور المحسوسة أو التي تقع تحت التجربة والحسّ وخلاصة كلامهم: سلامٌ على الوحي والدين!.

واستناداً إلى هذه الأصول والمبادئ الفاسدة قسَّم الفيلسوف «كانط» العلوم إلى علم الرياضيات وعلم الطبيعة (الفيزياء) وعلم الفلك وعلم الكيمياء وعلم الأحياء وعلم الاجتماع

فقط.

أما الدليل على فساد قول الحِسِّيِّين فهو ما يلي:

١- نحن نعلم بالضرورة أن أفراد البشر مشتركون بحقيقة الإنسانية، وحقيقة الإنسانية هذه إما أن نقول إنها ذات شكل ومقدار وحيّز معين أو نقول ليس لها شكل ومقدار وحيِّزٌ محدَّد.

إذا كان لذلك القدر المشترك بين البشر [الإنسانية] شكل وحيز معين للزم من ذلك أن لا يكون مشتركاً لأن كل تشخُّص يخالف التشخُّص الآخر، وإذا لم يكن لتلك الحقيقة المشتركة مقداراً أو وضعاً وشكلاً مُعَيَّناً ولا محدَّداً بأي تحديدٍ خاص، بل يصلح له أي تحديد، فمن المسلم به أنه لن تكون هذه الحقيقة المشتركة عندئذٍ محسوسةً بل ستكون حقيقةً معقولةً، وبالتالي بَطُل قولهم إن كل ما ليس بمحسوس لن يكون معقولاً وليس له وجود. والحقيقة أن البحث والتفتيش في المحسوس ساقنا إلى شيء غير محسوس وهو المفهوم الكلي للإنسان [حقيقة الإنسانية].

٢- إن الذي يعترف بالمحسوسات يجب عليه أن يعترف بوجود حقيقة الإحساس والإدراك لأنه لولاها لما وُجدَ المحسوس. وحقيقة الإحساس هذه ليست شيئاً محسوساً بل معقولاً فالاعتراف بالمحسوس يستلزم الاعتراف بغير المحسوس أيضاً.

٣- لا يمكن لأي عاقل أن ينكر تعقُّلَه رغم أن العقل ليس متوهماً ولا ملموساً بالحسّ.

٤- هناك تعلُّقات للمحسوسات لا تُدرَك بالحس ولا بالتوهم وذلك مثل إدراك الطبائع الكلية مثل العشق والخجل والوجل والغضب والشجاعة والجبن وأمثالها، لأن العقل هو الذي يدرك كلياتها أما نماذجها وجزئياتها مثل عشق الشخص الفلاني أو الغضب منه أو الخوف من فلان، فلا تدرك بالحس بل تُدرَك بالوهم، وإذا ثبت أنه توجد في عالم الوجود موجودات خارجة بالذات عن هذه المراتب مثل الذات الربوبية وعالم الغيب فهي أولى أن تكون معقولةً لا محسوسة.

أما توهم الحسِّيِّين بأن الفكر ليس في الحقيقة سوى وظيفة لعضوٍ من أعضاء البدن هو المخ

تماماً كما أن وظيفة المعدة والأمعاء هضم الطعام ووظيفة الكبد إفراز الصفراء، ووظيفة الغدد تحت اللسانية إفراز اللعاب، وأن التفكير والاستدلال نتيجة عمل آلة الدماغ ونتيجة تفاعل التأثيرات الواردة عليه؛ فهو توهم في غاية الفساد والبطلان والدليل عليه أن عمليات الهضم وإفراز الصفراء واللعاب ليست من نوع الفكر بل هي أعمال مادية محضة مماثلة لأعمال الطبيعة كنمو النبات والتبخرُّ لكن عمل الفكر هو عمل معنوي يتضمن الإحاطة بالكون المحسوس والمعقول ولا يوجد أي تناسب بينه وبين الأعمال المادية الصرفة كهضم الطعام وأمثالها.

أضف إلى ذلك أن الدماغ ليس هو المدرك على الحقيقة بل هو وسيلة وآلة للإدراك كما أن العين ليست هي بذاتها المدركة أي المبصرة بل هي آلة للبصر والرؤية.

فإن قيل إن قدرة الإنسان على التفكير تتبدل مع كبر حجم الدماغ أو صغر حجمه كما أن القدرة على الإدراك تتأثر تماماً بكمال شكل الدماغ (المخ) وتركيبه الكيميائي. قلنا في الجواب: إن هذا الكلام يماثل قولك إن قوة الإبصار لدى الإنسان تقوى وتتأثر بسلامة عضو العين وصحة عمل أجزائها وشكل ومواد تركيبها الكيماوي، وإن السمع يتأثر سلباً وإيجاباً بصحة وسلامة وكمال أجزاء الأذن ودقة تركيبها أو وجود خلل فيها. لكننا إذا دققنا في الأمر بشكل كامل لرأينا أن حقيقة المبصر ليس هو العين وأن السامع على الحقيقة ليس هو الأذن لأنه يحدث أحياناً أن تكون العين في قمّة السلامة والصحة ومع ذلك فالإنسان بسبب انشغاله بأمر مهم أو وقوعه في خوف شديد أو ألم مبرح لا يرى ما يوجد أمام عينيه، وكذلك قد تكون الأذن سالمةً صحيحة ولكن الإنسان بسبب انشغاله واستغراقه بأمر مهم، فإنه لا يسمع حتى ولو صُحْتَ به بأعلى صوت.

وقد يُقَال إنه بسبب تأثُّر المخ بالألم والفزع الشديد ينصرف الإنسان عن تمييز المبصرات والمحسوسات، وعدم الإبصار وعدم السمع سببه هذا الانصراف.

لكن هذا الاعتراض في غاية الضعف فإن الإنسان الذي يملك حظ الانتباه من شغل إلى شغل آخر والتوقف عند أمر دون أمر آخر لا يمكننا أن نقول عنه إنه موجودٌ ماديٌّ محض، فنحن

لو دقَّقنا في الآلات المادية لأدركنا أنها لا تنصرف عن عمل إلى آخر إلا إذا وجد حائل مادي، مثلاً المرآة التي تعكس صورة شخص دون شخص آخر، لا تتوقّف عن عكسها صورة الشخص إلا إذا حال بين المرآة وبين الشخص حائل أو حجاب ما، إذن لو كان المخ المادي المحض مثل آلة الساعة أو الآلات البخارية فإنه من الجنون أن نقول إنه ينصرف بسبب الألم والفزع لأن التألم والفزع من الأمور المعنوية والوهمية وهي ليست من خواص المادة والحركة.

والخلاصة إن تركيب المخ والمواد الداخلة فيه وخواصه معروفة فكيف يمكن تصور أن ينشأ جوهرٌ حيٌّ لا حدّ لتصوراته ولا نهاية لمدركاته من مواد جامدة غير مدركة. وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ.

طريقة الكشف والشهود عند الصوفية

قبل البحث في مسألة الكشف لا بد لنا من بيان مختصر لتسمية الصوفي و نشأة فرقة الصوفية:

هناك آراء كثيرة حول أصل تسمية الصوفية:

١ - قال بعضهم إن الصوفي مشتق من «صوفة» وهو اسم رجل كان قد انقطع إلى خدمة الله سبحانه وتعالى واعتكف عند بيته الحرام واسمه الأصلي «الغوث بن مر»، فانتسب الصوفيَّةُ إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى وسموا بالصوفية. يقول الجوهري في كتاب «الصحاح» والفيروزآبادي في «القاموس» وعبد الرحمن بن الجوزي في «تلبيس إبليس» إن «صوفة» كان صُوفَةُ أبا حَيٍّ من مُضَرَ، وهو «الغَوْثُ بنُ مُرِّ بنِ أُدِّ بنِ طابِخَةَ»، كانوا يَخْدمون الكَعْبَةَ، ويُجِيزونَ الحاجَّ في الجاهِلِيَّةِ، أي: يُفيضونَ بهم من عَرَفاتٍ، وقالوا إنما سُمِّيَ «الغَوْثِ بنِ مُرٍّ» بصوفة لأنَّ أُمَّهُ كانت لا يَعيشُ لها ولَدٌ، فَنَذَرَتْ لَئِنْ عاشَ هذا لَتَرْبطَنَّ برأسِه صُوفةً، ولَتَجْعَلَنَّه رَبِيطَ الكَعْبَةِ (أي خادمها). فعاشَ، ففعلتْ، وجَعَلَتْه خادِماً للبيتِ حتى بَلَغَ فقيل له صوفة ولولده من بعده[1].

(١) عبد الرحمن بن الجوزي، تلبيس إبليس، ص ٢٠٠. والقاموس المحيط، مادة الراء، فصل ربط. (تر)

٢- قال بعضهم إن «الصوفي» مشتق من كلمة «صوفة» التي معناها الشيء المهمل المرمي بعيداً لعدم رغبة أحد به، مثل اشتقاق الكوفي من الكوفة، والسبب هو أن الصوفية شعارهم الانكسار والتخفي و التواري عن الخلق، فكأنهم مثل الخرقة المهترئة التي رماها أصحابها بعيداً.

٣- يقول ابن خلدون و «نولدكه» و «نيكلسون» وجماعة آخرون إن الصوفي مشتق من الصوفي لأن قدماء الصوفية كانوا يلبسون غالباً الصوف باعتبار أن لبس الصوف أقرب إلى الزهد والتواضع.

يقول اليافعي: إن لبس الصوف أقرب إلى التواضع والخشوع وكان قدماء الصوفية يلبسونه، والصوف لبس الأنبياء وقد ورد في الحديث أن الرسول الأكرم كان يركب الحمار ويلبس الصوف، وقال الحسن البصري لقيت سبعين بدرياً يلبسون الصوف ويقول السهروردي في «عوارف المعارف» اختار الصوفية لبس الصوف لأنهم تركوا زينة الدنيا وقنعوا بسد الجوع وستر العورة واستغرقوا في أمر الآخرة ولم يعتنوا بلذائذ النفس وراحتها.

أقول: لكن ما ذكروه غير صحيح ونسبة لبس الصوف إلى الرسول الأكرم والسلف الصالح نسبة لا أساس لها من الصحّة بل الأخبار تدلّ على خلافها.

كما قال ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»: «ومن الصوفية من يلبس الصوف ويحتج بأن النبي لبس الصوف وبما روى في فضيلة لبس الصوف. فأما لبس رسول الله الصوف فقد كان يلبسه في بعض الأوقات لم يكن لبسه شهرة عند العرب وأما ما يروى في فضل لبسه فمن الموضوعات التي لا يثبت منها شيء ولا يخلو لابس الصوف من أحد أمرين أما أن يكون متعودا لبس الصوف وما يجانسه من غليظ الثياب فلا يكره ذلك له لأنه لا يشهر به وأما أن يكون مترفاً لم يتعوَّده فلا ينبغي له لبسه من وجهين أحدهما أنه يحمل بذلك على نفسه ما لا تطيق ولا يجوز له ذلك والثاني أنه يجمع بلبسه بين الشهرة وإظهار الزهد.

عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: **من لبس الصوف ليعرفه الناس كان حقاً على الله عز و جل أن يكسوه ثوباً من جرب حتى تتساقط عروقه.**

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: **إن الأرض لتعجّ إلى ربّها من الذين يلبسون الصوف رياء.**

ويقول أبو جعفر محمد بن جرير الطبري أن من الخطأ تفضيل لبس الصوف على لبس القطن و الكتان.

وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة لا المرتفعة ولا الدون ويتخيرون أجودها للجمعة والعيدين ولقاء الإخوان. وعن أبي العالية أنه قال: كان المسلمون إذا تزاوروا تجمَّلوا. و كان المهاجرون والأنصار يلبسون لباساً مرتفعاً.

وعن محمد ابن سيرين أن تميماً الداري اشترى حلة بألف درهم وكان يقوم فيها بالليل إلى صلاته. وقد كان ابن مسعود من أجود الناس ثوبا وأطيبهم ريحاً.»[1].

ويقول أبو عبد الله ابن قيم الجوزية في كتابه «زاد المعاد»:

«وَكَانَ غَالِبُ مَا يَلْبَسُ ﷺ هُوَ وَأَصْحَابُهُ مَا نُسِجَ مِنْ الْقُطْنِ وَرُبَّمَا لَبِسُوا مَا نُسِجَ مِنْ الصّوفِ وَالْكَتّانِ. وَذَكَرَ الشّيْخُ أَبُو إسْحَاقَ الْأَصْبَهَانِيّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ أَيّوبَ قَالَ: «دَخَلَ الصّلْتُ بْنُ رَاشِدٍ عَلَى مُحَمّدِ بْنِ سِيرِينَ وَعَلَيْهِ جُبّةُ صُوفٍ وَإِزَارُ صُوفٍ وَعِمَامَةُ صُوفٍ فَاشْمَأَزّ مِنْهُ مُحَمّدٌ وَقَالَ: أَظُنّ أَنّ أَقْوَامًا يَلْبَسُونَ الصّوفَ وَيَقُولُونَ قَدْ لَبِسَهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَقَدْ حَدّثَنِي مَنْ لَا أَتّهِمُ أَنّ النّبِيّ ﷺ قَدْ لَبِسَ الْكَتّانَ وَالصّوفَ وَالْقُطْنَ وَسُنّةُ نَبِيّنَا أَحَقّ أَنْ تُتّبَعَ».

وَمَقْصُودُ ابْنِ سِيرِينَ بِهَذَا أَنّ أَقْوَامًا يَرَوْنَ أَنّ لُبْسَ الصّوفِ دَائِمًا أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ فَيَتَحَرّوْنَهُ أَنْفُسَهُمْ مِنْ غَيْرِهِ وَكَذَلِكَ يَتَحَرّوْنَ زِيّا وَاحِدًا مِنْ الْمَلَابِسِ وَيَتَحَرّوْنَ رُسُومًا وَأَوْضَاعًا وَهَيْئَاتٍ يَرَوْنَ الْخُرُوجَ عَنْهَا مُنْكَرًا وَلَيْسَ الْمُنْكَرُ إلّا التّقَيّدُ بِهَا وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا وَتَرْكُ الْخُرُوجِ عَنْهَا.

وَالصّوَابُ أَنّ أَفْضَلَ الطّرُقِ طَرِيقُ رَسُولِ الله ﷺ الّتِي سَنّهَا وَأَمَرَ بِهَا وَرَغّبَ فِيهَا وَدَاوَمَ عَلَيْهَا وَهِيَ أَنّ هَدْيَهُ فِي اللّبَاسِ أَنْ يَلْبَسَ مَا تَيَسّرَ مِنْ اللّبَاسِ مِنْ الصّوفِ تَارَةً وَالْقُطْنِ تَارَةً وَالْكَتّانِ تَارَةً.

---

(١) عبد الرحمن بن الجوزي، تلبيس إبليس، ص ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٤٥ – ٢٤٦ بتلخيص واختصار. (تر)

وَلُبْسُ الْبُرُودِ الْيَمَانِيَةِ وَالْبُرْدِ الْأَخْضَرِ وَلُبْسُ الْجُبَّةِ وَالْقَبَاءِ وَالْقَمِيصِ وَالسَّرَاوِيلِ وَالْإِزَارِ وَالرِّدَاءِ وَالْخُفِّ وَالنَّعْلِ وَأَرْخَى الذُّؤَابَةَ مِنْ خَلْفِهِ تَارَةً وَتَرَكَهَا تَارَةً. وَكَانَ يَتَلَحَّى بِالْعِمَامَةِ تَحْتَ الْحَنَكِ. وَكَانَ إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا سَمَّاهُ بِاسْمِهِ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ كَسَوْتَنِي هَذَا الْقَمِيصَ أَوْ الرِّدَاءَ أَوْ الْعِمَامَةَ أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ**». وَكَانَ إِذَا لَبِسَ قَمِيصَهُ بَدَأَ بِمَيَامِنِهِ. وَلَبِسَ الشَّعْرَ الْأَسْوَدَ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «**خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ**». وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ قَتَادَةَ: **قُلْنَا لِأَنَسٍ أَيُّ اللِّبَاسِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: الْحِبَرَةُ**. وَالْحِبَرَةُ بُرْدٌ مِنْ بُرُودِ الْيَمَنِ. فَإِنَّ غَالِبَ لِبَاسِهِمْ كَانَ مِنْ نَسْجِ الْيَمَنِ لِأَنَّهَا قَرِيبَةٌ مِنْهُمْ وَرُبَّمَا لَبِسُوا مَا يُجْلَبُ مِنْ الشَّامِ وَمِصْرَ كَالْقَبَاطِيِّ الْمُنْسُوجَةِ مِنْ الْكَتَّانِ الَّتِي كَانَتْ تَنْسِجُهَا الْقِبْطُ. وَفِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ عَنْ عَائِشَةَ: **أَنَّهَا جَعَلَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ بُرْدَةً مِنْ صُوفٍ فَلَبِسَهَا فَلَمَّا عَرِقَ فَوَجَدَ رِيحَ الصُّوفِ طَرَحَهَا وَكَانَ يُحِبُّ الرِّيحَ الطَّيِّبَ**.

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «**لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنْ الْحُلَلِ**». وَفِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ عَنْ أَبِي رِمْثَةَ قَالَ: «**رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ وَعَلَيْهِ بُرْدَانِ أَخْضَرَانِ**». وَالْبُرْدُ الْأَخْضَرُ هُوَ الَّذِي فِيهِ خُطُوطٌ خُضْرٌ.»[١].

«واعلم أن اللباس الذي يزري بصاحبه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر وكأنه لسان شكوى من الله عز و جل ويوجب احتقار اللابس وكل ذلك مكروه ومنهي عنه.

عن الأحوص عن أبيه قال: «**أتيت رسول الله وأنا قشف**[٢] **الهيئة فقال هل لك مال؟! قلت: نعم. قال: من أي المال؟ قلت: من كل المال قد آتاني الله عز و جل من الإبل والخيل والرقيق والغنم. قال: فإذا آتاك اللهُ عزَّ و جلَّ مالاً فليُرَ عليك**».

وعن جابر قال أتانا رسول الله زائراً في منزلي فرأى رجلاً شعثاً فقال: «**أما كان يجد هذا ما**

---

(١) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج١/ ص ١٣٧ - ١٣٩. (تر)

(٢) القَشَفُ: رَثَاثَةُ الهَيْئَةِ وسُوءُ الحالِ وضِيقُ العَيْشِ، والمُتَقشِّف الذي يتبَلَّغ بالقُوت وبالمُرَقَّع. (تر)

يسكن به رأسه!» ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة فقال: «**أما كان يجد هذا ما يغسل به ثيابه؟**»»[١].

لقد اتَّضح من هذه البيانات بطلان قول من يدَّعي أن لبس الصوف كان شعار الرسول الأكرم ﷺ والسلف الصالح.

والأمر المسلَّم به فهو أن لبس الصوف كان من تقاليد النصارى، وأن ذلك كان أصل التصوف والروحانية.

يقول ابن سيرين إن عيسى بن مريم كان يلبس الصوف ونبيَّنَا كان يلبس القطن والكتان وسنة نبيِّنا أجدر بالمتابعة. ويقول صاحب الأغاني كان لبس المسوح - الخاص بالرهبان - ممدوحاً زمن الجاهلية، وقد لبسه أمية بن سعد[٢]. وكان الصوف لبسا الرهبان لذا كان زهاد المسلمين يعتبرن لبسه بدعة، وقد قال سفيان الثورة لشخص يلبس الصوف: إن هذا اللباس بدعة.

وقال الجاحظ في كتاب «الحيوان» كان النصارى يلبسون الصوف في عباداتهم. وفي الجزء الثاني من كتاب أخوان الصفا، رسالة الطير و الحيوان وفيها أن راهباً دخل وهو لابس صوفاً. و من المستشرقين يقول «نولدكه» كان لباس الصوف في الأصل من شعار النصارى، ويقول «نيكلسون» إن نذر الصمت و حلق الذكر يعود في أصله إلى النصرانية.

٤- قال بعضهم إن الصوفي مشتق من «الصُّوفَانَة»: بَقْلَةٌ مَعْرُوفةٌ وهي زَغْباءُ قَصِيرَةٌ تنبت في الصحراء، وسبب تسمية الصوفية بهذا الاسم قناعتهم بهذا الطعام الزهيد. لكن هذا القول غير صحيح لأنه لو كان الصوفية ينتسبون إلى الصوفانة لوجب أن يكون اسمهم الصوفانية وليس الصوفية.

٥- وقال بعضهم إن الصوفي مشتق من «صوفة القفا» وهي الشعر الذي ينبت في مؤخر

---

(١) عبد الرحمن بن الجوزي، «تلبيس إبليس»، ص ٢٤٧ فما بعد. (تر)

(٢) هكذا قال المصنف، لكن الوارد في كتاب «الأغاني» (٤/ ١٢٩) هو «أميّة بن أبي الصلت» وقال عنه «قد نظر في الكتب وقرأها، ولبس المسوح تعبّداً». (تر)

القفا، وسبب تسمية الصوفي بذلك أنه منقطعٌ عن الخلق و متوجِّهٌ إلى الحق.

٦- قال بعضهم أن وجه تسميتهم بهذا الاسم أنهم يقفون في الصلاة في الصف الأول بين يدي الله بارتفاع همومهم و إقبالهم على الله بقلوبهم.

٧- قال بعضهم إن الأصل في تسميتهم كان «صفوية» نسبة إلى الصفاء ولكن الواو حذفت تخفيفاً لثقل الكلام فصار اسمهم صوفية.

قال صاحب كتاب الرشحات: إن لفظ الصوفي مشتق من صفوة المال، كما سُمِّيَ آدمُ صفياً لأن الله تعالى اصطفاه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا ...﴾ [آل عمران/ ٣٣]، ثم أُلْحِقَت ياء النسبة بالصفوة فصارت صَفْوِيّاً، و لما كان هذا اللفظ كثير الاستعمال وكان ثقيلاً على الألسنة، و ضعوا «الواو» التي تمثل لام الفعل مكان «الفاء» التي هي عين الفعل، و وضعوا الضمة على الصاد تناسباً مع الواو، فصار اللفظ: صوفيّاً.

٨- وقال بعضهم إن اشتقاق الصوفي من «**الصُّفَّةِ**» وهي الغرفة المسقفة بجريد النخل التي جعلها الرسول الأكرم خلف مسجده لتكون مأوىً لفقراء المهاجرين، وسبب نسبة الصوفية إلى «**الصُّفَّةِ**» مشابهتهم لأهلها في ملازمة الفقر والمسكنة والانقطاع إلى الله.

ولكن هذه النسبة غير صحيحة لأن النسبة إلى «**الصُّفَّةِ**» هي «الصُّفِّيّ» مثل السُّنَّة والسُّنِّيّ. ثم إن أهل الصُّفَّة كانوا فقراء وردوا على رسول الله ﷺ ولم يكن لهم أهل ولا عيال ولا مسكن، وقد أمر النبيُّ أن يهيئوا لهم صُفَّةً في المسجد، فسكنوا بها بسبب ضيق العيش وعدم وجود مكان آخر يسكنون فيه، وبسبب ضيق بيت المال في ذلك الوقت، كان أهل الصفة يضطرون للعيش اعتمادا على الصدقات والخيرات، لكن لما قوي أمر المسلمين و اتسع معاشهم، خرج أهل الصفة من صفتهم و انطلقوا في أعمالهم وكسبهم و تحسن حالهم وصاروا مرفهين.

التحقيق

يتبيَّن من هذه الأقوال المتشتتة أنه ليس بين أيدينا اشتقاق صحيح لكلمة «الصوفي»، وهذا يكشف حقيقة أن هذه اللفظة ليست عربية الأصل، كما صرح بذلك القشيري الذي كان من

أقطاب الصوفية الكبار فقال في كتابه «الرسالة القشيري: «**ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة اللغة العربية و لا قياسٌ، والظاهر أنه لقبٌ**».

وقد صرَّح المحقِّقون بذلك، كما قال ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»: إن هذا الاسم بدأ منذ القرن الثاني وذلك لأن النسبة كانت في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام، فيُقال مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلَّقوا بالزهد والتعبُّد.[١] ولم تكن هناك رابطة صحيحة بينهم وكان عمل الزهاد والعباد مطابقاً لسنة رسول الله ﷺ فوجد من ذلك اسم الصوفي، كما وجدت سائر الأسماء مثل المعتزلي و الجبري و القدري والأشعري والظاهريّ وأمثالها، ولو انتبهنا إلى المسألة بدقّة لرأينا أن نشأة تلك الأسماء المختلفة والأحزاب المتنوعة سبب لانحطاط المسلمين وشقاء عالم الإسلام، فهل يأتي ذلك اليوم الذي تزول فيه عن المسلمين هذه المسمّيات ويتسمَّون فقط بذلك الاسم الصحيح الذي سماهم الله به أي المسلمين؟

وخلاصة الكلام إنه لم يكن في زمن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين وحتى القرن الهجري الثاني وجود لاسم «الصوفية»، ثم لَّما فتح المسلمون معظم بقاع المعمورة ودخلت في الإسلام شعوب وملل مختلفة، نشأت الفرق المتعددة في الإسلام ومنها «الصوفية».

بناء على ما ذُكِرَ ندرك أن كلمة «الصوفية» ليست عربية الأصل بل هي كلمة يونانية وهي كلمة «سوفي» التي تكتب بالسين، كما يصرّح بذلك أبو ريحان البيروني[٢] في كتابه «تحقيق ما

---

(١) عبد الرحمن بن الجوزي، «تلبيس إبليس»، ص ٢٤٧ فما بعد. (تر)

(٢)البيروني محمد بن أحمد، أبو الريحان البيروني الخوارزمي(٣٦٢ - ٤٤٠هـ): فيلسوف رياضي مؤرخ، من أهل خوارزم. أقام في الهند بضع سنين، ومات في بلده، اطلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وعلت شهرته، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره.وصنف كتباً كثيرةً جداً، متقنةً، ومن أشهر آثاره: «الآثار الباقية عن القرون الخالية» و«الاستيعاب في صنعة الاسطرلاب» و«الجماهر في معرفة الجواهر» و«تاريخ الهند» و«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، وغيرها من الكتب في الفلك والهندسة. (تر)

للهند من مقولة»، والفاضل المعاصر صاحب «طرائق الحقائق»[١] ومن المستشرقين «فون هامر»، ومن الكتاب الآخرين: «عبد العزيز الإسلامبولي» و «الأستاذ محمد جمعة» الذين رجحوا جميعاً هذا القول الذي ذكرناه، وقالوا إن أصل كلمة الصوفية هو كلمة «**سوفا**» اليونانية والتي معناها: الحكمة.

وكان الجاحظ أول من استعمل هذه الكلمة من العرب حيث استعملها في كتابه «البيان والتبيين» فقال: «وأسماء الصوفية من النسّاك»، وكان أول من أطلق عليهم هذا الاسم هو أبو هاشم الكوفي [حيث عُرِف باسم «أبو هاشم الصوفي»].

تقرير الكشف والشهود

قال أرباب الكشف والشهود: «إن مثل القلب بالنسبة إلى الحقائق والمعقولات مثل المرآة بالإضافة إلى صور المتلونات فكما أن للمتلون صورةً، ومثالُ تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها، كذلك لكل معلوم حقيقةٌ ولتلك الحقيقة صورةٌ تنطبع في مرآة القلب وتتضح فيها. وكما أن المرآة غير وصور الأشخاص غير وحصول مثالها في المرآة غير فهي ثلاثة أمور فكذلك ههنا ثلاثة أمور القلب وحقائق الأشياء وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه فالعالم عبارة عن القلب الذي فيه يحل مثال حقائق الأشياء، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء، والعلم عبارة عن حصول المثال في المرآة.

وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدوَّر ويشكل ويُصقَل والثاني لخشه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل والثالث لكونه

---

(١) هو الميرزا محمد معصوم علي الشاه نعمة اللاهي الشيرازي. كان من العرفاء والمتصوفة من الإمامية في القرن الثالث عشر الهجري، له (بالفارسية) كتاب «طرايق الحقائق» طبع في طهران سنة ١٣١٩ هـ، وترجم لنفسه في الكتاب المذكور فذكر أن مولده كان بشيراز سنة ١٢٧٠هـ وأنه سافر إلى كربلاء سنة ١٢٨٨هـ لتحصيل العلم، فمكث فيها أربع سنوات تتلمذ على بعض كبار الفقهاء منهم آية الله الميرزا محمد حسن الشيرازي والمولى محمد حسين الأردكاني. (تر)

معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة والرابع لحجاب مرسل بين المرآة والصورة والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها؛ فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة:

١ - نقصان في ذاته كقلب الصبي فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه.

٢ - كدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**من قارف ذنباً فارقه عقلٌ لا يعود إليه أبداً**»[1].

٣- أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس يتَّضح فيه جليَّة الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذياً بمرآته شطر المطلوب، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها.

٤ - الحجاب بين القلب وحقائق العلوم، فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد فاسد و عادات خبيثة سبقت إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد وهذا أيضاً حجاب عظيم به حجب أكثر الخلق.

٥ - الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب فهو لا يعلم طريق العلم، ولا يقدر على ترتيب المقدمات التي توصل إلى النتائج، فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه

(١) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: حديث «من قارف ذنباً فارقه عقلٌ..» لم أر له أصلاً.

العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلي حقيقة المطلوب لقلبه»[١].

وخلاصة القول إن القلب مستعدٌّ دائماً لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة التي سبق ذكرها فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة، وتجلى حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها، والحجاب بين المرآتين تارة يُزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فبه ينكشف الغطاء وينكشف أيضا في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم[٢].

فإذا عرفت هذا فاعلم أن الصوفية يسلكون في اكتناه الحقائق طريق الكشف والإلهام ولا يعتنون كثيرا بالاستدلال، وقد قال شاعرهم:

پای استدلالیان چوبین بود *پای چوبین سخت بی تمکین بود*

أي: قوائم الاستدلال (العقلي المنطقي) مصنوعة من خَشَب، والقوائم الخشبية ضعيفة للغاية!

لذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنَّفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلّة المذكورة، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها

---

(١) اقتبس المؤلف كلامه هنا من كتاب «إحياء علوم الدين»، لأبي حامد الغزالي، كتاب شرح عجائب القلب (وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات)/ بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم. باختصار. (تر)

(٢) أبو حامد الغزالي، «إحياء علوم الدين»، كتاب شرح عجائب القلب/ بيان الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق. (تر)

والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولِّي لقلب عبده والمتكفِّل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولَّى اللهُ أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سرّ الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرّة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة:

وزعموا أن الطريق في ذلك أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى:

جز الف قامتش در دل درويش نيست *خانه تنگ است دل جاى يكى بيش نيست*

أي: ليس في قلب الدرويش (الصوفي) سوى قامته الممتشقة

البيت ضيِّقٌ لا يتسع إلا إلى واحدٍ لا أكثر

فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ثم يصبر عليه إلى أن يمحي أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظباً على الذكر ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقى معنى الكلمة مجرَّداً في قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة الله فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود وقد

يتأخر وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر. كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار فقط[١].

إشكال حول طريقة الكشف والشهود

رغم أن طريقة الكشف والشهود هي طريقة الأنبياء والرسل وأنهم يدركون الحقائق بالمكاشفة والوحي، ورغم دعوى الصوفية أنهم يتبعون في اقتناص الحقائق طريقة الرسل الكرام هذه؛ إلا أنه ينبغي أن نعلم أن هناك فرق واضح بين وحي الرسل وكشف أهل العرفان والتصوّف، وذلك أن النبوّة حظوة ربّانية ومكانة رحمانيّة واختيار سماويٌّ وعطاءٌ سبحانيٌّ، ولا ينال أحد هذا المقام بالكسب والسعي، كما قال تعالى ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام/ ١٢٤] وقال أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى/ ٥٢].

نعم من لوازم السعي والكسب تهيؤ النفس لقبول آثار الوحي بالعبادات المشفوعة بالفكر والمعاملات الخالصة من الشرك والرياء.

إذن النبوة ليست صُدفةً وجُزافاً يمكن لكل حيٍّ أن يصل إلى مقامها، كما أنها لا تُنَال بالطلب والكسب، حتى يصل إلى مقامها كل من فكر وتأمل ومارس الرياضة الروحية!

فكما أن الإنسانية بالنسبة لنوع الإنسان أو الفَرَسية بالنسبة إلى نوع الفرس أو المَلَكية بالنسبة إلى جنس الملائكة ليست كسبية لأصحاب تلك الأنواع بل هي هبة إلهية ونعمة ربانية والعمل بموجباتها نوع من الإعداد والاستعداد لتلقيها ليس أكثر؛ فكذلك ليست النبوة لنوع الأنبياء ولأشخاص ذلك النوع مكتسبة بالمشقة والسعي، وإنما هي هبة إلهية وإفاضة رحمانية كما قال

---

(١) إحياء علوم الدين، كتاب شرح عجائب القلب/ بيان الفرق بين الإلهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق. أما أبيات الشعر فهي من إضافات المصنِّف. (تر)

تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف/ ٦٥]، كل ما في الأمر أن العمل بموجبات النبوة من العبادات ومكارم الأخلاق والعادات واكتساب الخيرات واختيار المثوبات مُعِدٌّ للإفاضة كي يصبح العامل بذلك مهبطاً للوحي والتنزيل كما قال تعالى ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه/ ١-٢] وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية أن الرسول الأكرم كان يعبد الله ويكثر من الصلاة بالليل حتى تورَّمت قدماه، فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية، فقال ﷺ: «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟**» وكان عليه وآله الصلاة والسلام قبل نزول الوحي عليه يتحنّث ويكثر العبادة في غار حراء وحُبِّبَت إليه الخلوة والعزلة.

فالوحي للأنبياء ليس سببه الرياضة الروحية والعزلة والزهد في الدنيا وقطع العلائق بل الأنبياء نوع خاص أوجدهم الله وهيأهم لتلقي الوحي ونزول جبريل، غاية ما في الأمر أن الأعمال الصالحة ممدّة ومعدّة لهم، وعليه فالوحي غير كشف الصوفية، وسنذكر حقيقة الوحي في مبحث النبوة في هذا الكتاب إن شاء الله.

إذن مكاشفة غير الرسل لا تشبه الوحي إطلاقاً لأن الوحي معصوم عن الخطأ أما كشف الصوفية فيمكن أن تتطرّق إليه الأخطاء والأغلاط:

خليليَّ قُطَّاع الفيافي إلى الحمى كثيرٌ، وأما الواصلون قليلُ

وفيما يلي أهم الإشكالات التي تتجه إلى المكاشفة التي يدعيها الصوفية على النحو الذي سبق بيانه:

١- من المُحَال أو المتعذِّر أن يتحقَّق قطع الهمَّة كُلِّيًّا عن الأهل والمال والولد والوطن، فلا يمكن لأي شخص مهما كان ذا إرادة وهمة أن يتجاوز نهائياً كل درجات الحب والبغض والعواطف والميول، أي أن يبتعد عن إنسانيته ويقترب من درجة الملائكية أو يصبح ملكاً حقيقاً، وطالما بقس الإنسان إنساناً فستبقى لديه كل تلك العواطف والميول.

وعلى فرض المحال أنه تمكن من قطع جميع العلائق فإن بقاءه واستمراره دائماً على هذه الحالة أمرٌ في غاية الصعوبة، وقد قال النبي الأكرم ﷺ: «**لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنْ الْقِدْرِ إِذَا**

اجْتَمَعَتْ غَلَيَاناً»[١].

٢- غالباً ما ينحرف مزاج السالك أثناء المجاهدات والرياضات الروحية والخلوات فيعتل جسمه ويُبْتَلَى بفقر الدم وقد ينجر ذلك إلى ضعف عقله وجنونه والعياذ بالله فالخطر في هذا الطريق كبير للغاية.

٣- يقولون يجب التخلُّص من الحب والبغض وقطع العلائق كي يتحقق الشهود، ولاشك أنه لو تمكن شخص من التخلص من كل تقاليد الحب والبغض والعلائق الدنيوية فمن الممكن أن تتجلى الحقائق في قلبه، لكن يجب أن نسأل كيف يمكن التخلص من الحب والبغض أو من تعلّقات القلب الدنيوية؟ إذ مما لا شك فيه أن هذه التعلّقات ليست لباساً يمكن للإنسان أن يخلعه، بل هي أمور معجونة بالنفس الإنسانية ومغروسة في العقل الباطن واللاشعور ومتحدة بالنفس فكيف يمكن للإنسان أن يصل إلى مقام يتخلى فيه تماماً عن كل التعلّقات والآمال والحب والعداوات والأهواء والأمنيات وأمثالها؟

وإذا لم تكن المكاشفة مسبوقة بالبرهان وإذا لم تكن النفس قد تمرّست بالعلوم النظرية وأصبحت ملمّة جيداً بحقائق العلوم، أي إذا كان الشخص عامياً صِرفاً فمن الممكن جداً أن يستولي عليه الخيال الفاسد ويتوقف عند هذا الخيال سنوات طويلة، وهذا مثل حال من لم يقرأ الفقه والرياضيات وكان عامياً خالصاً ثم ذهب يمارس التأمل والرياضات الروحية ظاناً أنه سيصبح بالإلهامات والكشف فقيهاً أو عالماً بالرياضيات! و مثله مثل من لا يسعى للكسب والفلاحة بل يجلس في بيته آملاً أن يصله كنزٌ من الغيب!!

٤- ليس لدى الصوفية أي دليل على صحة الكشف والشهود الذي يدّعونه ويدّعون أنه يطّلعون من خلاله على حقائق الأشياء. ولذلك فإننا نرى أن مكاشفاتهم يناقض بعضها بعضاً، فكل صوفي ذي مذهب معين تأتي مكاشفاته طبقاً لمذهبه الذي يعتقد به، ويعتبر كشف الآخرين

---

(١) مسند أحمد، ٦/ ٤ عن المقداد بن الأسود رفعه. وقال شعيب الأرنؤوط: «حديث حسن». وأخرجه الحاكم في المستدرك أيضاً وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرّجاه. (تر)

باطلاً! وهذا في حد ذاته برهان قوي على عدم حجية الكشف، لأنه لو كان حقاً لوجب أن تتحد المكاشفات وتظهر منها حقيقة واحدة، وبالتالي فلا يمكن أن يكون الكشف طريقاً صحيحاً للاستدلال لإمكانية الاشتباه في مقدماته، ولأنه ينتج اختلافاً في النتائج، كما نلاحظ أن أهل النظر والاستدلال يختلفون مع بعضهم في أكثر الأمور ويقيمون على آرائهم الأدلة والبراهين! لكن المكاشفة شهودٌ، ولا يجوز أن يقع اختلاف في المشاهدة، هذا في حين أن عين الاختلاف الذي نشاهده بين أهل الاستدلال والبرهان، نشاهده على نحو أشدّ بين أهل الكشف والشهود، فنرى أن الصوفي السني الأشعري يرى بالكشف أن أبا بكر وعمر أفضل من علي وأعلى رتبةً، والصوفي الشيعي يرى في الكشف أن علياً أفضل الخلق بعد النبي بل يرى الشيخين بصورة منكرة وسيئة، والصوفي الناصبي يرى علياً في المكاشفة بصورة سيئة، والصوفي النقشبندي يرى في الكشف أن طريقتَه هي أفضل الطرق ومرشدَه هو المرشد الحقّ، في حين يرى الصوفي القادري أو المولوي أو نعمت اللهي أو صاحب كل طريقة ومريد كل شيخ، طريقته وشيخه على الحق ويكفر الآخرين.

وكل يدّعي وصلاً بليلى وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاكا

والحال أنهم جميعاً يدّعون مشاهدة الحقيقة، ولا ينبغي أن يكون هناك اختلاف بين أهل الكشف، ولكن مع الأسف فإننا نشاهد الاختلاف الذي يقع بين أهل الاستدلال الذين يدّعون الإخبار عن الواقع، يقع بعينه أيضاً بل أشد منه بَيْن أهل الكشف والشهود الذين يقولون نحن نرى الواقع.

أضف إلى ذلك أننا عندما نشاهد مكاشفات أهل العرفان نرى أن كثيراً منها يخالف الحقيقة والتجربة، لذلك لا يمكننا أن نطمئن إلى صحة هذه المقدّمات ولا ينبغي أن نسلك هذا الطريق المحفوف بالمخاطر.

والنقطة التي لا ينبغي أن نغفل عنها في هذا الإطار هي أننا لا نريد القول إن كل ما قاله أكابر أهل العرفان ومشايخ أهل اليقين لا حقيقة له، بل لا شك أن في كلماتهم مطالب رفيعة

ومعارف مهمّة تسمو على فهم عامة الناس، ولهم في بيان دقائق الأخلاق ومنازل النفس وبيان درجات السعادة ودركات الشقاوة كلمات في غاية العلوّ، مما لا نظير له عند غيرهم، ونحن لما كنا من تلاميذ مدرسة القرآن فإننا نعترف بالحق حيثما وجدناه، ونزن كل كلام نسمعه بميزان القرآن المتقن، متبعين في ذلك قوله تعالى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر/ ١٧ - ١٨]. **وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ**.

إذا عرفت بطلان الطرق الثلاثة أي طريق السفسطائية وطريق الحِسِّيِّين وطرق أهل الكشف والشهود، نبدأ ببيان طريقة القرآن في اكتناه الأشياء واقتناص الحقائق الموجودة.

❊❊❊

طريقة القرآن في اقتناص حقائق الأشياء

كان القرآن العامل الأهم في رُقِيّ المسلمين والعلَّة الأساسية لتكاملهم، لا من جهة فصاحته وبلاغته وأسلوبه الذي هو في غاية الإعجاز، بل لأن ذلك الكتاب السماوي والدستور الرباني اشتمل بأكمل نحو على أصول العلم والفلسفة وعلى منهج التفكير والتدبُّر الصحيح، ولهذا السبب استطاع بفضل تربيته أن يرتفع بالأمة التي كانت تعيش في أدنى مراتب الانحطاط الفكري والموت الاجتماعي، ليصل بها إلى أوج العلم و الفكر وذروة الأخلاق والحضارة، وكان هذا الرقيُّ سريعاً ومدهشاً إلى درجة يمكن اعتباره أحد معجزات التاريخ، وهي معجزة ناتجة عن تلك النعمة الإلهية التي أكرم الله بها أمة العرب عندما قام إسرافيل ونفخ فيها روح الحياة فأحياها من موت الجهل والأخلاق الذميمة وهو يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ [الأنفال/ ٢٤].

لقد دعا القرآن البشر إلى التفكُّر فقال ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ...﴾ [سبأ/ ٤٦]، وقال: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف/ ١٧٦]، وقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس/ ٢٤].

ولقد أوضح القرآن الكريم قواعد التفكير السليم وأصوله وعلَّم الناس النهج الصحيح للتفكير، فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان/ ٣]. وأوَّل مبدأ دعا القرآنُ الإنسانَ إليه هو: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء/ ٨٥]. فهذا المبدأ يُوَعِّي الإنسان إلى جهله ونقصه. ومعلومٌ أنَّ أوَّل درجة في الفلسفة هي أن يعلم الإنسان أنه لا يعلم، فإذا اطَّلع على

جهله سعى نحو البحث والمعرفة، كما أن المريض لا يذهب إلى الطبيب إلا إذا أدرك مرضه وعرف حاجته للعلاج، بهذا يندفع إلى المعالجة فيُوَفَّق لنيل الشفاء.

فإذا عرف الإنسان نقصه، جاءته الدعوة القرآنية التالية تقول له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه/ ١١٤]. استناداً إلى هذا الأصل، يجب على كل مسلم أن يطلب العلم ويتجه إلى كعبة الكمال. فإذا احتار المسلم أيَّ علم يحصِّل وبأيِّ أسلوب يدخل إلى مدرسة العلم؟ خاصَّة أنه يرى أن كثيراً من العلوم لا تعدو الظنون والأوهام و الخيالات والخرافات؟! أتاه الأصل القرآني الثالث ليقول له: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ؟﴾ [يونس/ ٣٢] فيتعلَّم أن الغرض من العلم والغاية المطلوبة من المعرفة هي الوصول للحق والحقيقة.

لكن ليس الحق هو ما ذهب إليه عامة الناس وما صنعوه لأنفسهم من أوهام وظنون، لذا يأتيه القرآن بالأصل الرابع الذي ينهاه عن الاعتماد على الظن والتخمين ويذم اتباعها فيقول له: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس/ ٣٦] ويقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس/ ٦٦] وأمثال هاتين الآيتين.

فإذا حرَّم القرآنُ على المسلم اتِّباع الظن والوهم، بيَّن له في الأصل الخامس طريق الحق فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء/ ٣٦] فأمره أن لا يتبع ما لا علم له به.

وبعد أن دعاه إلى العلم اليقيني، دعاه إلى الأصل السادس للعلم وهو مطالعة الكون والتفكُّر في المخلوقات فقال له: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ [يونس/ ١٠١] وقال له: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران/ ١٩٠- ١٩١].

بهذا الأصل عرف المسلم أن الكون وعالم الوجود مستَقَرُّ العلم ومستودَعُ الحكمة، فتوجَّه إلى

الكون فَهَالَهُ ما رآه من عظمته فقال: أين أنا من إدراك عظمة هذا الكون؟ وكيف لضعيفٍ وضئيل الشأن مثلي أن يصل إلى هذا الكون غير المحدود المليء بالأسرار والنواميس والعلل والغايات؟ فجاءه الأصل القرآني السابع ليزيل عن الإنسان هذه الرهبة ويخبره أنه قادر على الإحاطة بالكون ويقول له: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/ ٢٩] وقال له أيضاً ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم/ ٣٢ - ٣٤].

فبهذا الأصل القرآني أعلن الله لعالم الإنسانية قائلاً: إنّي قد سَخَّرْتُ لك الكونَ أيها الإنسان! ورفعتُ منزلتَكَ فوق الفرقدين. فإذا احتار الإنسانُ وتساءل: بأيِّ وسيلة يمكنني أن أسيطر على الكون؟ وكيف لي أن أصل إلى طريق أسرار الوجود؟ جاءه الأصل القرآني الثامن ليقرِّر له: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت/ ٦٩]. بهذا الأصل عرف المسلم أن عليه أن يجاهد أي يسعى ويبذل غاية جهده وفكره وأنه بهذا يستطيع الوقوف على أسرار الكون.

وخلاصة الكلام إن طريقة القرآن إلى العلم والمعرفة هي طريقة التفكير والاستدلال وإن مرشد الإنسان هو العقل بشرط تسلّحه بسلاح البرهان، وإن الذي يمنع الإنسان من التعقُّل والتفكير ويحول بينه وبين الوصول إلى كعبة الحقيقة هو الحُجُب، وكل الاختلافات الموجودة في الدنيا بين عقلاء العالم في المسائل النظرية سببها عدم قيام الناس بإزالة الحجب والموانع من طريق التعقُّل، والقرآن إضافة إلى بيانه طريقة الاستدلال، بيَّن لنا موانع التفكير بشكل كامل، ونذكر فيما يلي موانع التعقُّل كما بيَّنها لنا القرآن الكريم:

أول مانع من موانع التعقُّل هو التقليد

قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف/ ٢٣] وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة/ ١٧٠].

ذمَّ القرآن الكريم في هاتين الآيتين الذين يُقلِّدون آباءهم تقليداً أعمى.

والتحقيق في هذا الأمر أن التقليد اقتباس الأبناء أخلاقَ وعقائدَ الآباء والأسلاف. يقول علماء الاجتماع إن أحد امتيازات الإنسان على سائر الحيوانات هي اختصاصه باقتباس التقاليد أي نقل التقاليد من جيل إلى جيل، وكلَّما طال زمن التقاليد ازداد ثبوتها ورسوخها وصَعُبَ التخلّي عنها؛ فالإنسان إذا عمل عملاً بشكل متكرّر واعتبره عملاً حسناً رغبَ أن يقوم الآخرون به أيضاً، خاصةً عندما يكون هذا الآخر محبوباً له، كإبنه مثلاً، فإنه يحثّه على الاقتداء به؛ من هنا يقوم الآباء والأسلاف بتوريث أبنائهم وأسلافهم جميعَ عقائدهم وعاداتهم، وعندما تنتقل العادات والعقائد من الآباء إلى الأبناء ومن السلف إلى الخلف فإنها تثبت فيهم بأجمعها. وخلاصة الكلام إن العادات والتقاليد مثلها مثل طريقٍ كلَّما سِرْتَ فيه أكثر، صار مهيأً للسير عليه أكثر، وازدادت صعوبة الانصراف عنه، ولذلك نجد أن انصراف الناس عن التقاليد والعادات أمرٌ عسيرٌ في حياة البشر في كلِّ زمان ومكان.

لذلك كانت العادات والتقاليد مقدَّسة دائماً في المجتمعات البشرية واعتقدَ الناسُ أن مخالفة العادات والتقاليد تؤدِّي إلى الضرر والشقاء. وسبب ذلك الاعتقاد واضح وهو أن الأعمال والعقائد التي تنتقل من جيل إلى جيل ويرثها الجيل اللاحق عمن سبقه، حتى لو كان فيها ضرر فإن العادات تتدارك هذا الضرر، أما الأعمال والعقائد الجديدة المخالفة للتقاليد الموروثة فإنها لا تجد الفرصة لتجريبها وامتحانها وبالتالي يخاف الناس من ترك عاداتهم السابقة التي يعرفونها إلى التمسُّك بشيء لا يعرفون خيره من شرِّه. أضف إلى ذلك أن ترك العادة مؤلمٌ، والإنسان يفرّ بطبعه من الألم، لذا فإنه يجتنب مخالفة التقاليد، ثم يأخذ هذا التخوُّف صفة القداسة لدى الناس ويتوهَّمون أن هناك قوَّةً غيبيَّةً ستعاقبهم إذا خالفوا التقاليد الموروثة، وأنهم إذا لم يُعاقَبُوا على ذلك في هذه الحياة الدنيا فسيُعذَّبون لا محالة في الآخرة.

العوامل التي تساعد على التقليد

أولاً إن شيخوخة الشخص كبير السن تجعله متعصباً للتقاليد والعادات التي أمضى حياته عليها، فلا يمكن نزع تلك العادات منه. وسبب ذلك أمران:

١ - الأمر الأول يتعلق بوظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) الخاصة بالجهاز العصبي، حيث أن دماغ الرجل المسن يتصلَّب و يصبح غير قابل للتغيير، خلافاً لدماغ الشاب الذي يمكن التأثير عليه بسبب ليونة الأعصاب.

٢-الأمر الثاني عقلي، هو أنه لما كان للإنسان عادات وتقاليد قد عاش عليها مدة مديدة، وارتكزت آراءه و أعماله عليها طيلة حياته، فإنه لن يقبل مناقشتها، خاصَّةً أنه قد كَوَّنَ لنفسه خلال تلك المدة أدلَّةً للدفاع عن عقائده حتى ولو كانت أدلة ضعيفة، ومع مرور الزمن وبواسطة رسوخ العادات، تقوى لديه الأدلة التي كوَّنها على صحة عقائده، وبالتالي فمهما واجه من أدلة يقينية فإنه لن ينصاع لها.

العامل الثاني الذي يساعد على الجمود على التقاليد هو العزلة المكانية. فالجماعة التي تسكن في مكان محدد من الأرض و لا تختلط بغيرها من الأقوام، تبقى على عاداتها، ونادراً ما يتَّفق أن تُفكر في تغيير فكرها و طريقتها؛ لذا فإن المدن والبلدات التي تقع بعيداً عن العمران أو التي لا تقع في وسط الحركة العمرانية، تتعصَّب عادةً لتقاليدها القديمة و تتمسَّك بها بقوَّة.

العامل الثالث هو التكلُّم بلغات مختلفة، فاختلاف اللغات أحد العوامل التي تحول دون تغيير العادات والتقاليد إذ لا يوجد بين الأقوام المختلفين لغة مشتركة حتى يحصل بينها التفاهم والتأثير والتأثُّر، وبالتالي يبقى كل قوم على تقاليدهم.

معالجة القرآن لمرض التقليد

لما كان العلاج الحتمي للتقاليد هو العلم والمعرفة وكان الشخص الأمي و غير المتعلم يقتصر دائماً على سماع الأساطير و القصص والخرافات من الشيوخ وكبار السن، الذين يقومون بنقل ما سمعوه من آبائهم إلى الأبناء؛ كانت الأمية والجهل رفيقان للتقاليد ومؤيدان للخرافات، وعلى

العكس من ذلك فإن العلم والمعرفة عدوَّان للتقاليد وغذاءان للروح والبصيرة، فكما أن الجسم ينمو بالأغذية المادية ويقوى بها، كذلك الروح تَقْوَى بالنظريات العلمية، والعقل يقوى بالمعلومات ويصل إلى كماله اللائق به، فالشخص العالم يُكَسِّر بفضل علمه قيود الخرافات وأغلالها ويرمي عن كاهله حمل التقاليد فلا تحركه كل ريح، ولا يتْبَعُ كلَّ ناعق.

ومن هنا حرَّم مستعبدو البشر من الكهنة وأرباب الكنيسة العلمَ على الناس وحكموا بنجاسته، كما يقول «لاروس» في دائرة المعارف إن رجال الكنيسة كانوا يقولون إن الشجرة الملعونة التي حرَّم الله ثمرتها على بني آدم هي **العلم**، وقد سرت هذه العقيدة الضارة والقول الفاسد إلى عالم الإسلام من قبل بعض المتصوفة الذين قالوا: «**العلم حجاب الله الأكبر!**»[1]. والعجب أن نجد العارف القيُّوميّ والمحقِّق الروميّ، رغم ما كان يتمتَّع به من شرح الصدر و الأقوال الرائعة الفريدة، يذهب إلى هذا الأمر في شعره فيقول (بالفارسية):

زيركي بفروش وحيراني بخر — زيركي ظن است وحيراني نظر

زيركي آمد سباحت در بحار — كم رهد غرق است او در پايان كار

زيركي چون باد كبرانگيز تواست — ابلهي شو تا بماند دين درست

ومعناه:

دعِ الحذاقة واشترِ الحيرة — الحذاقة ظنٌّ و الحيرة بصر

الحذاقة سباحةٌ في البحار — وقلَّ من ينجو من الغرق في آخر النهار

الحذاقة طالما كانت سبباً لكِبْرِك — صِر إلى البلاهة ليسلم دينُك

و يقول كذلك:

دفتر صوفي سواد وحرف نيست — جز دل اسفيد همچون برف نيست

---

(١) أعتقد والله أعلم أن مقصود بعض الصوفية من هذه العبارة: العلم الذي يؤدي بصاحبه إلى الغرور والتكبُّر، كما يشهد لذلك البيت الثالث من أبيات جلال الدين الرومي التي استشهد بها المصنف. (تر)

ومعناه:

دفتر الصوفي سوادٌ ليس فيه حرف ليس سوى قلبٍ أبيضٍ كالثلج

ولا شك أن خطأ الكِبار كبيرٌ جداً مثلهم، من هنا يقول ابن فهد الحليّ إن ما نشاهده من وقوع العلماء الكبار في أخطاءٍ جسيمةٍ إنما هو لأجل أن نعلم أن البشر بحاجة إلى المعصوم الذي لا يخطئ، وإلا فإن المولى الرومي فخار عالم العِلْم والعرفان، لكن لا شك أنه لم يكن معصوماً و لم يقل أحد بعصمته.

وكذلك قام المتفقِّهة الجامدون وعديمو الاطلاع بمنع الناس من مطالعة العلوم النظرية و الفلسفية والطبيعية، و حرَّموا سائر العلوم سوى علم الفقه والخلاف وتعلُّم بعض الأحاديث والروايات، فاعتبروا بقية العلوم بدعة حتى وصل الأمر إلى أن أصبح المسلمون جاهلون بالعلوم الكونية و متخلِّفون عن ركب الحضارة والرقيّ حتى أُلحقوا بالأقوام الهمجية، **نعوذ بالله من الضلال و من حُمْق الأراذل والجُهَّال.**

ولما كان القرآن الكريم قد نزل على الرسول الأكرم ﷺ لأجل شفاء الأمراض الأخلاقية والاجتماعية كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ [الإسراء/ ٨٢]؛ فإنه دعا الخلائق إلى العلم وأنزل آيات عديدة في فضل العلم:

١ - يقول الله تعالى: ﴿ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ [فاطر/ ٢٨]. ويقول في موضع آخر: ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ إلى أن يصل إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة/ ٨]. ويقول في موضع آخر: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن/ ٤٦]. فالآية الأولى تبيِّن لنا بأداة الحصر «إنما» أن العلماء فقط هم الذين يخشون اللهَ حقَّ الخشية، والآية الثانية والثالثة تبيِّنان أن الذين يخشون ربهم هم فقط الذين سيدخلون الجنة فالنتيجة هي أن العلماء فقط هم المستحقون لِلْجَنَّة.

وقد وردت حول هذا المضمون بعض الأخبار كما ورد عن النبي الخاتم ﷺ قوله: «**يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: وعزَّتي وجلالي لا أجمعُ على عبدي خوفين و لا أجمعُ له أمنين؛ إذا أمنني في الدنيا**

أخفتُهُ يوم القيامة، و إذا خافني في الدنيا آمَنْتُهُ يوم القيامة»[1].

٢- قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق/ ١-٥]. هذه الآيات أول ما نزل على الرسول الأكرم ﷺ، وفيها لطيفة شريفة هي أن الإنسان وُصف بأنه كان في بداية خلقه في أدنى حالة إذْ خُلِقَ مِنْ عَلَق، ولكنه بفضل العلم والتعلم ارتقى إلى مقام ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ مما يبين أن هذه الحالة هي أشرف ما في الدنيا.

٣- لا ريب أن فَضْلَ الله تعالى على سيد الأنبياء فضلٌ كبيرٌ وعظيمٌ، لكنَّ الله لم يعظِّم أي فضل بمقدار تعظيمه لفضيلة العلم فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء/ ١١٣]. وقال أيضاً في تعظيم فضيلة الأخلاق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم/ ٤]؛ مما يبيِّن أن لا صفة أكمل من هاتين الصفتين: **العلم ثم الأخلاق**.

٤- اعتبر الله تعالى الدنيا شيئاً ضئيلاً فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء/ ٧٧]، ومن المعلوم أن نصيب أي إنسان من هذه الدنيا الضئيلة بحد ذاتها سيكون ضئيلاً أيضاً، لكنه وصف العلم والحكمة بالكثرة فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة/ ٢٦٩].

٥- وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر/ ٩]. وقال أيضاً: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ﴾ [الأنعام/ ٥٠]. فكما أنه لا يوجد أي تناسب بين الخبيث و الطيب و بين الأعمى والبصير وبين الظلمات والنور وبين الظل والحرور فكذلك لا توجد أي نسبة بين

---

(١) الشيخ الصدوق، «الخصال»، ج١/ ص٧٩، والشيخ الطوسي، «الأمالي»، ص ٥٣٠، و المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٦٧ / ص ٣٧٩. ومن طرق أهل السنة روى نحوه أبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس، وقال العراقي في تخريج أحادث الأحياء «أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلاً.». وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة»، (٦/ ٣٥٥): رواه ابن المبارك في «الزهد» قال: حدثنا عوف عن الحسن مرسلاً. قلت: و هذا سند صحيح لولا الإرسال. انتهى. (تر)

العالم والجاهل.

٦- وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة/ ١١].

الأخبار الواردة في فضيلة العلم

١- قال الرسول الأكرم ﷺ: «**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ سَبْعِينَ [سَبْعُونَ] دَرَجَةً بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ حُضْرُ الْفَرَسِ سَبْعِينَ عَاماً وَذَلِكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَدَعُ الْبِدْعَةَ لِلنَّاسِ فَيُبْصِرُهَا الْعَالِمُ فَيَنْهَى عَنْهَا، وَالْعَابِدُ مُقْبِلٌ عَلَى عِبَادَتِه لَا يَتَوَجَّهُ لَهَا وَلَا يَعْرِفُهَا**»[(١)].

٢- قال الرسول الأكرم ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى عُتَقَاءِ الله مِنَ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى الْمُتَعَلِّمِينَ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ مُتَعَلِّمٍ يَخْتَلِفُ إِلَى بَابِ الْعَالِمِ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ قَدَمٍ عِبَادَةَ سَنَةٍ وَبَنَى اللهُ بِكُلِّ قَدَمٍ مَدِينَةً فِي الجَنَّةِ وَيَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَهِيَ تَسْتَغْفِرُ لَهُ وَيُمْسِي وَيُصْبِحُ مَغْفُوراً لَهُ وَشَهِدَتِ الْمَلَائِكَةُ أَنَّهُمْ عُتَقَاءُ الله مِنَ النَّارِ**»[(٢)].

٣- لما أرسل النبيُّ الأكرم علياً (ع) إلى اليمن قال له: «**يَا عَلِيُّ لَا تُقَاتِلَنَّ أَحَداً حَتَّى تَدْعُوَهُ وَ أَيْمُ الله لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ عَلَى يَدَيْكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَ غَرَبَت**»[(٣)].

٤- وقال الرسول الأكرم ﷺ: «**من طلب العلم ليحدِّثَ به الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً**»[(٤)].

---

(١) المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج٢ / ص ٢٤، بلا سند. ومن طريق أهل السنة رواه الديلمي في مسند الفردوس (٢/ ٣٢٨)، وذكره الألباني في «السلسلة الضعيفة والموضوعة» (٩/ ١١) وقال: ضعيف جداً.

(٢) المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج١ / ص ١٨٤، دون سند. ومن طريق أهل السنة ذكره العجلوني في كشف الخفاء، وقال: «قال ابن حجر نقلاً عن السيوطي **كذبٌ موضوعٌ**». (تر)

(٣) الكُلَيْنيّ، «الكافي»، ج ٥ / ص ٢٨. ومن طرق أهل السنة رواه الطبراني في معجمه الكبير، (١/ ٩١/ ١) و الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٩٨)، وذكره الألباني في «السلسلة الضعيفة والموضوعة» (٦/ ٥٠٩) وقال: ضعيف. (تر)

(٤) **لم أجده بهذا اللفظ لا في كتب الشيعة ولا في كتب السنة!** وقد روى نحوه الفتال - من الإمامية - في روضة الواعظين (ج١/ ص١٢) مرسلاً عن النبيِّ دون سند ولفظه: «**من تعلَّم بابا من العلم ليعلِّمَهُ الناس ابتغاء**

٥- وقال الرسول الأكرم ﷺ: «**يُوزَنُ يوم القيامة مِدَادُ الْعُلَمَاءِ ودِمَاءُ الشُّهَدَاءِ فَيَرْجَحُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دِمَاءِ الشُّهَدَاء**»[١].

٦- وقال الرسول الأكرم ﷺ: «**يقول اللهُ للعلماء إني لم أضع علمي فيكم وأنا أريد عذابكم ادخلوا الجنة فقد غفرت لكم**»[٢].

فإذا ثبتت فضيلة العلم بالآيات والأخبار نقول: إن الله تعالى لم يجعل للعلم نهايةً ولا حدَّاً ولا قيداً وقد ورد عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «**من قال إن للعلم غايةً فقد بخسه حقَّه و وضعه في غير منزلته التي وضعه الله حيث يقول** ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء/ ٨٥]»[٣].

يصرِّح الإسلام على لسان الحكيم العليم في القرآن القويم أن حكمة الخالق التي أنزلها على صفوة الأنبياء لا يمكن أن يفهمها إلا الذين تنوَّروا بنور العلم فيقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٣].

وينذر القرآن الذين يتكاسلون عن طلب العلم و يعرضون عن تحصيله بسوء المنقلب و الطبع على قلوبهم وأن ذلك عاقبته سوء العذاب فيقول: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ

وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً»، و رواه بهذا اللفظ أيضاً عليُّ بن الحسن الطبرسي في كتابه «مشكاة الأنوار» (ص ١٣٦) مرسلاً دون سند. (تر)

(١) روى نحوه الشيخ الصدوق ابن بابويه القمي في «من لا يحضره الفقيه»، ج ٤/ ص ٣٩٨، والشيخ الطوسي في الأمالي، ص ٥٢١. ومن طرق أهل السنة رواه السيوطي في الجامع الصغير وقال: (الشيرازي) عن أنس. (المرهبي) عن عمران بن حصين. (ابن عبد البر في العلم) عن أبي الدرداء. (ابن الجوزي في العلل) عن النعمان بن بشير. وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير و زيادته برقم (٦٤٤٧) وقال: **موضوعٌ**. (تر)

(٢) روى نحوه (بلفظ مشابه) الطبراني في المعجم الكبير من حديث أبي موسى، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: «رواه الطبراني من حديث أبي موسى بسند ضعيف». وذكره الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة و الموضوعة» (٢ / ٢٥٩) وقال: **ضعيف جداً**. (تر)

(٣) لا أصل له لا في كتب حديث الشيعة ولا في كتب أهل السنة! (تر)

كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الروم/ ٥٨-٥٩].

بمثل هذه الآيات فتح الله أبواب العلم الحقيقي أمام عقول البشر. و جعل العلم أعظم ما يمكن أن يُعْبَدَ به خالق العالم، وقد ورد عن النبي الأكرم ﷺ قوله: «**أفضل العبادة طلب العلم**»[١] وقوله: «**نظر الرجل في العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة**»[٢].

ولم يحصر الإسلام العلم في مدينة دون أخرى بل قال الرسول الأكرم ﷺ: «**اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّين**»[٣]، وقال أيضاً: «**الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ يَأْخُذُهَا أَنَّى وَجَدَها**»[٤].

ولا ينبغي للمتعلِّم أن يترك التعلم لمجرد كون معلمه مخالفاً له في العقيدة بل قال الرسول الأكرم ﷺ: «**خُذِ الْحِكْمَةَ وَلا يضُرُّكَ مِنْ أيِّ وعاءٍ كانت**»[٥].

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة، انظر كنز العمال، ح (٢٨٨٢١). و لم أجده بهذا اللفظ في أي مصدر شيعي للحديث، والوارد في كتاب «بحار الأنوار» للمجلسي: «**وَطَلَبُ الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنَ الْعِبَادَةِ** قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ**﴾». (تر)

(٢) لم أجد له أصلاً بهذا اللفظ لا في كتب الشيعة ولا في مصادر أهل السنة، وأقرب ما يوجد إليه هو ما رواه ابن حبان في كتاب «العظمة» عن أبي هريرة ولفظه: «**تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة**» وحكم عليه الحافظ العراقي – في تخريج أحاديث الإحياء – بالضعف. (تر)

(٣) رواه الحرّ العاملي في «وسائل الشيعة»، ج ٢٧/ ص ٢٧، نقلاً عن مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْقَتَّالُ فِي رَوْضَةِ الْوَاعِظِينَ. وفي مصادر أهل السنة رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٥٣، حديث ١٦٦٣) وقال: هذا الحديث شبه مشهور **و إسناده ضعيف و قد روي من أوجه كلها ضعيفة**.(تر)

(٤) الكُلَيْنِيّ، «الكافي»، ج ٨/ ص ١٦٧، و المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٢/ ص ١٠٥. ومن طرق أهل السنة روى نحوه الترمذي وابن ماجه في سننهما عن أبي هريرة: «**الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا**». قَالَ الترمذي بعد روايته: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ الْفَضْلِ الْمَدَنِيُّ الْمَخْزُومِيُّ يُضَعَّفُ فِي الْحَدِيثِ مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ. (تر)

(٥) لم أجده بهذا اللفظ، والموجود في «بحار الأنوار» للمجلسيُّ، ج ٢/ ص ٩٩: «**خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَتَخَلَّجُ فِي صَدْرِهِ حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ**».

وأنذر القرآن الذين لا يتدبّرون في الكون وفي آثار قدرة الحق إنذاراً شديداً فقال: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء/ ٧٢].

هركه امروز نه بيند اثر قدرت اواست غالب آنست كه فرداش نباشد ديدار

ومعناه:

كل من لم يرَ أثر قدرته اليوم في الغالب لن يحظى بلقائه في الغد

علاج مرض التقليد يكمن في السير في الأرض

كما قلنا سابقاً إن أحد أسباب الجمود على التقاليد القديمة البقاء في مكان واحد وعدم معاشرة الأقوام الآخرين والأمم الأخرى، لذا بين القرآن علاج التقليد بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا ﴾ [آل عمران/ ٩٧]. فالحج، إضافة إلى إصلاحه للنفس وكونه عبادة لِلَّهِ تعالى وإضافةً إلى فوائده المعنوية التي لا تُحصى، يعطي الفرصة للمسلم كي يحتك بالأمم الأخرى فيطلع على آراء الآخرين وعقائدهم وعلى صنائعهم وعلومهم، كما يطلع على عاداتهم وتقاليدهم وخرافاتهم، ويرى رقي الأمم الأخرى أو تخلفها وانحطاطها، وإذ تأملنا بدقة أدركنا أن هذه المشاهدات كلها بمثابة مدرسة للإنسان؛ ولما كان الإنسان قد جُبِلَ بفطرته على الحق و الخير و كان بشكل عام يسعى نحو الحقائق و جلب الخير لنفسه ودفع الشر عنها دائماً، فمن المؤكد أنه سيكسب من هذا السفر منافع جمَّة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الجانب من فوائد الحج فقال: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج/ ٢٧- ٢٨].

٢- أمر القرآن بمطلق السير في الأرض فقال: ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران/ ١٣٧]. أي حقاً لقد مضت قبلكم حوادث جليلة في العالم و الأمم حيث أهلك الله تعالى الأمم التي عصت أمر ربها وكذبت رسله، فانظروا

كيف أهلك الله قوم عاد وقوم ثمود وقوم لوط وأمثالهم، فاعتبروا بمصير المكذبين. وقال أيضاً: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام/ ١١].

ففي هاتين الآيتين يصرح الحق تعالى بضرورة السير في الأرض وأن يخرج الإنسان من محيطه الضيق و يتأمَّل حال الأمم السالفة و الوقائع التي حلت بالماضين، وكيف كانت عاقبة من كذبوا الرسل و بقوا على خرافاتهم و تقاليدهم الباطلة، فحاق بهم الهلاك وبئس المصير.

المانع الثاني من موانع التفكير: طاعة السادة والكبراء واتباع الأحبار والرهبان

قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة/ ٣١]، وقال كذلك: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب/ ٦٧].

إن أسوأ وسيلة استخدمها من سعوا إلى إذلال البشر ليتمكنوا من السيطرة والسيادة عليهم ومن راموا حرمان البشر من حقوقهم الطبيعية وسلبهم خصائصهم الفطرية وكمالاتهم الإنسانية ليجعلوا هذه الحقوق والخصائص تحت تصرفهم يوجهونها حيثما شاؤوا ويشكلونها كيفما أرادوا بما يوافق هواهم وكبرياءهم، هي وسيلة: «**اعتقد وأنت أعمى**» أي حمل الناس على الاعتقاد الأعمى والاتباع دون تفكير، بحيث أنه بمجرد أن تنقدح في ذهن الناس بارقة التفكير وكلمة لماذا؟ والسؤال عن سبب هذا الشيء أو لماذا ينبغي أن تكون هذه المسألة على هذا النحو أو ذاك النحو؟ يُرموا بالكفر والخروج عن الدين ويصبحون طعمة للنيران! لقد كان أولئك العابدين لأهوائهم، والجبابرة والمفسدين في الأرض ومهلكي الحرث والنسل رجال الدين من الكهنة والأحبار والرهبان.

لقد ادعى أولئك الذئاب المضلين للبشر لأنفسهم حق الولاية والقوامة على نوع البشر- حتى أنهم كانوا يأخذون أطفال الناس ويربونهم على أوهامهم وآرائهم ويزرعون في أذهانهم أن السعادة والشقاء الأبديين موكولان إلى إرادتهم ومرتبطان بمشيئتهم حتى ادَّعَوْا أنهم شفعاء الخلق عند الله، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون/ ٧١].

هكذا حقنوا أذهان الناس وربوهم على فكرة أن ليس لديكم روح ولا وجدان مستقل إلا أن تطيعوا أحباركم طاعة عمياء وأن تتعلموا الدين منا تعبُّداً بلا دليل. وقد نفذت هذه السنة السيئة في أعماق نفوس العامة حتى أصبحوا يقلِّدون كبارهم وأحبارهم تقليداً أعمى ويطيعونهم في كلِّ شيء دون أن يكون لهم من أنفسهم أي رأي أو تفكير. فتقولب الناس وتشكَّلوا طبقاً للقالب الذي صبَّهم فيه قطاع طريق الإنسانية أولئك، وانغمس الناس في عبادة الكهنة والدجالين حتى أنه كلَّما ناداهم وجدانهم ودعاهم إلى البحث في أمر من الأمور والتحقيق في عقيدة من العقائد، هتف بهم هاتف التقليد يقول: أيها المتفكر! لا حق لك في التفكير لأنك لا تملك القدرة على التمييز بين الحق والباطل فليس أمامك سوى الطاعة بلا دليل.

ولهذا فإن حرية النفس وما يبتني عليها إنما تنشأ من حرية المدارك التي تربِّي الملكات الفاضلة. ونحن نرى اليوم أن علماء السوء لا زالوا يمارسون تلك الدعوة القديمة على نحو شديد ويقولون للناس إن الدين تعبُّدٌ محضٌ ولابدَّ فيه من التقليد الأعمى! ومن ذلك زرع جهلة المتصوفة في نفوس مريديهم أن المريد يجب أن يكون بين يدي شيخه «**كالميت بين يدي الغسال**»، وأن «**مقام المريد عدم الإرادة**» وأن المريد إذا لم يفقد الإرادة ولم يستحضر المرشد في الذكر والعبادة ويطيع شيخه طاعة عمياء لن يصل إلى الكمال.

لقد سلبت هذه التعاليم القبيحة من الإنسان حرية نفسه وأخضعت البشر لكل دجال، وحالت بين العقل والتفكير والبحث عن الحقائق والتحقيق فيها.

القرآن وحريَّة النفس

في ذلك الوقت الذي كانت البشرية قد فقدت فيه حريَّة النفس وخضعت لكل دجَّال، نزل القرآن فأعطى للبشر حريَّة النفس، وحرَّر الإنسان من العبودية لما سوى الله تعالى، وأرسى أساس المساواة بين بني البشر فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات/ ١٣].

وقال الرسول الأكرم ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ أَذْهَبَ بِالْإِسْلَامِ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ**

وَتَفَاخُرَهَا بِآبَائِهَا أَلَا إِنَّ النَّاسَ مِنْ آدَمَ وَآدَمَ مِنْ تُرَابٍ وَأَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ»[١].

وبهذا الأصل المهم أزال الإسلام كل امتياز يتفاخر به الناس على بعضهم البعض، مثل التميُّز بالمال أو الجاه أو بالآباء والأجداد، وحصر التميُّز في شيئين اثنين فقط هما:

١ - **العلم**، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ [الزمر/ ٩]. وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة/ ١١].

٢ - **التقوى**، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣]. وقرَّر تعالى أن التقوى ليست من الأمور التي يمكن الحكم بشأنها بمجرَّد النظر في أفعال المرء من طاعات وصنوف العبادات، فلربما تصبح جميع أعمال العابد هباءً منثوراً بسبب عقيدة سخيفة رسخت لدى ذلك الشخص. يقول الربُّ سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ...﴾ [الحجرات/ ١١].

وقرَّر الإسلام أن قبول العمل الصالح من خصائص الربوبية فلا حقَّ لأحد أن يحكم على عمل أحد بالقبول أو الرد، بل يجب على كل مسلم حتى لو كان في قمَّة التقوى والصلاح أن يوكل قبول الأعمال أو ردها إلى الله وحده، وفي هذا يقول الرسول الأكرم ﷺ: «**ويلٌ للمتألِّين من أمتي الذين يقولون: هذا للجنة، وهذا للنار**»[٢].

و لم يميِّز الإسلام طائفة من الناس أيا كانوا عن الآخرين بحكم من الأحكام، بل قرر أن جميع الناس متساوون أمام القانون، وفتح باب الرحمة أمام كل من أراد أن يلِجَهُ دون حاجة إلى

---

(١) الشيخ الصدوق، «من لا يحضره الفقيه»، ج ٤/ ص ٣٦٣، ضمن وصايا النبي (ص) لعليٍّ (ع). ومن طرق أهل السنة أخرج نحوه ابن هشام في سيرته النبوية (٢/ ٤١١) والواقدي في المغازي (٢/ ٨٣٦) ضمن خطبة النبي (ص) في قريش يوم فتح مكة، وروى نحوه الترمذي في سننه (٣٢٧٠) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٦١). (تر)

(٢) رواه بلفظ قريب السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه إلى البخاري في تاريخه عن جعفر العبدي مرسلاً، وقال الشيخ الألباني: (ضعيف)، انظر حديث رقم (٦١٤٣) في ضعيف الجامع الصغير. (تر)

مرشد سوى كتاب الله تعالى وسنة الرسول الأكرم ﷺ، ولم يكتفِ بذلك بل حذَّر من طاعة الأشخاص الذين يدَّعون لأنفسهم دعاوي خاصة بهم، كما ورد عن الرسول الأكرم ﷺ قوله:«**من قال أنا عالم فهو جاهل**»[١]، وقوله أيضاً: «**أخوف ما أخاف على أمتي رجل يتأوَّل القرآن يضعه في غير مواضعه ورجلٌ يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره**»[٢].

وأكَّد الإسلام على أن نجاة كل فرد يوم القيامة منوطة بعمله الصالح فقط، فقال سبحانه: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النجم/ ٣٩- ٤٠]. فالانتساب إلى شخص عظيم ليس له أي تأثير على الإطلاق في تأمين سعادة الإنسان، كما رُوِيَ أنه قيل لعلي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «يَا ابْنَ رَسُولِ الله! مَا هَذَا الْجَزَعُ وَالْفَزَعُ..وأَبُوكَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ وَأُمُّكَ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ وَجَدُّكَ رَسُولُ الله ﷺ؟ فَالْتَفَتَ وَقَالَ: هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ.. خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَأَحْسَنَ وَلَوْ كَانَ عَبْداً حَبَشِيّاً، وَخَلَقَ النَّارَ لِمَنْ عَصَاهُ وَلَوْ كَانَ وَلَداً قُرَشِيّاً، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ [المؤمنون/ ١٠١]؟؟. وَالله لَا يَنْفَعُكَ غَداً إِلَّا تَقْدِمَةٌ [أي هديّة] تُقَدِّمُهَا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ»[٣]. وقال الرسول الأكرم ﷺ: «**يَا عبَّاسُ ويَا صَفِيَّةُ عَمَّي النبيِّ وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ محمد! إِنِّي لَستُ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ الله شَيْئاً اشْتَرِيَا إن لي عَمَلي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ**»[٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط ج ٧/ ص ٥٩ حديث رقم: ٦٨٤٦. (تر)

(٢) الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» **بلفظ قريب** عن عمر بن الخطاب (رض) رفعه (ح ٨٨٨). قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط بسنده وفيه إسماعيل بن قيس الأنصاري وهو **متروك الحديث**. قلت وهو في المعجم الأوسط: ج٢/ ص٢٤٢، ح١٨٦٥. (تر)

(٣) المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٤٦/ ص ٨٢. (تر)

(٤) لم أجده بهذا اللفظ والسياق في أي مصدر حديثي لا سني ولا شيعي، وأقرب ما إليه في مصادر حديث الشيعة ما رواه «الحسن بن أبي الحسن الديلمي» في كتابه «إرشاد القلوب» (ج١/ ص٣٢-٣٣) دون سند، وفيه: «**لما أنزل الله عليه وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ صعد على الصفا وجمع عشيرته وقال يا بني عبد المطلب! يا بني هاشم! يا بني عبد مناف! يا بني قُصَي! اشتروا أنفسكم من الله فإني لا أغني عنكم من الله شيئا يا عباس**

فالإسلام قرَّر أن جميع البشر صغيرهم وكبيرهم، وضيعهم وشريفهم، سواسية أمام الأوامر الإلهية، فلأصغر المسلمين وأكبرهم تكليف واحد، كما قال ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَ كُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه**»[1]. بهذه القواعد المتقنة و الأحكام المحكمة حرَّر الإسلامُ البشرَ من ذل الأسر لأحد سوى الله وجعل سعادة الإنسان وشقاءه مرهونان بعمله فقط، وأكد على رابطة الأخوة بين بني البشر، وعلى روح المساواة التامة بينهم، ولم يسلِّم أمور الناس إلى أيدي أشخاص معدودين كي يسخِّروهم لإرادتهم ويسوقوهم حسب هواهم حيثما شاؤوا، **والحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ**.

القرآن وحريَّة العقل

كما حرّر القرآن الكريم نفوس البشر من قيود قطاع الطرق والدجّالين، أعطى عقل الإنسان أيضاً الحرية المطلقة، لأن أهم امتياز وخاصيّة من خصائص الإنسان هي قوة التعقُّل التي نقلت الإنسان من ظلام الهمجية إلى نور المدنية والحضارة، وسلاح العقل هذا هو الذي جعل الإنسان سيّد العالم في تنازع بقاء الموجودات وهو الذي مكَّنَهُ من السيطرة على الكون من تخوم الأرضين إلى نجوم السموات، ولو لم يستخدم الإنسان عقله لما استطاع أن يطوي مدارج التكامل والرقيّ هذه.

عم محمد يا صفية عمته يا فاطمة ابنته ثم نادى كل رجل باسمه و كل امرأة باسمها ألا يجيء الناس يوم القيامة يحملون الآخرة و تأتون و تقولون بأن محمداً منا.. فو الله ما أوليائي منكم إلا المتقون إن أكرمكم عند الله أتقاكم». وفي مصادر أهل السنة رُوِيَ بلفظ مختلف قليلاً في مسند أحمد (٢/ ٤٤٨): «**يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللهِ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ! اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنْ اللهِ! لَا أُغْنِي عَنْكُمَا مِنْ اللهِ شَيْئاً! سَلَانِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا**.». وعلق عليه شعيب الأرنؤوط بقوله: صحيح وهذا إسناد حسن. انتهى. قلتُ: و رواه بألفاظ مقاربة البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي والنسائي في سننهما. (تر)

(١) المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٧٢ / ص ٣٨. دون سند. وهو حديث متفق عليه في مصادر أهل السنة، أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وغيرهما من أصحاب السنن. (تر)

ولما رأى ذئاب طريق الإنسانية ومُذِلّو المجتمعات البشرية أن سلاح الإنسان الخطير هذا، أي العقل، إذا خرج من غلافه، وانضم إليه العلم، لما استطاعت جيوش الخرافات وجنود الأباطيل أن تصمد أمامه وتقاومه.

ولا ريب أن المضلِّين إنما يدينون في رئاستهم وسيادتهم ومنافعهم إلى جهل المجتمع وعدم رشد الناس، لذا فهم يحرصون على إبقاء الناس في الأوهام المختلفة ومنعهم عن التعقُّل والتفكير، كي يستطيعوا الوصول بسهولة إلى أهدافهم البشعة ويحققوا مآربهم الخبيثة، لذا يصرّحون بأن لا حقّ للعقل في تأمّل ما يقوله هؤلاء السادة والكبراء، وإذا قام أحد الناس بالتعقُّل والتفكُّر رموه بالإلحاد والخروج عن الدين، وقالوا الدين هو التعبُّد المحض ولا مجال فيه للتعقُّل، في حين أن الرسول الأكرم ﷺ يقول: «**الدِّيْنُ هُوَ العَقْلُ وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَه**»[١] ويقول: «**يا أيها الناس! اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أُمِرْتُمْ بِهِ وما نُهِيتُمْ عنه، واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم**»[٢].

وأنقذ القرآن بهذه القواعد الإلهية العقلَ من قيود الأوهام ومن الطاعة العمياء للمرشدين والكهنة، وأحل محلهم المرشد الحقيقي الذي هو العقل، ولم يكتفِ الإسلام بعبادات الجوارح فقط، بل ضمَّ العَقْل إلى العبادات كي تصبح مقبولةً، كما قال الرسول ﷺ: «**لا يعجبنَّكم إسلام رجلٍ حتَّى تَعْلَمُوا ما عُقْدَةُ عقله**»[٣].

إن العبادات البدنية والطاعات العضلية لا تفيد الإنسان أبداً إذا كان مبتلى – نتيجة ضعف

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ في أي مصدر للحديث، والموجود في «بحار الأنوار» نقلاً عن [روضة الواعظين للفتَّال] قَالَ النَّبِيُّ: «**قِوَامُ المَرْءِ عَقْلُهُ وَ لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ**». وفي مصادر أهل السنة ذكر نحوه المتقي الهندي في كنز العمال (٧٠٣٣) عن ابن عباس ﷺ ولفظه: «**دين المرء عقله ومن لا عقل له لا دين له**» وعزاه إلى أبي الشيخ في الثواب وابن النجار عن جابر. (تر)

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء، وقال الحافظ العراقي في تخريجه: «أخرجه داود بن المجبر أحد الضعفاء في كتاب العقل من حديث أبي هريرة وهو في مسند الحارث بن أبي أسامة عن داود». (تر)

(٣) رواه المتقي الهندي في كنز العمال رقم (٧٠٦٠) وعزاه إلى: الحكيم عن ابن عمر. و رواه القُضاعيّ في مسند الشهاب: ج٢/ ص٨٨، ح٩٤٣، عن نافع عن عبد الله بن عُمَر رفعه. (تر)

عقله – بأنواع الإفراط أو التفريط التي تجعله يضع الأمور في غير موضعها ويزنها في غير ميزانها، كما نشاهد فعلاً أن كثيراً من الأشخاص الصالحين والمتقين مبتلين بصنوف من الشقاء والنكبات بسبب فقدانهم للعقل السليم.

روي أن جماعةً مدحوا شخصاً أمام خاتم النبيين ﷺ وبالغوا في مدحه، فقال الرسول الأكرم ﷺ كيف عقله؟ فقالوا: نحن نتكلم عن سعيه وعبادته وأنواع الخير التي يقوم بها وأنتَ تسأل عن عقله؟ فقال الرسول الأكرم: «**إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرتفع العباد غدا في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم**»(١).

ونسبة العلم إلى العقل مثل نسبة الطعام إلى الجسم، فكما أن الجسم لا ينمو إلا بالطعام فكذلك العقل لا يقوى إلا بالنظريات العلمية والعلوم الحقيقة.

المانع الثالث من موانع التعقُّل: اتِّباع الهوى

الهوى هو ميل النفس إلى الشهوات. ووجه تسميته بالهوى أنه يهوي بصاحبه في الدنيا نحو الشقاء ويهوى به في الآخرة نحو الهاوية.

إن الهوى يمنع الإنسان عن الخير ويُضادّ العقل وصاحب الهوى يختار دائماً من الأخلاق أقبحها ومن الأفعال ما يورث الفضيحة ويهتك الرجولة و يفتح باب الشرّ.

والهوى معبود الناس في الأرض كما يقول تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ..﴾ [الجاثية/ ٢٣].

وقد ذم القرآن الكريم الهوى في مواضع كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ..﴾ [النجم/ ٢٣]، وقوله ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ..﴾ [الأنعام/ ٥٦]، وأمثالهما، وقد أُثر عن النبي ﷺ قوله: «**طاعة الشهوة داءٌ وعصيانها دواءٌ**»(٢). ويقول عليٌّ عليه السلام: «**إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَيْنِ اتِّبَاعَ الهَوَى وَطُولَ الْأَمَلِ أَمَّا اتِّبَاعُ الهَوَى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ**

(١) رواه الغزالي في «الإحياء» وقال الحافظ العراقي في تخريجه: أخرجه ابن المجبر في العقل بتمامه والحكيم الترمذي في النوادر مختصراً. (تر)

(٢) ليس بحديث ولم أجد له أصلاً في أي مصدر، وإن كان معناه صحيحاً. (تر)

فَيُنْسِي الْآخِرَةَ»[١].

وينبغي أن نعلم أن سلطان الهوى يقوى حتى يصل بصاحبه إلى مرحلةٍ تسيطر فيها عليه الشهوات بحيث لا تَبقى قدرة للعقل على مقاومتها بل يصبح العقل في غاية الضعف، فرغم إدراك العقل لقبح الشهوات، إلا أنه يعجز عن مقاومتها، وهذه المرتبة من الهوى غالبة لدى الشباب الذين تسيطر عليهم شهواتهم بسبب قوتها وبسبب كثرة الدواعي لها.

و يكون الهوى مخفياً لدى الإنسان لكنه يظهر في الأفعال التي يقوم بها خلافاً للعقل، حتى أنه يجعله يرى القبيحَ حسناً والضَّارَ نافعاً والباطل حقاً، وسبب ذلك أنه عندما تميل النفس بشدة إلى شيء فإن العقل يعمى عن رؤية مساوئه وبطلانه إلى درجة أنه يرى الباطل حقاً خالصاً والقبيح حسناً كما ورد: «**حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ**»[٢]، وقد أثر عن علي (ع) قوله: «**الهوى عمى**»[٣].

أضف إلى ذلك أن الإنسان يميل دائماً بسبب كسله وطلبه للراحة إلى ارتكاب أسهل الأمور وأقلّها عناءً، فإذا أراد القيام بعمل، قامت نفسيَّة طلب الراحة المستولية عليه بإبراز العمل السهل أمامه ولو كان قبيحاً وضاراً، وبحمله على الهروب من العمل الصعب حتى لو كان صالحاً ونافعاً، قال بعض الأجلَّة: «**الهوى يقظانٌ و العقلُ راقدٌ فمن ثَمَّ غلبَ**». والفرق بين الهوى والشهوة أن الهوى مختصٌّ بالآراء والعقائد والشهوة مختصَّةٌ بنيل اللذات، فالشهوة من نتائج الهوى وأخص منه.

***

(١) الكُلَيْنِيّ، «الكافي»، ج ٢/ ص ٣٣٥-٣٣٦. و نهج البلاغة، ص ٨٣- ٨٤. (تر)

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، ج ٤/ ص ٣٣٤ حديث رقم (٥١٣٠) عن أبي الدرداء بسند ضعيف، ورجح السيوطي في الدرر المنتثرة أنه موقوف على أبي الدرداء. وأخرجه أحمد في مسنده (ج ٥/ ص ١٩٤) و(ج ٦/ ص ٤٥٠) عَنْ بِلاَلِ بْنِ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله سلم. وعلَّق عليه شعيب الأرنؤوط بقوله: صحيحٌ موقوفاً، وهذا إسناد ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم. انتهى.

(٣) لم أجد له أصلاً، وإن كان معناه صحيحاً. (تر)

أدلة القرآن على إثبات خالق العالم

يظهر من استقراء الكتاب المجيد إثباته لصانع العالم بأربعة طرق:

١- دليل العناية.

٢- دليل الأخلاق.

٣- دليل الاختراع.

٤- دليل الفطرة.

وفيما يلي بيان هذه الطرق الأربعة:

دليل العناية

يعتمد هذا الدليل والبرهان على ملاحظة العناية بالإنسان والاهتمام بخيره وما ينفعه، وأن جميع الموجودات خُلقت لأجله، ومبنى هذا الدليل أمران:

الأمر الأول: أن كل موجودات العالم موافقه لوجود الإنسان ومنسجمة معه، والأمر الثاني: أن هذه الموافقة لا يمكن إلا أن تكون من فعل فاعل قاصد مريد، فلا يمكن أن تحصل هذه الموافقة والانسجام الكامل بالصدفة.

أما الأصل الأول، فإن الليل والنهار والشمس والقمر والفصول الأربعة والكرة الأرضية كلها منسجمة مع وجود الإنسان وملائمة له، كما أن معظم الحيوانات والنباتات والجمادات وأغلب الجزئيات الأخرى كالمطر والأنهار و البحار والماء والهواء والنار، كلها مناسبة تماماً للإنسان وملائمة له. كذلك إذا تأملنا بدّقة في أعضاء جسم الإنسان والحيوان رأينا أنها جميعاً تتفق مع حياة الإنسان ووجوده، وهذا الأمر واضح كل الوضوح، وكلُّ من أراد أن يعرف الله أكثر وأن يقوى لديه أساس التوحيد ويصل إلى كماله، ما عليه إلا أن يفحص ويبحث في المنافع التي لا حصر لها لأعضاء جسم الإنسان.

ومن هذا الأصل يثبت الأصل الثاني وتتم البرهنة عليه: لأنه من المستحيل أن تجتمع كل هذه الموجودات لأجل منفعة وجود الإنسان دون أن يكون وراء ذلك إرادة فاعل، بل بمجرّد الصدفة. مثلاً إذا رأى شخصٌ صخرةً منحوتةً على شكل كرسيٍّ وموضوعةً لأجل الجلوس عليها، فإنه يحكم أن هذا قد تمَّ بإرادة فاعل، إذا لا يمكن أن يكون نحتها ووضعها على ذلك النحو قد تم بالصدفة المحضة، أما إذا رأى صخرةً عاديةً ليست منحوتةً ولا موضوعةً على نحوٍ يناسب الجلوس عليها، فيمكنه أن يقول إن تلك الهيئة حصلت دون قصد قاصد. كذلك إذا نظر الإنسان إلى العالم ورأى الشمس والقمر والنجوم وفهم كيف تنشأ عنها الفصول الأربعة والليل والنهار وكيف أنها تسبب نزول الأمطار وحركة الرياح وإذا تأمَّل في أطراف الأرض والحيوان والنبات وتأمَّل في الانسجام والتوافق بين الماء وبين الأسماك والحيوانات البحرية والنهرية، والانسجام والتوافق بين الهواء والطيور، فإنه يُقِرُّ ويعترف مباشرةً بوجود صانع للعالم ووجود ربٍّ حيٍّ مريدٍ، ويدرك عناية هذا الربّ بإيجاد هذا التوافق والانسجام والتناسب بين أجزاء عالم الموجودات والإنسان وأن ذلك يستحيل أن يكون وليد الصدفة المحضة بل لا يكون إلا بقصد قاصد وإرادة مريدٍ، فإذا اتضح هذا الدليل القرآني لإثبات خالق العالم، نذكر الآيات القرآنية الواردة في بيان هذا الدليل:

الآيات الواردة في القرآن حول دليل العناية

١- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/ ٢٢].

٢- وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة/ ١٦٤].

٣- وقال أيضاً: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ

فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد/ ٢-٤].

٤- وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم/ ٣٢-٣٤].

٥- وقال عز من قائل: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر/ ١٩-٢٢].

والآيات الدالة على دليل العناية - كالتي ذكرناها أعلاه - كثيرة في القرآن الكريم، وما ذكرناه هو نماذج عنها فقط.

دليل الاختراع لإثبات خالق العالم

وهذا الدليل يستند أيضاً إلى أصلين تحكم بهما الفطرة:

الأصل الأول: أن جميع الموجودات قد أُختُرِعت، وهذا أمر معلوم في الحيوان والنبات، كما يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ... ﴾ [الحج/ ٧٣]. ولما كنا نرى في البداية الجمادات ثم بعد ذلك نلاحظ وجود الحياة فيها، ومن البديهي أن الجماد الفاقد للحياة لا يمكن أن يكون هو مبدأ الحياة، فنقطع إذن بأن الحركة والحياة والشعور لا بد أن يكون مبدؤها حيٌّ قادرٌ وهو الله خالق الكون.

الأصل الثاني: كل اختراع يحتاج إلى مخترع. ومن اجتماع هذين الأصلين يتبين أنه لا بد أن يكون لجميع الموجودات فاعل ومخترع، وكل من أراد أن يعرف الله، ويصل بمعرفته لِلَّهِ إلى كمالها، فعليه أن يطلع على جواهر الأشياء وحقائق الموجودات كي يفهم الاختراع الحقيقي، فكل من لم يعرف حقيقة الشيء لن يعرف حقيقة الاختراع، ولقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ..﴾؟ [الأعراف/ ١٨٥].

ونذكر هنا بعض الآيات الكريمة الواردة في دليل الاختراع:

الآيات الواردة في القرآن حول دليل الاختراع

١- يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟﴾ [الأنبياء/ ٣٠].

٢- ويقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المؤمنون/ ٧٩].

٣- ويقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم/ ٢٠].

٤- ويقول: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ؟﴾ [يس/ ٧٧].

٥- ويقول: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ ﴾ [الطارق/ ٥-٦].

دليل الاختلاف لإثبات خالق العالم

عندما ننظر إلى عالم الموجودات نلاحظ أن بعض الموجودات يصدر عنها فعل واحد، مثل النار التي عملها الإحراق، فالصورة النوعية للنار منشأ لفعل واحد كما أنها ليست ذات شعور ولا إرادة. وإذا رأينا موجوداً تصدر عنه أفعال متنوعة نرى أن هذا الموجود يمتلك درجة من الشعور، كالنبات الذي تصدر عنه أفعال مختلفة من جذب الطعام و تحليله وهضمه ودفع الفضلات والتغذية والنمو والتكاثر، ولاشك أن الموجود الذي تصدر عنه أفعال مختلفة أكمل وأشرف من الموجود الذي يصدر عنه عمل واحد. ثم إذا تأملنا وبحثنا بعد ذلك في عالم الحيوان رأينا أن هناك حركات مختلفة تصدر عن الحيوانات فنفهم عندئذٍ أن هذه الحيوانات صاحبة إرادة

وشعور لأنها لو لم تكن كذلك لما صدرت عنها هذه الأعمال المختلفة.

ومعنى الكمال في موجود اشتماله على قوى مختلفة، وكلَّما زادت قوى موجود من الموجودات زاد كماله.

فمثلاً المدينة الفاضلة الكاملة هي التي تتمتع بشؤون مختلفة، وكذلك الشخص العالم بفنون كثيرة أكمل من الشخص الذي لا يجيد إلا فناً واحداً أو عدة فنون فقط.

من هذه المقدمة نستنتج أنه لو كان مبدأ عالم الطبيعة فاقداً للشعور لوجب أن لا يصدر عنه إلا نهج واحد وطريقة واحدة، لكننا إذا نظرنا إلى العالم لاحظنا أنه مليء بالاختلاف والتنوع والتغايُر، بل لا يكاد يوجد موجودان شبيهان ببعضهما، فمن هذا التنوع والاختلاف بين الموجودات نكتشف أنه لابد أن يكون مبدأ العالم موجوداً ذا شعور واختيار وإرادة، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لأن للإرادة والعلم والحكمة تدخُّل واضح وكامل في هذا النظام، فهذا التنوع يقودنا إلى عالم الغيب وإلى إدراك أنه خلف ستار الغيب هذا يوجد الله المريد المختار.

وخلاصة الكلام أن هذه الكثرات والاختلافات جميعاً، وهذه التغييرات التي تحدث في عالم الوجود باستمرار إذْ نجد كل يوم حوادث لا سابقة لها، كل ذلك دليلٌ واضحٌ وبرهانٌ قاطعٌ على أن هناك مبدأٌ ذو اختيار وإرادة هو مصدر كل هذه الأمور التي مرجعها جميعاً إلى الله ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى/ ٥٣]، وإرادة الحق السنية هي المدبرة والمديرة لعالم الوجود.

الآيات الواردة في القرآن حول دليل الاختلاف

١- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ﴾ [المؤمنون/ ٨٠].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ...﴾ [الروم/ ٢٢].

٣- وقال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس/ ٦].

٤- وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ...﴾ [فاطر/ ٢٧].

٥- وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ...﴾ [فاطر/ ٢٧].

٦- وقال أيضاً: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ...﴾ [فاطر/ ٢٨].

٧- وقال كذلك: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ..﴾ [النحل/ ١٣].

٨- وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ؟﴾ [الزمر/ ٢١].

دليل الفطرة لإثبات خالق العالم

يقول الله تعالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا..﴾ [الروم/ ٣٠]. ويقول حضرة الرسول الأكرم ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، ثُمَّ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَ يُنَصِّرَانِهِ وَ يُمَجِّسَانِهِ**»[(١)].

والدليل على ذلك أن الناس يتَّجهون بطبعهم وغريزتهم ودون إرادةٍ منهم إلى الله تعالى خالق العالم، ويلجؤون إليه ويستغيثون به وحده في الشدائد والبلايا والمُلِمَّات ولا يعتبرون - في أعمق وجدانهم - أحداً مسبِّباً للأسباب ومسهلاً للأمور الصعاب، سوى ذات الواحد المقدّسة، ويعتبرون أن حلّ المشكلات وقضاء الحاجات وإزالة الكُرَب بيد الله تعالى وفي قدرته، و يعتبرون

(١) أخرج الجملة الأولى منه أي جملة (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ) دون بقية الحديث، الكليني في الكافي، ج٢/ ص ١٢، و رواه كما ذكر في المتن المجلسيُّ، في «بحار الأنوار»، ج ٣ / ص ٢٨١ نقلاً عن غوالي اللئالي العزيزية. وهو حديث متفق عليه في مصادر أهل السنة رواه البخاري ومسلم بسندهما عن أبي هريرة مرفوعاً. (تر)

النجاح والفوز موكولاً إلى إرادة الله ولطفه، وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾..﴾ [الأنعام/ ٤٠-٤١].

سأل شخص حضرة الإمام الصادق عن عبادة الله فقال له: يا عبد الله! هل ركبت السفينة؟ قال نعم. قال: هل حدث أن تحطمت السفينة في عرض البحر ولم يكن هناك من ينقذ السفينة، ولم تكن تعلم السباحة؟ قال: بلى. قال: فهل شعر قلبك بوجود قدرة و قوة أخرى قادرة على نجاتك و على إنقاذك من الغرق والهلاك؟! قال: بلى. قال الإمام: فهذه هي قدرة الله تعالى القادر على إنقاذك ونجاتك حيث لا منقذ و لا منج غيره، وهو القادر على إغاثتك و تلبية استصراخك حيث لا مغيث و لا صريخ غيره.

ولهذا السبب فإن دين الإسلام المبين اكتفى من الناس بالإقرار بوجود الباري تعالى ولم يكلف البشر أبداً أن يتفكروا في ذات الله أو يتعمّقوا في صفاته، بل جعل مثل هذا التعمّق مختصّاً بطائفة خاصّة من الناس يبحثون عن الزيادة في التبصّر والمعرفة، وذلك لأن الناس جُبِلوا بفطرتهم وغريزتهم على التوحيد، والاستدلالات العلمية والبراهين الفلسفية ليست إلا لأجل الرّد على أهل الضلال والذين انحرفوا عن جادة الفطرة السليمة، رغم أن أصل معرفة الباري تعالى أمرٌ فطريٌ [لا يحتاج إلى دليل أو برهان] ويكفي أقل مقدار من التنبُّه واليقظة لسلوك جادة المعرفة. لكن للمعرفة بحد ذاتها درجات مختلفة ومراتب متعددة وتتفاوت شدةً وضعفاً وبطأً وسرعةً وقلّةً وكثرةً وكشفاً وشهوداً وتختلف عقول الناس وأفهامهم في إدراك ذلك طبقاً لاختلافها في مداركها، فكل شخص لديه طريق يصل به إلى المقصود، فالهداية والوصول إلى المعرفة الإلهية و الارتواء من سلسبيل التوحيد بعدد نفوس الخلائق، كما قال بعضهم: «الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق»، ويقول تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ...﴾ [آل عمران/ ١٦٣]، ويقول كذلك: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ...﴾ [المجادلة/ ١١].

يتبيَّن مما ذُكر أن أجلى الموجودات وأظهرها ذات الباري جل جلاله، فلا بد إذن أن تكون

معرفته أول المعارف البشرية، ومبدأ معلومات الإنسان، ولا بد أن يكون فهمها أسهل المفاهيم لعقول وأذهان البشر، ولكننا نرى أن الأمر على العكس من ذلك، فلا بد أن لذلك سبباً يجب أن نكتشفه.

أما قولنا إن الله تعالى أجلى الموجودات وأظهرها فهذا يمكن إثباته بالمثال الصغير التالي: عندما نرى شخصاً يكتب كتاباً أو يخيطُ لباساً فإن أظهر وأجلى ما يظهر لنا من صفات هذا الشخص هو الحياة والعلم والقدرة، أما صفاته الباطنية مثل غضبه وشهوته وخُلُقه، ومَرَضِهِ وصحّته فلا تكون معلومة لنا، كما أننا لا نميِّزُ جميع صفاته الظاهرية في المرحلة الأولى، ونشك في بعض صفاته الظاهرية الأخرى، ولكن الصفات التي هي أظهر من جميع الصفات الأخرى، والتي يتوجه إليها ذهننا منذ الوهلة الأولى، أعني صفة وجود الحياة والعلم القدرة، لا يشك ذهننا فيها أبداً، علماً أن الصفات ليست مثل بعض الصفات الظاهرة للعيان، كلون البشرة والطول والعرض التي تدركها حواسنا الخمس فوراً، لكنها صفات ندركها مباشرةً بمجرد ملاحظتنا لحركة يد الكاتب في كتابته أو في خياطته فندرك إرادته وعلمه وحياته.

كذلك إذا ألقينا نظرة على العالم وعلى ما سوى الله وشاهدنا ما تدركه حواسنا الخمس فيه من برٍّ وبحرٍ وجبل وصحراءٍ ونباتٍ وجمادٍ وحيوانٍ وكواكب سماويةٍ ونجومٍ ثابتةٍ وسيّارةٍ وقمرٍ وشمسٍ، وتأملناها بدقة، ولاحظنا هذه الحركة الدائمة وهذه الموجودات والمصنوعات المختلفة وهذه التطورات المتنوعة والتحولات العديدة التي نجدها في أنفسنا وفي بني نوعنا وفي جميع ذرات العالم، أدركنا وجود صانعٍ للعالم ذي حياةٍ وعلم وقدرة، وأقررنا واعترفنا به، بل قبل أن ندرس ونتأمل العالم يمكننا أن تأمل أنفسنا ونتأمَّل الحركات والأطوار الناشئة عنها؛ فبمشاهدة أعضاء بدننا ورأسنا وأيدينا وأرجلنا ورقبتنا ودماغنا وقلبنا ندرك ونفهم أنها مصنوعة من قَبِل صانع قدير عالم وحيٍّ، ولما كان العلم بالأنفس من أسبق العلوم كانت نتيجة هذه المشاهدة والعلم – أي الإقرار بوجود صانع حيٍّ مدركٍ – أظهر وأسبق وأجلى من جميع المعارف.

وإذا كانت يد الكاتب والخياط تدل على علمه وحياته وقدرته فكيف لا تدل كل هذه

الموجودات من بشر- وحيوان ونبات وجماد واختلاف للأنواع والأنفس وتركيب الأعضاء واللحم والجلد والعظم والأعصاب، والخلاصة كل الذرات فرداً فرداً، على وجوده تعالى وكيف لا تكون شاهداً ناطقاً بأعلى صوته على قدراته وحياته وعلمه؟! لقد أذهلت مشاهدة هذا المعنى العقول وأعجزت الأفكار في وادي الحيرة، فأيُّ عينٍ لم تذهلها مشاهدة العظمة وأي عقل لم يبهت ويتحير من مطالعة الجمال والجلال اللامتناهيين.

صعوبة فهم التوحيد

تنشأ صعوبة إدراك أي حقيقة والإشكال في فهمها من أحد سببين: إما من غموض الموضوع نفسه ودقّته وتعقيده، أو على العكس من شدة وضوحه وظهوره!! مثال الأول: واضح، وأما مثال الثاني فهو خفافيش الليل التي تعجز عن رؤية الأشياء في وضح النهار بسبب شدة إشراق الشمس والنور الذي يبهر بصرها الضعيف فلا تستطيع أن ترى شيئاً، فإذا غابت الشمس وانحسر نورها وحلّ الظلام انطلقت من أوكارها باحثةً عن فريسةً تصطادها لتواصل حياتها.

وعقولنا وأفكارنا أيضاً ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في غاية الإشراق والظهور وغاية الإنارة وأقصى مراتب الإحاطة والشمول فلا يعزب عن قدرته وعلمه ذرة في السموات ولا في الأرض ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد/ ٣]؛ وكل جزئيات عالم الطبيعة من أصغرها إلى أكبرها صنع يدي قدرته لذلك فإن معرفته والعلم به لا يخلوان من إشكال وإبهام، فسبحان الله الذي أَوْجَبَتْ شدَّةُ ظهوره ووضوحه خفاءَهُ، والذي حجبته عن العيون والأبصار عظمته اللامتناهية، ولا ينبغي التعجب من هذا المعنى لأن جميع الموجودات الأخرى إنما تُعْرَف بأضدادها:

ظهور جمله اشياء بضِدّ است ولی حق را نه مانند و نه نِدّ است

أي:

ظهور جميع الأشياء بضدها ولكن الحق ليس له نظير ولا ندّ

إن الحقيقة التي يعمّ وجودها جميع الأشياء ويحيط بها، ويعم فيضها كل شيء، لن تخلو

معرفتها وفهمها من إشكال وصعوبة، لأن جميع الأشياء مختلفة عن بعضها وانطلاقاً من خواصٍّ كلٍّ منها يتيسَّر التعرف على أضدادها، أما لو كان لها جميعاً دلالة عامة ومشتركة، لما خلا فهمها من صعوبة، كما أنه لو كانت الشمس مشرقةً دائماً في وسط السماء ولم يكن هناك دوران للأرض حول نفسها وحول الشمس ولم يمنع أي شيء عبور نور الشمس نحو الأرض، لكان فهم وإدراك حقيقة أنه هناك نور في العالم من الأمور المشكلة، ولاعتبر الناس أن الألوان نابعة من ذات الأجسام، ولتصوروا أن حقيقة الأجسام هي ذات لونها، وإذا حَدَّث عالمٌ الناسَ عن النور وفوائده لأنكروا كلامه، ولو قال لهم إن كل هذه الألوان المختلفة والمتنوّعة التي ترونها إنما هي أَثَرٌ لموجودٍ اسمه «النور» فإذا ذهب النور لم يبقَ هناك لون ولم تشاهدوا أسوداً ولا أبيضاً لَعَسُرَ عليهم فهم كلامه ولقام أغلب الجهلاء وضعفاء العقل بتكذيبه والسخرية منه.

ولكن لما كانت الأرض تتحرَّك وتدور حول نفسها باستمرار وكانت الشمس نتيجةً لذلك تشرق ثم تغرب كل يوم ويحل الظلام عند غروبها فلا يعود الناس قادرين على تمييز الألوان عن بعضها ولا حتى رؤية الأجسام لأن رؤيتها لا تتم إلا ببركة النور، عرف الناس النور وأدركوه، فانظروا كيف يوجب الشمول والعمومية والظهور الدائم والتجلي الذي لا ينقطع للشمس عُسْرَ فهم النور وصعوبته!

وكذلك الرحمة الواسعة واللطف العام للحقّ تعالى يوجبان خفاءه عن الأبصار الضعيفة والعقول الكليلة والأفكار المحدودة، ولو انصرف هذا الفيض الشامل لحظة عن العالم وانقطعت هذه الرحمة الواسعة ولو لِـلَمْحة بصر، لغاصت الموجودات في بحر الفناء وفُقِدَت وانعدمت في صحراء العدم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر/ ٤١] وبهذا تتجلّى المشيئة الأزلية: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة/ ٢٥٥]. ومن كان له نصيب من عقل قوي وفكر نَيِّر شاهد التجليّات الإلهية في جميع الموجودات ولم يَرَ مؤثراً في الوجود سواه، ولم يلاحظ الموجودات من جانب اليقين بها وكما يرى شخصٌ كتاباً أو قصيدة شعر فلا يلاحظها من جهة الحبر والورق، بل من جهة أنها خلاصة فكر

مؤلفها أو آثار قريحة شاعرها، فكذلك الموحد الحقيقي لا يرى في الموجودات مؤثِّراً سوى الله وفي الكون فاعلاً سوى ذات الحق تعالى.

فكل هذه الأمور المعلومة التي هي واضحة لدى العلماء الخبيرين والعارفين البصيرين، تصبح مشكلةً وصعبةً بسبب ضعف الأفهام ونقص العقول حتى يصل الأمر إلى عجز العلماء والعارفين عن بيانها وتوضيحها بعبارات صريحة بيّنة، فينكب أغلبهم على نفسه ويظن أن لا فائدة من بيانها وإفهامها للآخرين: فهذه هي علة قصور أذهان الناس عن معرفة الحق المتعال.

والسبب الثاني هو أن جميع هذه المدركات والمحسوسات والشواهد التي تدل على وجود الصانع يراها الإنسان بالتدريج منذ زمن طفولته، ومن المعروف أن القوة العاقلة لدى الإنسان في أيام الصبا والطفولة تكون قاصرة لم تبلغ الرشد بعد ولم تصل لحد الكمال، وأن الطفل يكون مستغرقاً في الشهوات ومشغولاً بالمحسوسات، لذلك فإن طول الأنس بالمحسوسات يزيل أهميتها عنده، فإذا شاهد هذا الإنسان نفسه على نحو مفاجئ حيواناً غريباً أو موجوداً مخالفاً لما اعتاد على رؤيته لغرق في بحر التعجب ولانطلق لسانه وطبيعته وفطرته بمعرفة الله، ولقال بلا اختيار منه (**سُبْحَانَ الله!**)، في حين أن هذا الإنسان ذاته يشاهد ليل نهار أعضاء بدنه وعينيه وأذنيه ودماغه، ويرى سائر الحيوانات التي أنس بوجودها، مع أن خلقتها أعجب وأدق، ومع ذلك لا يتعجب ولا يُصاب بالذهول من رؤيتها، ولا ينطلق لسانه باسم الله وتسبيحه ولا يشعر أنها شاهدةٌ واضحة على وجود الباري، وليس هذا إلا بسبب طول الأنس بها و التعود عليها منذ طفولته، ولو فرضنا أن أعمى منذ الولادة فتح فجأة عينيه بعد أن بلغ سن الرشد والتمييز فأبصر السموات والأرض والنجوم والجبال لأصيب عقله بالذهول ولانطلق لسانه بذكر الباري تعالى وعظمة خلقه، ولشهد وأقر بأنها جميعاً صنع حيٍّ مدركٍ وعليمٍ خبيرٍ، فكذلك انغماس الناس في الماديات وغلوّهم في الشهوات وحاجات الحياة، أغفلهم عن الانتباه لهذا المعنى.

لقد ظهرتَ فلا تخفى على أحدٍ ... إلا على أكمه لا يعرف القمرا

لكن بَطُنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِباً ... وكيف يُعْرَفُ من بالعُرْف اسْتَتَرا

وَ قد جاء هذا الأمر فِي كَلَامِ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ أَبِي عَبْدِ الله الْحُسَيْنِ بن عَلِيٍّ عليه السلام حَيْثُ قَالَ فِي دُعَاءِ عَرَفَةَ: «**كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ؟ أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ؟؟ مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ؟ وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟ عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ وَ لَا تَزَالُ عَلَيْهَا رَقِيباً وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً**»[1].

توحيد القرآن

لا يعلمُ عامَّة الناس من التوحيد سوى **توحيد الربوبية** وهو الإقرار بأن الله خالق جميع الأشياء، وهذا التوحيد يعترف به المشركون وعُبَّاد الأصنام أيضاً كما قال تعالى في قرآنه المجيد: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ..﴾[لقمان/ ٢٥]، ويقول كذلك: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف/ ١٠٦].

وإنما التوحيد الذي أمر الله به العباد هو **توحيد الألوهية** المتضمن لتوحيد الربوبية بأن يُعْبَدَ اللهُ وحدَه لا يشركون به شيئاً فيكون الدينُ كلُّه لِلَّهِ ولا يُخافُ إلا اللهُ ولا يُدْعَى إلا اللهُ، ويكونَ اللهُ أحبَّ إلى العبدِ من كلِّ شيءٍ فيُحِبُّونَ لِلَّهِ ويبغضون لِلَّهِ ويعبدون اللهَ ويتوكَّلُونَ عليه.

والعبادة تجمع غاية الحب وغاية الذلّ، فيُحِبُّونَ اللهَ بأكمل محبَّةٍ ويذلون له أكمل ذلٍّ ولا يعدلون به ولا يجعلون له أنداداً ولا يتَّخذون من دونه أولياء ولا شفعاء؛ كما قد بين القرآن هذا التوحيد في غير موضع، وهو قطب رحى القرآن الذي يدور عليه القرآن[2].

وقد كتبنا في هذا الباب رسالةً بيَّنَا فيها مراتب الشرك ونحيل القراء الكرام إليها، ونسأل الله تعالى أن يأجرنا عليها و نذكر هنا بعض الأمور على نحو الإشارة.

---

(١) المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٦٤ / ص ١٤٢. (تر)

(٢) من الملفت أن المؤلف رحمه الله اقتبس هذه العبارات عينها من كتاب «منهاج السنة النبوية في نقد كلام الشيعة والقدرية» ج٣/ فصل وأما قوله أي شركة هنا. (تر)

وتوحيد الألوهية هذا يتضمَّن التوحيد في العلم والقول والتوحيد في الإرادة والعمل.

فالأول كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص/ ١-٤].

وأما التوحيد في العبادة والإرادة والعمل فكما في سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون/ ١-٦].

والتوحيد الأول يتضمن إثبات نعوت الكمال لِلَّهِ بإثبات أسمائه الحسنى وما تتضمنه من صفاته، والثاني يتضمن إخلاص الدين لرب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة/ ٥].

فالأول براءة من التعطيل والثاني براءة من الشرك. وأصل الشرك إما **التعطيل**: مثل تعطيل فرعون موسى وتعطيل الذي حاج إبراهيم في ربه خصم إبراهيم، وإما **الإشراكُ**: وهو كثير في الأمم أكثر من التعطيل وأهله خصوم جمهور الأنبياء. وفي خصوم إبراهيم عليه السلام وخاتم النبيين محمد ﷺ معطلةٌ ومشركةٌ، لكن التعطيل المحض للذات قليل وأما الكثير فهو تعطيل صفات الكمال وهو مستلزمٌ لتعطيل الذات.

ثم إنه كل من كان أقرب إلى الرسول ﷺ وأئمة الهدى وأصحابه والتابعين لهم بإحسان، كان أقرب إلى كمال التوحيد والإيمان والعقل والعرفان، وكل من كان عنهم أبعد كان عن ذلك أبعد.

وقد سلك الناس في إثبات توحيد الإلهية والفاعلية مسالك مختلفة، وقد ذكَرَتْ كتب القوم من الفلاسفة والمتكلِّمين كل ذلك بالتفصيل، ولما كان كتابنا الحالي مبنيٌّ على توضيح أدلة القرآن، فإننا نُعْرض عن ذكر أدلة الفلاسفة والمتكلِّمين ونحيل القرَّاء الكرام إلى الكتب المدوَّنة في هذا الباب، ونكتفي هنا بذكر دليل القرآن على توحيد فاعلية خالق العالم سبحانه وتعالى.

دليل القرآن على توحيد الفاعلية

إن مسلك القرآن لإثبات هذا التوحيد هو معرفة مضمون كلمة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة/ ١٦٣]، إذْ في هذه الآية نفيٌ زائد على الإثبات، وقد جاء نفي الألوهية عما سوى الله في ثلاثة مواضع من الكتاب المجيد:

١- قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء/ ٢٢].

إن دلالة هذه الآية الكريمة على معنى التوحيد واضحة وجليّة لأن كل شخص يعلم أنه لو أراد مَلِكَان أن يقوما بعمل ما في مجال سلطانهم، لفسد هذا العمل ولما استطاع الملكان أن يديرا المملكة سويةٍ لأنه لا يمكن صدور فعلٍ واحد من فاعلين من نوع واحد، فإما أن تضيع أمور البلاد أو أن يتنحى أحد الملكين ويستفرد الآخر وحده بالملك، وكلا الصورتين تنافيان الإلوهية!.

٢- قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون/ ٩١].

قوله ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ﴾ أي ليس مع الله إلهٌ ثانٍ يشاركُ اللهَ في ألوهيته، والبرهان الذي ذكره الحق تعالى على ذلك هو قوله ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لو كان هناك إله ثان لكان خالقاً وَلَذَهَبَ بمخلوقاته الخاصة به، ولكانت مخلوقات كل إله ممتازة ومنفصلة عن مخلوقات الإله الآخر؛ في حين أننا لا نجد في عالم الوجود مثل هذا الانقسام في المخلوقات، بل عالم الوجود عالم واحد، فثبت أن للكون إلهٌ واحدٌ.

وأيضاً لو كان مع الله إله آخر لانفرد على (ذلك) كلُّ واحدٍ من الإلهين بخلقه الذي خلقه واستبدَّ به، ولرأيتم مُلك كل واحد منهما متميزاً عن مُلك الآخر، ولغلب بعضهما على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا: ممالكُهُم متميِّزَة وهم متغالبون، وحيث لم تروا أثر التمايز في الممالك والتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء. سبحان الله عَمَّا يَصِفُون.

٣- قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء/ ٤٢-٤٣].

هذه الآية مثل الآية الأولى أي تتضمن برهان امتناع أن يكون لإلهين متميِّزَين فعلٌ واحدٌ.

وتفسير الآية أنه لو كان في الأرض والسماء آلهة غير الله الحق، قادرةٌ على إيجاد العالم وخلقه، وكانت نسبة تلك الآلهة إلى العالم عين نسبة الله تعالى إليه، لوجب أن تكون مع الله على العرش، وللزم من ذلك أن يكون هناك لموجودين متماثلين في محل واحد، نسبة واحدة، وهذا ممتنع لأنه عندما تتحد النسبة يتَّحد المنسوب، كما أنه لا يمكن لموجودين أن يحّلا في محل واحد، ولكن الأمر بشأن نسبة الله إلى العرش على العكس من ذلك أي أن العرش قائمٌ بالله لا أن الله قائم بالعرش، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ﴾ [البقرة/ ٢٥٥]. فإذا امتنع قيام العالم بموجودين، نتج عن ذلك أن مبدأ العالم واحدٌ.

تلك كانت الأدلة القرآنية على امتناع وجود إلهين، والدليل الذي استنبطه المتكلمون من الآية الثانية وسموه دليل التمانع، ليس دليلاً طبيعياً ولا دليلاً شرعياً، أما عدم كونه دليلاً طبيعياً فلأنه ليس ببرهان منطقي سليم، وأما عدم كونه دليلاً شرعياً فلأن العوام غير قادرين على فهمه فضلاً عن أن يقتنعوا به!

والدليل الذي يذكرونه هو كالتالي: إذا كان هناك إلهين لجاز أن يختلفا فإذا اختلفا لم يَخْلُ الأمر من أحد ثلاث احتمالات لا رابع لها: إما أن يحصل مرادهما، أو لا يحصل مراد أيٍ منهما أو يحصل مراد أحدهما ولا يحصل مراد الثاني.

على الأول - يجب أن يكون العالم موجوداً ومعدوماً في الوقت نفسه وهذا من المحالات. وعلى الثاني - يجب أن يكون العالم غير موجود وغير معدوم وهذا أيضاً من الممتنعات، وفي الحالة الثالثة: يكون مَنْ تحقَّقت إرادته هو الإله الحقّ أما من عجز عن تحقيق إرادته فليس له من الإلهية نصيب لأن الإله لا يمكن أن يكون عاجزاً.

إن وجه الضعف والخطأ في هذا البرهان هو أنه كما يجوز أن يختلف الإلهان فإنه من الممكن أن

يتفقا، فلابد من ذكر بطلان وجود إلهين في هذه الحالة الرابعة أيضاً (أي حالة اتفاقهما). وطريقة إثبات فساد صورة التوافق أن نقول إذا اتفق وتعاون هذان الإلهان في كل شيء، كالصانعين اللذين يتعاونان على صنع شيء واحد، للزم من ذلك أن لا يكون أيٌّ منها إلهاً، لأن التعاون من صفات المحتاج وهو لا يليق بمقام الربوبية. وإذا خلق كلٌّ منهما جزءاً من العالم دلَّ ذلك على أنه قادر على خلق الأجزاء الأخرى أيضاً ومع ذلك اكتفى بخلق ذلك الجزء، وهذا المعنى يوجب النقص في حقِّ كلٍّ منهما، ولا يليق بخالق العالم، إذن لابد أن يكون لكلٍّ منهما عالمٌ مستقلٌّ عن عالم الآخر.

لكننا نجد أن العالم واحد، فهذا إذن يدل على أن إله العالم واحد أيضاً.

يتبيَّن مما ذكرناه أن المعنى الذي استنبطناه من الآية الكريمة غير المعنى الذي ذكره المتكلمون، والواقع أن الذي يظهر من قوله تعالى ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون/ ٩١] ليس فساد جهة المخالفة، بل بطلان صورة الموافقة أيضاً، لأن برهان المفسرين من قبيل القضية الشرطية المنفصلة في حين أن ما تدل عليه الآية هو من قبيل الشرطية المتّصلة.

وأما المُحالات التي هي مرجع دليل المتكلمين، فهي أن العالم إما أن يكون موجوداً وفي الوقت ذاته معدوماً، أو أن يكون غير موجود وغير معدوم في آنٍ واحدٍ، أو أن يكون الله عاجزاً ومغلوباً، وكل هذه مُحَالَات ممتنعة الوجود إطلاقاً ودائماً، أي أن امتناعها دائمٌ وليس محدوداً بوقت معين.

أما المحال الذي يرتكز عليه برهان كتاب الله تعالى، فهو مؤقت وهو عبارة عن فساد العالم عند وجوده.

دليل القرآن على إثبات النبوة

يستند استدلال القرآن على النبوة على أصلين:

الأصل الأول: أنه من المتواترات والمسلّمات أنه قد وجد صنفٌ من البشر ـ عُرِفوا بالأنبياء والرسل، وأشخاص هذا الصنف كانوا مؤيَّدين بالوحي الإلهي لا بالتعليم البشري، وقد وضعوا

شرائعَ وأدياناً للناس. وإنكار هذا الصنف من الناس إنكار للبديهيات، كما أن الإنسان لا يمكنه أن ينكر الفلاسفة والمخترعين والأطباء والقادة السياسيين بين البشر.

ذلك لأن جميع العلماء و الكبار والفلاسفة وقاطبة الخلق (سوى عدة قليلة لا تستحق الاعتناء بها ويُعْتَبرون من الدَّهرية الملاحدة) اتفقوا على أنه وجد في الأزمنة الماضية أشخاص كان ينزل عليهم الوحي من قِبَلِ الله، وأنهم كانوا - انطلاقاً من ذلك الوحي الإلهي - يدعون الناس إلى العلم والمعرفة والأعمال الصالحة الموجبة لسعادة النشأتين، وكانوا ينهونهم عن الاعتقادات الفاسدة والأعمال القبيحة، ومن الواضح أن هذا الصنف من الأعمال والأقوال منحصرٌ بالأنبياء العظام والرسل الكرام. والدليل على هذا الأصل من كتاب الله:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء/ ١٦٣-١٦٥].

٢- وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف/ ٩].

الأصل الثاني: أن كل من وضع شريعةً بالوحي الإلهي، يُسَمَّى نبياً، وهذا الأصل لا شبهة فيه وغير قابل للتشكيك، لأن كل شخص يعلم أن الطب هو شفاء المرضى وكل من مارس هذا العمل قيل له طبيب، والنبوة وضع الشرائع بوحي الله وكل من قام بهذا العمل قيل له: نبيٌّ ورسولٌ، والشاهد على هذا الأصل كتاب الله.

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ [النساء/ ١٧٤].

٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء/ ١٧٠].

٣- ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء/ ١٦٦].

٤- ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ...﴾ [النساء/ ١٦٢].

فإن قيل ما هو ميزان معرفة الأصل الأول (وجود الأنبياء والرسل) وكيف لنا أن نعرف أن أشخاصاً ما أنبياء، ومن أين لنا أن نتأكد أن ما يقولون من أمور وآيات هو وحي الله؟.

قلنا في الإجابة: أول ميزان يُعْرَف به الأنبياء والرسل هو إنذارهم وتخويفهم من الأمور المستقبلة وقد رأينا أن كل ما أنذروا وقوعه وقع تماماً كما قالوا، والميزان الآخر هو الكلمات والأقوال التي تصدر عن الأنبياء من المسائل العقلية التي لا سبيل للعقل البشري إليها، وكذلك الأفعال الحسنة والصالحة التي لا ينجح البشر أبداً في الاتصاف بها أو المحافظة عليها، فجميع أقوال هذا النمط الرفيع من الناس وجميع كلماتهم وأقوالهم تعد أموراً خارقة للعادة ومعجزات تكشف أنهم مبعوثون فعلاً من قِبَل الحق تبارك وتعالى.

إن هذا النوع من الخوارق في وضع الشرائع وبيان المعارف الحقيقية وحل المشكلات الكونية التي لا سبيل للعقلاء والفلاسفة إليها، مما يعلنه الأنبياء والرسل للناس استناداً إلى ما يوحى إليهم من الله، والذي يمكن أن نطلق عليه اسم «**المعجزات العقلية**»، أقوى في دلالته على النبوة من الخوارق والمعجزات الحسّيّة من قبيل تحويل العصا إلى ثعبان وفلق البحر وأمثالها، والتي تنضم إلى الخوارق العلمية للأنبياء، فمعجزة الرسل أولاً وبالذات هي العلم والعمل، والمعجزات الحسية مؤيدة وداعمة للمعجزات العقلية، ودلالة المعجزات العملية على النبوة دلالة قطعية أما المعجزات الحسية فهي بمثابة شاهد داعم للمعجزات العقلية.

❊❊❊

دلائل القرآن على نبوَّة نبيِّ آخر الزمان

إنْ قُلْتَ: كيف يدلُّ القرآن على نبوَّة سيدنا محمد ﷺ؟ وما هو الإعجاز فيه كي نستطيع أن نستدل به على نبوة النبيّ ﷺ؟

قلنا في الإجابة: إن القرآن معجزٌ وخارقٌ للعادة من عِدَّةِ وُجُوهٍ، وسنشير فيما يلي إلى وجهين منها فقط:

الأول: إعجاز القرآن من حيث نظمه، لأن نظم القرآن لم يتم الإعداد له بالتفكير والروِيّة، أي بالطريقة التي يسلكها عادةً الفصحاء والبلغاء في صياغة نظم كلامهم، سواء كانوا عرباً أو مِنْ غير العرب من خلال تعلُّمهم فنون اللغة العربية وأساليب البيان فيها والبلاغة فيها.

هذا وقد بلغ وضوح إعجاز القرآن من حيث فصاحته وبلاغته وأسلوبه حداً جعل فصحاء الجاهلية يُقَدِّمون القتال بالحروب على المعارضة بالحروف [لمواجهة تحدِّي القرآن لهم بالإتيان بمثله]. وقد دُوِّنَت كتبٌ كاملةٌ في إعجاز القرآن من ناحية الفصاحة والبلاغة، وقد ذكر كبار الأدباء بيانات ممتازة في هذا الخصوص لا تتَّسع رسالتنا المختصرة هذه لذكرها ونحيل القراء الكرام لمطالعة الكتب المصنفة في هذا المجال.

الثاني: إعجازه من حيث وضع الشرائع والأحكام وبيان الحقائق التي لا سبيل للبشر إليها، وحلِّ مشكلات الكون التي يعجز الفلاسفة والعلماء عن حلِّها بالتعليم والتعلُّم، ولا يمكن معرفتها واكتسابها إلا من طريق الوحي، وهذا الوجه هو عمدة الإعجاز في القرآن لدى أولي الألباب.

فإن قلتَ: من أين لنا أن نعلم أن شرائع القرآن وأحكامه وموضوعاته العلمية والروحية العرفانية لا تكون إلا من قِبَل الوحي ولا يمكن أن تكون نتيجةً للفكر والتعليم البشري، وبالتالي أنها تستحقّ فعلاً اسم كلام الله؟

قلنا في الإجابة: لا يمكن وضع مثل هذه الشرائع إلا بعد معرفة الله ومعرفة ما يُسْعِدُ الإنسان

وما يشقيه؛ ومثل هذه المعرفة لا تحصل إلا بمعرفة النفس الإنسانية ومعرفة ماهية جوهرها وهل توجد في الآخرة سعادة أو شقاء لهذه النفس؟ وإن وُجِدت فما هو مقدار تلك السعادة أو الشقاء؟ وما مقدار الحسنات الذي يكون سبباً للسعادة؟

وكما تحتاج معرفة تأثير الطعام أو الدواء في الصحة والمزاج إلى معرفة دقيقة بالكمية الواجب تناولها منه وزمن تناوله وكيفية استعماله فكذلك الحسنات والسيئات بحاجة إلى العلم والمعرفة بمواقعها، وقد بين القرآن كل ذلك في أحكامه وشرائعه بحد الكمال، ومن البديهي أن العلم بهذه الأمور، مثل معرفة جوهر النفس وما يسعدها وما يشقيها لا يمكن أن يحصل لأحد إلا بواسطة الوحي السماوي والتعليم الرباني.

إذا عرفنا أن القرآن الكريم قد احتوى على جميع الأمور المتعلقة برقيّ العقل وتربية النفس وبيان الدرجات والدركات في الآخرة، وطريق الوصول إلى الكمال، وحل مشكلات المبدأ والمعاد، أمكننا أن نقول بكل جزم وقطعٍ أن القرآن الكريم نزل على الرسول الأكرم عن طريق الوحي الإلهي؛ ولهذا يقول سبحانه وتعالى ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء/ ٨٨].

ويتضح هذا المعنى أكثر إذا عرفنا أن رسول الله ﷺ كان أمّيّاً لم يتتلمذ على أي معلم بشرِّي ولم يدرس في أي مدرسةٍ، ونشأ في أُمّةٍ أُمِّيَّةٍ تفتقر إلى أدنى درجة من العلوم والمعارف، ذلك لأن العرب لم يكن لهم معرفة أبداً بممارسة العلوم وبالبحث في الأشياء والموجودات مثلما كان رائجاً بين اليونانيين، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة فقال: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت/ ٤٨].

يتيمى كه نخواند ابجد دُرست *كتاب خانه هفت ملت بشست*

أي:

يتيمٌ لم يقرأ الأبجدية صحيحاً أتى بما يفوق مكتبات سبعة شعوب!

ويقول تعالى كذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ [الأعراف/ ١٥٧] ويقول

أيضاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة/ ٢].

ويمكن الاستدلال على هذا المطلب أيضاً من خلال مقارنة شريعة الإسلام بشرائع الأمم الأخرى، إذ من البديهي أنه إذا ثبتت نبوَّة الأنبياء ورسالتهم من خلال ما وضعوه من شرائع وأحكام فإنه من باب أولى أن تثبت نبوّة نبيّ الإسلام بما وضعه من شرائع، لأنه إذا طالعنا شرائع أديان الأنبياء وقارنّاها بأحكام الإسلام وعقائده أدركنا أن شريعة الإسلام تعلو وتتفوَّق على جميع الشرائع والأديان الأخرى في العالم من حيث اشتمالها على الأحكام النافعة المتضمّنة لخير الدارين وسعادة النشأتين.

ولو أردنا تفصيل هذا الكلام ومقارنة أحكام الإسلام واحداً واحداً وبيان علوها وفضلها على أحكام سائر الأديان وأردنا توضيح مزايا شريعة الإسلام ومنافعها لاحتجنا إلى تدوين كتاب ضخم من عدة مجلدات.

ولهذا السبب كان هذا الدين آخر الأديان وكانت هذه الشريعة آخر الشرائع، يقول تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب/ ٤٠]، وقال النبيُّ الأكرم ﷺ: «**لو أدركني موسى ما وسعه إلا اتّباعي**»[(١)].

ولما كانت أحكام الإسلام عامَّة، أي مفيدة لعامّة البشر وكان الإسلام قد جاء لجميع الأنام، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... ﴾ [الأعراف/ ١٥٨] وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ... ﴾ [سبأ/ ٢٨]، وقال الرسول الأكرم ﷺ: «**بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ**»[(٢)].

وأمر النبوَّة والشرائع يشابه الأطعمة التي يأكلها الناس، فكما أن هناك أطعمةٌ تناسب مزاج

---

(١) مسند أحمد (٣/ ٣٣٨ و ٣٨٧) عن جابر بن عبد الله مرفوعاً، ولفظه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي». وهو في مصنف ابن أبي شيبة، ح (٢٦٤٢١).

(٢) مسند أحمد (٣/ ٣٠٤) عن جابر بن عبد الله مرفوعاً، ضمن حديث طويل، وسنن الدارمي، كتاب السير/ باب الْغَنِيمَةِ لاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ قَبْلَنَا، وصحيح ابن حبان، ومصنف ابن أبي شيبة.

طائفة من الناس دون طائفة أخرى، وأطعمةٌ تناسب مزاج جميع الناس بلا استثناء، كذلك هناك بعض الشرائع والأحكام التي تتناسب مع مزاج وروحيات جماعة من الناس ولا تتلاءم مع معنويات وروحيات شعوب أخرى، مثل شرائع الأنبياء السابقين، وهناك شرائع تناسب مزاج وروحيات جميع الشعوب والأقوام وتتلاءم معها، مثل شريعة نبيِّ الإسلام، لذا كلَّف الله تعالى جميع الأمم والشعوب بالالتزام بهذه الشريعة وطاعتها، ولما كانت شريعة وأحكامها التي هي من أهم خصائص النبوَّة، تَفْضُلُ شرائع الآخرين وتعلو عليها كان نبيُّنا لهذا السبب أفضل الأنبياء وقد أشار النبيُّ ﷺ نفسه إلى أن الله تعالى اختصّه بذلك فقال: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلاَّ أُوْتِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأنا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(١)].

قال ابن خلدون في شرحه لهذا الحديث: «فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالةً القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد ﷺ فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقَّاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى وهو الخارق المعجز، فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه. وهذا معنى قوله ﷺ: «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أتيته وحياً أوحي إلي. فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر لوضوحها، فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والأمة.»[(٢)].

انتهى.

يتبيَّن مما ذكرناه أن دلالة القرآن على نبوّة نبّي الإسلام ليست من قبيل دلالة تحويل العصا إلى

---

(١) رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما بلفظ قريب. انظر صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن/ باب كيف نزل الوحي ح(٤٦٩٦)، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان/ ح (١٥٢). (تر)

(٢) ابن خلدون، المقدمة، المقدمة السادسة: في أصناف المدركين للغيب من البشر. (تر)

ثعبان على نبوّة موسى ولا من قبيل دلالة شفاء الأكمه والأبرص على نبوة عيسى، لأنه على الرغم من أن تلك الأعمال لم تكن أعمالاً عادية بل كانت خوارق معجزة وقابلة لإقناع عوام الناس بنبوّة فاعليها، إلا أنه ليس لها دلالة قاطعة على النبوة لأن هذه الأفعال في حال الانفراد لا توجب إطلاق النبوّة على فاعلها، أما دلالة القرآن على نبوّة نبيّ الإسلام فهي من قبيل دلالة معاجلة المرضى بنجاح على أن المعالج طبيبٌ، ومثال ذلك أن يدّعي شخصان الطبّ ويكون دليل أحدهما على صدق دعواه سيره فوق الماء، ودليل الآخر تمكنه من شفاء المرضى، فدليل الأول في هذه الحالة من قبيل الإقناع ودليل الثاني من قبيل البرهان وموجبٌ للتصديق والقطع الجازم؛ فدلالة الأفعال الخارقة للعادة على نبوة الأنبياء هي من النوع الأول، ودلالة القرآن على نبوة نبي الإسلام هي من النوع الثاني؛ وذلك لأن وظيفة الطبيب معالجة المرضى فإذا تمكن الطبيب من معالجة المرضى على أحسن وجه ثبتت طبابته وأصبحت أمراً مقطوعاً به، وكذلك وظيفة النبيّ وضع الشرائع فإذا كانت شريعته أكمل الشرائع ودينه أشمل الأديان لم يَعُدْ هناك أي شك في نبوّته، أما لو استدل الطبيب لإثبات طبابته بأمر لا يتعلق بوظيفته ومهنته كأن يثبت صحته دعواه بقدرته على السير فوق الماء فإن هذا قد يقنع العامّة لكنه ليس دليلاً في الحقيقة على صفة الطبابة، وهكذا الأفعال الخارقة للعادة تصلح سبباً لإقناع الجمهور، لكن الطريق الذي يدرك من خلاله العلماءُ نبوة شخص هو شريعته وأحكامه فقط، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ.

الوحي ونزول جبرائيل

وأقوال العلماء في ذلك وتحقيق الحق في المسألة:

اتّفق المؤرِّخون وأرباب السِّيَر على أن النبيَّ الأكرم كان متبرِّئاً من عبادة الأصنام قبل البعثة، وأنه كانت قد حُبِّبَت إليه الخلوة قُبَيل بعثته فكان يختلي في غار حراء الليالي ذوات العدد، ويمضي وقته في التفكُّر والتأمُّل بعيداً عن ضوضاء الحياة، فيتأمل في عجائب الكائنات وأسرار الخليقة ويتفكَّر في سرّ الحياة والموت والبعث والجنة والنار، فإذا نفذ زاده رجع إلى خديجة. وكان «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ

الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ. قَالَ «مَا أَنَا بِقَارِئٍ». قَالَ «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ. قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ. فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

هنا أيقن النبيُّ أن الله قد بعثه برسالة إلى الناس وأن عليه أن يبلِّغ العالم هذه الحقيقة الخالدة ويفهمهم أن لا إله إلا الله وأنه رقيبٌ على أعمال العباد و أنه سيجزي العباد المحسنين والمسيئين بعد موتهم كلٌّ حسب عمله.

بعد ذلك رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى خَدِيجَةَ، يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي». فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي». فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: «**كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ**». فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ – وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ – فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ. فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى ﷺ يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟!». قَالَ نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ[1].

بعد ذلك عاود النبيُّ ﷺ الذهاب إلى غار حراء، وذات يوم وبَيْنَا هو يمْشِي إِذْ سَمِعَ صَوْتًا

(١) القصة واردة في صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي/ الباب ١، ح ٣، بلفظ قريب مع شيء من الاختصار. (تر)

مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعَ بَصَرهُ فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَه بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبَ مِنْهُ، فَرَجَعَ فقال: زَمِّلُونِي. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥..﴾ [المدثر/ ١-٥][1].

وجاء في بعض الروايات أنه لما غطَّ جبريل النبيَّ رجع إلى منزله وهو يرتجف وقال:»زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَزَمَّلُوهُ، فنزل قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ...﴾ [المزمل/ ١-٢].

حقيقة الوحي

يقولون جمهور الملليين إن الملائكة أشخاص نورانيون وكلهم أحياء وناطقون ومتحرّكون بالإرادة وأن جبريل ملكٌ كريم وعليم وما ينزل به من كلام هو وحيٌ، و جبريل يسمع في السماء العنصرية كلمات أو يراها ويقرؤها في اللوح المحفوظ ويأمره الله بإنزالها على الأنبياء، فينزل جبريل على النبيّ ويقرأ عليه تلك الكلمات، وظاهر الشرع يدل على هذا الذي ذكرّناه.

تحقيق

يملك الأنبياء والرسل حسَّاً وشعوراً غير شعور العقل ويتمتَّعون بقوة أعلى وأقوى من قوَّة العقل، وهذا الحس أو الشعور غير موجود لدى غير الأنبياء، وبيان هذا الأمر يحتاج إلى ذكر مقدّمة:

اعتبر الفلاسفة أصول الإدراكات ثلاثة: الإحساس والتخيُّل والتعقُّل.

فالإحساس هو الإدراك الذي يحصل للنفس بواسطة الحواس الظاهرة، وشرط الإدراك الحسّي أن يكون المُدْرَك (بفتح الراء) شيئاً ماديّاً وحاضراً لدى المدرِك (بكسر الراء) كي يحصل الإدراك.

أما التخيُّل فهو إدراك يحصل للنفس بواسطة الخيال الذي يدرك الصور، ولا يُشترط فيه حضور المادة عند الإدراك.

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، الباب ١، ح ٤.

وأما التعقُّل فهو إدراك يحصل للنفس بواسطة القوّة العاقلة التي تدرك المعاني المجردة والحقائق الكّليّة.

ويرى الفلاسفة أن حقيقة الوحي هو كمال القوّة العقليّة التي يدرك بها النبّي الحقائق والمعاني بأسرع وقت من خلال الاتّصال بالعقل الفعّال، وكمال قوة التخيُّل لدى النبّي تحول تلك الصورة المجرّدة إلى موجودٍ حسّي، وتعكسه بصورة ألفاظٍ مسموعةٍ، وتنعكس حقيقة جبريل – الذي هو العقل الفعّال– في نفس النبي بصورة شخص نوراني وذلك بسبب قوة خيال النبي.

فقد اعتبروا الوحي إذن من شؤون القوة العقليّة للنبّي، واعتبروا رؤية جبريل وسماع الكلمات من تصرفات قوة الخيال ومخترعاته.

وهذا التحقيق غير مقبول ولا مرضيٍّ، إذْ يلزم عن كلام الفلاسفة أن لا يكون القرآنُ الكريم كلمات ربانيةً، وأن لا يكون لنزول جبريل حقيقةٌ، بل أن تكون نفس النبيِّ هي التي اخترعت الألفاظ المسموعة بقوّة الخيال وأن يكون شخص جبريل شبحاً من صنع القوَّة التخيُّليّة له**!!**.

گرچه قرآن از لب پيغمبر است هر كه گويد حق نگفته كافر است

أي:

رغم أن القرآن خرج من شفتي النبي لكن كلُّ من يقول إن الحقَّ لم يَقُلْه، كافرٌ

وما نريد بيانه هاهنا أن الوحي إلى الرسل يحصل من خلال نوع رابع من الإدراك وهو قوة فوق العقل، والوحي فوق التعقُّل، ويُطْلَقُ على الحاسة أو القوة التي يكتشف الأنبياء والرسل بواسطتها الحقائق، والتي هي مهبط الوحي ونزول جبريل، لفظ «**الفؤاد**»، كما صرح القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم/ ١١]، فالأنبياء والرسل رغم أنهم مصادقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف/ ١١٠]، فهم بشرٌ مثلنا يأكلون ويشربون ويمشون وينامون ويموتون، وتجري عليهم كل لوازم البشريّة، ولكنهم من ناحية الروح والنفس والقوى الباطنية والإدراك صنف خاص وممتاز من البشر. كما نشاهد أن أصناف البشر رغم اشتراكهم في حقيقة الحيوانية والناطقية يختلفون عن بعضهم اختلافاً كبيراً جداً إلى

درجة أنه يُخَيَّل للإنسان وكأنهم أنواع مختلفة، فتجد صنفاً من الناس يتَّصفون بدرجة من البلادة وضعف الذهن والبله حتى لكأنهم أدنى ذكاءً من الحيوانات، في حين تجد صنفاً آخر ذوي عقل قويٍّ وذكاء وقَّاد يجعلهم مختلفين عن الصنف الأول تماماً، وذلك كالفلاسفة والمخترعين، وتجد صنفاً متوحشاً دنيئاً وكأنه أكثر توحشاً وسَبُعِيَّةً من السباع المفترسة، في حين تجد صنفاً على درجة من الطهارة والنجابة والسلامة وكأنه أرفع من الملائكة، ولا يمكنك أن تقول إن إدراكات الفلاسفة هي عين إدراكات البُله (جمع أبله) بل يمكن القول إن هناك تضاد واضح بين الأغبياء والحمقى من البشر وبين الفلاسفة والمخترعين، وهذا الاختلاف الشديد بين أبناء البشر ـ حَدَا ببعض الفلاسفة مثل «أبي البركات» إلى الميل إلى فكرة أن البشر ـ هم في الحقيقة أنواع مختلفة وليسوا نوعاً واحداً.

وخلاصة الكلام، إذا استقرأنا أصناف البشر وجدنا أنهم شركاء في هيكل الإنسانية ولكنهم مختلفون في جوهر النفس والإدراكات والأخلاق.

فدائرة إدراك صنف الأغبياء وضعاف العقل هي المحسوسات التي تدركها الحواس الخمس الظاهرة، وقوة الخيال والواهمة، ولا تتجاوز مُدْرَكَاتهم هذه الدائرة.

أما الفلاسفة والمخترعون فلا تخرج مدركاتهم عن دائرة العقل، وإدراكاتهم عقلية. أما الأنبياء والرسل فدائرة إدراكهم فوق العقل، ورغم أن قواهم الظاهرة والباطنية في غاية القوة والشدة والكمال، إلا أن القوة التي يتعرّضون فيها على الأشياء قوة وشعور آخر، لا سبيل أبداً، للعقل والخيال والوهم إليه، فمشاهداتهم تكون بالفؤاد.

و هناك فرق جوهريٌ بين الأنبياء والفلاسفة:

فآلة الإدراك لدى الفلاسفة هي العقل، وآلة المشاهدة لدى الأنبياء هي الفؤاد، وسلسلة الرسل مفطورون على الانسلاخ عن عالم البشرية ومجبولون على التخلي عن تمام القوى. وروح الرسل الطاهرة تنسلخ، عند نزول الوحي وجبريل عليهم، انسلاخاً تاماً وتتخلّى تخلياً حقيقياً عن جميع القوى الظاهرة والباطنة؛ فهم يشاهدون عالم الغيب بقوة الفؤاد، وهذا الانسلاخ والتخلية،

يحصلان لهما بلمح البصر ويطلق على حالة الانسلاخ هذه والانقطاع عن عالم البشرية والاتصال بالملأ الأعلى وناموس العِلم المقدس الذي هو جبريل اسم «*الوحي*».

فكما يمتاز جنس البشر عن جنس الحيوانات بالنطق وإدراك الكليّات، كذلك يمتاز جنس الأنبياء عن الفلاسفة بقوة الفؤاد وسرعة الانسلاخ ومشاهدة سكان الملأ الأعلى وسماع الخطاب الرباني والكلمات السبحانية.

فإذا عرفنا أن حالة الوحي عبارة عن مفارقة عالم البشرية إلى عالم الملكية وتلقِّي كلامِ ربِّ العالمين، علمنا لماذا كانت حالة الوحي من أشد الحالات وأصعبها، كما قال تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل/ ٥]، فكان النبي يعاني من التنزيل شدَّة، وكان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً. وكان ثقل الوحي شديداً عليه إلى درجة أنه كان يشعر وكأنه يموت عند الوحي ونزول جبريل عليه، ثم يحيى من جديد عند ذهابهما عنه، ولو كانت هذه الحالة من الوحي من قوة التعقل والتخيل كما زعمه الفلاسفة لما كان هناك أي معنى للغياب عن الوعي، في حين أن الرسول الأكرم كان يعاني بعد الوحي من صداع شديد وكان يخضب رأسه بالحناء لإزالة الصداع الذي ينتابه.

إذن يتبيَّن مما ذُكر أنه لا يمكن تصوُّر وقوع الخطأ من الأنبياء في الوحي وأنه لا دخل أبداً للوهم والخيال في أمر الوحي على الإطلاق. إن هذا الشعور الرابع المقدَّس يرى الحقائق كما هي ويسمع كلمات الحق دون أي تصرُّف للخيال والوهم. والشاهد على هذا التحقيق نص كتاب الله لاسيما الآيات المباركات التالية من سورة النجم:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم/ ١]: أي قسماً بالنجم عندما يهبط. والمراد من النجم القرآن الذي أنزله الله تعالى نجوماً متفرِّقةً[1]، نجماً بعد نجمٍ وآيةً بعد آيةٍ وسورةً بعد سورةٍ، ومعنى إذا هوى:

---

(١) روى نحو هذا التفسير عطاءٌ عن ابن عباس، ورواهُ الأعمش عن مجاهد، ورُوِيَ أيضاً عن الضحاك والكلبي. انظر مثلاً تفسير مجمع البيان للطبرسي، و تفسير زاد المسير لابن الجوزي، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، ذيل تفسيرهم للآية. (تر)

نزول القرآن، والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧﴾ [الواقعة/ ٧٥ -٧٧]. وسُمِّيَ القرآن نجماً لتفرّقه في النزول و العرب تسمي التفريق تنجيماً والمُفَرَّق مُنَجَّماً، ومنه نجوم الدَّيْن، و دَيْنٌ مُنَجَّمٌ.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم/ ٢]: أي صاحبكم محمد ﷺ لم يضل ولم يخطئ فيما يقوله ولم يعتقد باطلاً أبداً.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم/ ٣]: والرسول الأكرم لا يتكلم من هوى نفسه ولا انطلاقاً من رغباته وميوله، ولا ينطق باطلاً.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم/ ٤]: بل لا ينطق إلا بما يوحيه الله إليه.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم/ ٥]: علَّمَ ملاكٌ قويٌّ (جبريل) النبيَّ ﷺ الوحي.

﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾ [النجم/ ٦]: المراد بذي المرَّة: ذو القوَّة[١]، أي: ذو قوة. والشاهد على أن «المِرَّة» معناها القُوَّة الحديث النبوي الشريف الذي يقول: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»[٢].

فمعنى الآية أن جبريل كان ذا قوّة، فاستقام على ما أُمِرَ به، أو فاستقام على صورة نفسه الحقيقية فظهر بها للنبي ﷺ [دون الصورة التي كان يتمثل بها له].

﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النجم/ ٧]: أي ظهر بالأفق الأعلى من السماء أي مَطْلِع الشمس حتى يراه النبي ﷺ. وما رآه أحد من الأنبياء في صورته المَلَكِيَّة الحقيقية غير صاحب المرتبة الختميَّة محمد ﷺ الذي رآه كذلك مرتين: [مرة في الأرض، ومرة في السماء]، ولما رآه النبيُّ في المرة الأولى على صورته الحقيقيَّة [ساداً الأفق] وقع مَغْشِيّاً عليه، فنزل جبريل في صورة الآدميين

(١) قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد. انظر تفسير ابن كثير للآية.

(٢) الكُلَيْنِيّ، «الكافي»، ج ٣/ ص ٥٦٢-٥٦٣. وفي مصادر أهل السنة رواه أبو داود في السنن برقم (١٦٣٤) والترمذي في السنن برقم (٦٥٢) عن ريحان بن يزيد عن عبد الله بن عَمْرو، و رواه النسائي في السنن (٥/ ٩٩) وابن ماجه في السنن برقم (١٨٣٩) عن سالم بن أبي الجعد عن أبي هريرة.

فضمه إلى نفسه، و وضع يداً على صدره الشريفة ويداً على كتفه وهو قوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾.

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم/ ٨]: فاقترب جبريل من النبي ﷺ بعد أن رآه مغشياً عليه، وانحنى برأسه نحوه ليكلِّمه.

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم/ ٩]: فكانت المسافة بين جبريل والنبي قَدْرَ طول قوسين فقط.

والعرب تقول: بيني وبينه قاب قوسين و قيب قوس و قاد رمح و قيد رمح أي: **مقدار** طول قوس أو رمح. وهذا كناية عن تأكيد القرب وتقرير الحب على سبيل التمثيل تقريباً إلى الأفهام، حيث كان من عادة كبار العرب إذا أرادوا تأكيد عهد وتوثيق عقد على أن لا يُنْقَضُ أبداً، خرج كلٌّ من المتعاهدين بقوسيهما فألصقا بينهما وأمسكاهما مع بعض و سحبا الكمان ورميا بسهم يريدان بذلك أن الاتفاق بينهما تم وتحقق تماماً و صداقتهما أُحكمت، فَرِضَا أحدُهما يوجب رضا الآخر وسخطه يوجب سخطه.

ففي هذه الآية إشارة إلى شدّة ارتباط النفس المحمدية بحقيقة ناموس العلم وجبريل.

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم/ ١٠]: أي بعد شدة اقتراب النبي من جبريل، أوحى جبريل ما أراد الله منه أن يوحيه إلى عبده محمد ﷺ .

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم/ ١١]: أي ما رآه فؤاد النبي كان رؤية صادقةً لم يكذب عليه فؤاده في تلك الرؤية، وقرأ بعضهم كذَّب بتشديد الذال، ومعناه أن فؤاد النبي وقلبه لم يكذِّب ما رأته عيناه، بل صدَّقه وآمن به.

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ [النجم/ ١٢]: أي أفتجادلون النبيَّ على ما رآه بأمِّ عينه؟

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم/ ١٣]: أي ولقد رأى النبيُّ جبريل مرة ثانية على صورته الأصلية الحقيقية.

﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [النجم/ ١٤-١٥]: المراد من سدرة المنتهى غاية مرتبةالحيرة، كما صرَّح الراغب الأصفهاني في مفرداته بهذا المعنى فقال: «السِّدْرُ: تحيُّر

البصر، والسادر: المتحيِّر». وكذلك قال الفخر الرازي في تفسيره الكبير: «**سدرة المنتهى هي الحيرة القصوى من السدرة، والسدرة كالركبة من الراكب عندما يحار العقل حيرةً لا حيرةَ فوقَها، ما حار النبي ﷺ وما غاب ورأى ما رأى..**».

وذلك لأن هناك نوعان من الحيرة تعرض للإنسان، حيرة وتيه يعرضان له عندما يولي ظهره للحقائق كحيرة الجهال الذين لا يعلمون شيئاً، وهذه الحيرة شقاء وغفلة وتعاسة ومذمومة جداً. وهناك حيرة أخرى هي الذهول الذي يعرض للإنسان عندما يكتشف عقله الحقائق، كما يصل العقلاء والفلاسفة إلى مقام يصابون فيه بالذهول والحيرة. ولكن شخص النبيّ لما كان يدرك بواسطة النوع الرابع من الإدراك أي شهود الفؤاد وانكشاف الحقائق للفؤاد فلا مجال لديه للحيرة التي تعرض للفلاسفة.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم/ ١٦]: المراد هنا غشيان حالة على حالة، يعني غشيان الرؤية واليقين على حالة الحيرة والذهول، فقد رأى النبيُّ ما يحتار به العقل عادةً وحصلت للنبي ﷺ عندئذ حالة المشاهدة التامة والمكاشفة اليقينية.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم/ ١٧]: أي لم يمِلْ بصر النبيِّ يمنةً أو يسرةً ولم يزغ عن الحدِّ المقرَّر له، وفي هذه الآية ثناء من الله على النبيِّ لحسن أدبه و علو همته حيث لم يلتفت في تلك الليلة إلى أي ذرة من ذرّات الكائنات، و لم يفتح بصيرة القلب إلا لرؤية جمال الحضرة الإلهية: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾! [النجم/ ١٨].

القرآن والبَعْثُ بعد الموت

تتفق جميع الشرائع السماوية والحكماء الربانيون على الاعتقاد بالبعث ويوم القيامة. وقد أقام الفلاسفة براهين عدَّة على وقوع البعث؛ إلا أنهم اختلفوا في كيفيته فقال بعضهم إنه يكون بعثاً روحياً صرفاً، وقال آخرون بل يكون بعثاً للأجسام فقط، وقال الجمهور والمحققون بل يكون البعث جسمياً وروحياً معاً.

والأمر الذي يتّفق عليه الجميع هو أن للإنسان سعادتين وشقائين: سعادةٌ وشقاءٌ دنيويان،

وسعادةٌ وشقاءٌ أخرويان، وأساس هذه المسألة عددٌ من الأصول التي يعترف بها الجميع:

١- الأصل الأول أن الإنسان أشرف المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء/ ٧٠].

٢- الأصل الثاني: أنه لم يُخلق أي مخلوقٍ عبثاً وسُدَىً، بل إنما أُوجِد لأجل فعلٍ مطلوبٍ منه يشكل ثمرة وجوده، فالإنسان الذي هو أشرف المخلوقات أحق وأولى أن لا يكون خَلْقُهُ سُدَىً بل أن يكون قد خُلق لغاية معيّنة وخاصة به، وقد صرّح الله تعالى في كتابه الكريم بوجود ثمرة و غاية من خلق المخلوقات فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص/ ٢٧]. ومدح في موضع آخر من كتابه العلماءَ لفهمهم فلسفة الكون عندما أدركوا أن السموات والأرض لم تُخلق باطلاً بل خُلِقت لغاية فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران/ ١٩٠-١٩١].

ووجود الغاية والقصد من خلق الإنسان أظهر من وجودهما في أي مخلوقٍ آخر، وهذا ما بيَّنه الله تعالى في مواضع متعددة من القرآن الكريم كما قال عزّ شأنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون/ ١١٥]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة/ ٣٦]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦].

فإذا علمنا أن الإنسان خُلِقَ لقصد عظيم وغاية مهمة، فينبغي أن نعلم أنه خُلِقَ لأجل أفعالٍ و غايةٍ خاصةٍ به، كما خُلِقَت سائر الموجودات كلٌّ لأجل غايةٍ خاصّةٍ به غير الغاية التي خُلِقَتْ لأجلها الموجودات الأخرى. والأفعال المختصَّة بالإنسان هي أفعال النفس الناطقة، ولما كانت النفسُ الناطقة جزئين أحدهما علمي والثاني عمليّ، كان من الواجب على الإنسان أن يصل إلى الكمال الأعلى لكلٍّ من تينك القوتين، وهذا يعني الوصول إلى قمّة الفضائل الأخلاقية والمعارف

النظرية الحقّة، وكل قول أو عمل يساعد النفس على الوصول إلى الكمال اللائق بها يُسَمَّى حسنة، وكل قول أو يعمل يحول دون وصول النفس إلى الكمال، يُسمَّى شرّاً وسيئةً.

والقرآن يثبت بقاء النفس بعد خراب البدن، وقد بيَّن لنا على أكمل وجهٍ مراتب ودرجات النفس ودركاتها، وأنواع اللذات والآلام الحسيّة والمعنوية، فالنفس التي ليس لها أعمال صالحة ستتألم بعد مفارقتها للبدن، ولن يكون نصيبها في الدار الآخرة سوى الحسرة والندامة على ما فاتها من تزكية النفس والتحلّي بالفضائل، كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر/ ٥٦].

وقد عبَّر القرآن عن هذه الحال في الآخرة باسم السعادة والشقاء وبيَّن لنا بأوضح العبارات درجات المؤمنين ودركات الكافرين.

وسنذكر هنا أول برهان قرآني على بقاء النفس ثم نبيِّن بعد ذلك الأدلّة على «***المعاد***» [أي القيامة]، ولاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

دليل القرآن على بقاء النفس بعد خراب البدن

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر/ ٤٢].

وجه الاستدلال في هذه الآية هو أن الله تعالى سوَّى بين النوم والموت في تعطيل فعل النفس، فإذا كان تعطيل فعل النفس في الموت ناتجٌ عن فساد النفس ذاتها، وليس ناتجاً عن تغييرٍ في آلات النفس، لوجب أن يكون سبب تعطُّل فعل النفس في النوم أيضاً هو فساد النفس ذاتها، لا فساد آلاتها، وإذا كان الأمر كذلك في النوم، للزم من ذلك أن لا تعود النفس عند الاستيقاظ إلى حالتها الأولى، لأنها [أي النفس] قد فسدت [حسب الفرض]، ولكن ما نراه في الواقع هو أن النفس تعود إلى حالها الأولى بعد الاستيقاظ، فمن هنا نعلم أن هذا التعطُّل لعمل النفس لم يعرض لذات النفس، بل كان تعطُّلاً لآلاتها، ومن البديهي والمُسَلَّم به أن تعطُّل آلة النفس ليس تعطُّلاً لذات النفس؛ فالموتُ أيضاً تعطّل لعمل النفس؛ فوجب إذن أن يكون هذا التعطُّل سببه

فساد وخراب آلة النفس لا ذات النفس، مثله مثل النوم. إذن التفكُّر في هذه الآية يثبت أن النفس غير البدن وأن خراب البدن لا يؤدي إلى خراب النفس، ولذلك قال الرسول الأكرم (ص): «خُلِقْتُمْ لِلْبَقَاءِ لا لِلْفَنَاءِ وَإِنَّمَا تَنْتَقِلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ»[1].

أدلَّةُ القرآنِ عَلَى البَعْث

أخبر الله الكريم في كتابه الحكيم بوقوع البعث والحشر. واستدلَّ على ذلك بدليل الإمكان، والمقصود من الإمكان الذي جعله القرآن دليلاً على البعث غير الإمكان الذي يذكره المتكلّمون لأن الإمكان الذي يتمسّك به المتكلّمون هو الشيء الذي لا يلزم من وقوعه محال، وهذا إمكان ذهني صرف، ومن أين لنا أن نعرف أن افتراض وجود شيء ما لا يلزم عنه محال؟ لأنه قد يكون هناك محال لذاته ومحال لغيره، فقد لا يلزم من فرض وجود شيءٍ محالٌ لذاته، ولكن قد يلزم عن وجودِهِ محالٌ لغيره، فالإمكان الذهني هو في الحقيقة العلم بعدم الامتناع وهذا لا يستلزم الإمكان الخارجي، أما الإمكان الذي يستدلّ به القرآن فهو الإمكان الخارجي، وهذا الإمكان الخارجي يظهر أحياناً من خلال وجود شيء في الخارج فعلاً، وذلك لأن الوقوع أخص من الإمكان، فإذا وجد شيء في الخارج، أصبح من البديهي أنه ممكنٌ، لأن الممتنعات لا يمكنها أن توجد في العالم الخارجي أبداً، وأحياناً يتحقّق العلم بالإمكان الخارجي لشيء بواسطة وجود نظير له في الخارج، أو وجود ما هو أكمل منه في الخارج، لأننا عندما نرى أن الأكمل موجود في الخارج، نحكم بداهةً أن الأنقص، أي الأقل كمالاً، وجوده ممكن من باب أولى، وعندما ندرك إمكانية وجود شيء في الخارج بواسطة مشاهدتنا للوجود الفعلي لنظيره أو لما هو أكمل منه، فعلينا بالضرورة أن نضم إلى هذا الإدراك قدرة الله القدير،وذلك لأنه لا يكفي لتحقّق الشيء في الخارج مجرَّد إمكانية وجوده بل لا بد من ضم قدرة الله القادر الأزلي إلى ذلك، كي يكتسي ذلك الأمر كسوة الوجود الحقيقي في عالم الخارج. ولقد استدلَّ الله تعالى على البعث بطريقة الإمكان

(١) المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٥٨ / ص ٧٨.

من عدة وجوه:

الوجه الأول: قياس العود والبعث على الابتداء قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٩]، وقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء/ ١٠٤]، والمراد من الآيتين أنه كما أوجدناكم أول مرةٍ من العدم سنعيدكم بنفس الطريقة مرَّةً ثانيةً يوم القيامة، وكذلك قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق/ ١٥]؛ فقاس الإعادة والخلق من جديد على الخلق الأول، والآيات من هذا القبيل كثيرة.

الوجه الثاني: قياس البعث على خلق السموات والأرض وأن الذي قدر على خلق السموات والأرض من العدم يقدر على البعث من باب أولى، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [الإسراء/ ٩٩]، وقال أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف/ ٣٣].

الوجه الثالث: قياس الإعادة والبعث على إحياء النباتات من الأرض بالمطر بعد موتها، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر/ ٩].

بهذه الوجوه الثلاثة استدلّ اللهُ تعالى على البعث على أساس قاعدة الإمكان الفعلي.

من أدلة القرآن الخاصَّة على البعث

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل/ ٣٨-٣٩].

وتقرير البرهان أنه من البديهيات أن هناك في العالم حقٌّ وباطلٌ وجميع الناس يبذلون جهودهم في طلب الحق وفي البحث عن الحقيقة، ونحن نرى أن هناك اختلافاتٌ شديدةٌ بين

البشر في طرق الوصول إلى الحقّ وفي ذات الحقّ نفسه، ومن البديهيّ والمسلّم به أن اختلاف الناس في الحق لا يؤدِّي إلى تبدل الحقّ أو حدوث تغيير فيه في ذاته، فاختلاف الناس فيه لا يبدِّل ماهيَّته، غاية ما في الأمر أن كل شخص يظن أنه عرف الحق وفهم الحقيقة.

وخلاصة الكلام، الحق واحدٌ، ولكن الناس يروه على أنحاء مختلفة، ولما ثبت يقيناً أن هناك حقيقة ثابتة في هذا العالم، وشاهدنا أن الناس لا يستطيعون الوصول إلى هذه الحقيقة في حياتهم الدنيا هذه، لأنهم لو وصلوا جميعاً إلى الحقيقة فعلاً كما هي، لزال الخلاف من بينهم ولاتَّحدوا وائتلفوا جميعاً. فهذا الاختلاف مركوز في فطرة البشر كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ..﴾ [هود/ ١١٨-١١٩].

ولا يزول هذا الاختلاف إلا بزوال جبلّة الإنسان هذه وتحوّلها إلى صورة أخرى، ولما ثبت أن هناك حقيقة في هذا العالم، وأننا غير قادرين على الوصول إلى الحق والحقيقة في هذه الدنيا بسبب ما لدينا من حُجُب تحجبنا عنها مثل طبيعتنا البشرية والوهم والخيال المستوليان علينا وغير ذلك: فلابد إذن من حياةٍ أخرى غير هذه الحياة تُكشف فيها الحقائق و تزول الاختلافات، وهو عالم الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق/ ٢٢].

ولو لم يكن هناك مَعَادٌ - والعياذ بالله - ولو لم تبرز الحقيقة في أيِّ يوم من الأيام للزم عن ذلك أن لا تكون للحقّ ولا للحقيقة أيّة قيمة، وأن يكون الإنسان والعالم قد خُلِقا بلا غاية ولا نتيجة، لذا فقد سمَّى الله تعالى ذلك اليوم الذي يدرك فيه الإنسانُ الحقَّ والحقيقة ويصل إليها، بيوم الحقيقة فقال: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ ؟﴾ [الحاقة/ ١-٢]، وقال عن حال أولئك الذين يصلون إلى الحقيقة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف/ ٤٣].

القيامة والمعاد من وجهة نظر القرآن

خلق الله تبارك وتعالى العالم وأبدعه لحكمةٍ وغايةٍ، فإذا اقتضت حكمته إعدام العالم وإحداث

عالم آخر بدلاً منه، فعل ذلك، وإذا اقتضت حكمته أن لا يفني العالم بل أن يُغيِّر صورته، بمعنى أن يزيل عنه صورته الحالية ويعطيه صورة أخرى جديدة، فإنه قادر على فعل ذلك أيضاً. وقضية القيامة والمعاد هي من النوع الثاني أي من قبيل تبديل صورة العالم وتغييرها، وليست من قبيل إعدام العالم وإفنائه وإيجاد عالم آخر جديد غيره، وما قاله الرسل الكرام في هذا الباب، وما نطقت به آيات القرآن والسنّة كلّه يدلّ دلالة صريحة على أنه في يوم القيامة يتغيَّر العالم وتتبدَّل السموات والأرض، لا أن العالم يفني ويبيد ويزول من الوجود نهائياً ويكتسي بالعدم الأزلي ثم يتم إيجاد عالم جديد من البداية.

إن آيات القرآن الكريم لا تُقَرِّر في هذا الصدد سوى تبدّل الصورة، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم/ ٤٨].

هذا هو المعاد الذي ينطق به القرآن، ولم يَدَعِ القرآنُ في هذا أي مجال لشبهات الملاحدة أو اعتراضات الفلاسفة، أما اعتراض الفلاسفة وإشكالهم على قول المتكلِّمين فهو وارد عليهم فعلاً، وذلك لأن المتكلِّمين أوّلوا كلمات الأنبياء حسب رأيهم وقالوا إن معنى المعاد و القيامة هو قيام الله تعالى بإفناء العالم وإعدامه تماماً، ثم إيجاده من جديد يوم القيامة.

ليت المتكلِّمين تدبَّروا القرآن وأدركوا خطأ كلامهم. لأن كلامهم المختَرَع الذي لا مُحَصَّل له أعطى مجالاً للفلاسفة والملاحدة لكي يُهَاجموا القرآن و ما جاء به النبيّ ويعترضوا بشدّة على المعاد قائلين باستحالة إعادة المعدوم أو مثيرين شبهة الآكل والمأكول وأمثالها، وقد اضطر المتكلمون – بسبب كلامهم الذي اخترعوه من عند أنفسهم – أن يجيبوا عن اعتراضات الفلاسفة بأجوبة باردةٍ وباطلة.

أما المعاد الذي يتحدَّث عنه القرآن فهو مصون من اعتراضات الفلاسفة ولا يمكن لأي عاقلٍ أن يُشْكِلَ عليه بشيء ولا أن يوردَ عليه أيَّ شبهة، ولا حتى شبهة واحدة، لأن القيامة في القرآن تبدُّل وتغيير، والموت انتقال من نشأةٍ إلى نشأةٍ أخرى، والبعث هو الخروج من هذا العالم والدخول في عالم آخر متبدِّل عن العالم السابق.

إن إحدى مصائب المسلمين تكمن في عدم انتباههم إلى نصوص القرآن الكريم وعدم إدراكهم لحقائقه وعدم تدبُّرهم آياته حقَّ التدبُّر، ولو فهموا كتاب الله كما هو ولم يُدْخِلوا فيه أفهامَهم البشرية وآراءَهم الشخصيّة لزالت معظم النزاعات، لكن للأسف لقد حُجبت عنهم نصوص القرآن بسبب الحُجُب التي لديهم.

وخلاصة الكلام، أنه ينبغي على الناس أن يُصغوا إلى كلام الله و يستمعوا إلى آياته، ثم يتعقّلوا بعد ذلك معناها كي لا يكونوا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك/ ١٠].

أقسام القيامة والساعة

القيامةُ في اصطلاح الشرع والقرآن على ثلاثة أنحاء:

١- **القيامة الكبرى**: وهي انقراض العالم الدنيوي و تبدُّله إلى عالم الآخرة، وقد نزلت آيات عديدة في القرآن حول هذا الأمر.

٢- **والساعة الوسطى**: وهي موت أهل القرن الواحد وذلك نحو ما روى أن الرسول الأكرم ﷺ رأى عبد الله بن أنيس فقال: «**إن يَطُلْ عُمْرُ هذا الغلامِ فلنْ يَمُتْ حَتَّى تَقُومَ الساعَةُ**»[1]، فقيل إنه آخر من مات من الصحابة.

٣- **والساعة الصغرى** وهي موت الإنسان، فساعة كل إنسان موته، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام/ ٣١]، وقوله سبحانه أيضاً: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام/ ٤٠]. و قد رُوِيَ

(١) روى البخاري ومسلم في صحيحيهما ما يشابهه ضمن حديث أطول عَنْ أَنَسٍ قال:.. فَمَرَّ غُلاَمٌ لِلْمُغِيرَةِ وَكَانَ مِنْ أَقْرَانِي، فَقَالَ رسول الله - ﷺ -: «إِنْ أُخِّرَ هَذَا فَلَنْ يُدْرِكَهُ الهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».. انظر البخاري (٥٨١٥) ومسلم (٢٩٥٣).

أن النبي ﷺ كان إذا هبَّت ريحٌ شديدةٌ تغيَّر لونه[١] وقال: «**تخوَّفْتُ الساعة**»، وأنه ﷺ قال: «**ما أمدُّ طرفي ولا أغضُّها إلا وأظنُّ أن الساعة قد قامت.**»[٢]، يعنى موته ﷺ. **وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ.**

❊❊❊

(١) مسند أحمد، ٦/ ١٢١، دون جملة تخوَّفْتُ الساعة. وفي رواية للبخاري في صحيحه (٤٥٥١) أن رسول الله (ص) بيَّن لعائشة أن سبب كراهيته للريح الشديدة تخوُّفه أن يكون فيها عذاب لقومه.

(٢) لم أجد لهذا الخبر أصلاً، وعلى كل حال فالمؤلف نقل هذه الفقرة – أي أقسام القيامة – من كتاب «مفردات غريب القرآن» للراغب الأصفهاني، ص ٢٤٨، مفردة «الساعة».

خاتمة الكتاب - تنبيه

لَمَّا كان المؤلف الفقيد رحمة الله عليه قد تلا - في آخر خطبة منبرية له - خطبة حجة الوداع المباركة، التي ألقاها النبيُّ الخاتم صلوات الله وسلامه عليه يوم الجمعة، يوم عرفة في السنة العاشرة من الهجرة، ثم ودَّعَ المؤلِّفُ بعد ذلك المسجد والمنبر إلى الأبد حيث استجاب لنداء ربِّه القائل: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر/ ٢٧-٢٨]، ولَمَّا كان المؤلِّفُ منذ في بداية مرضه وحتى أواخر أيام حياته قد أوصى مراراً أن توضع تلك الخطبة النبوية العظيمة في آخر الطبعة الجديدة من كتابه «**مفتاح فهم القرآن**»؛ لذا انطلاقاً من ذلك قام أحد محبي المؤلف باستخراج تلك الخطبة من الكتب الموثوقة وقام بترجمتها إلى الفارسية، وضمَّها إلى آخر كتاب «مفتاح فهم القرآن»؛ وها نحن ندرجها هنا في خاتمة هذا الكتاب امتثالاً لأمر الفقيد السعيد رضوان الله تعالى عليه، كي يستفيد منها القراء الكرام وتكون للكتاب مسك الختام، عسى أن يشمله قوله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين/ ٢٦].

خُطْبَةُ حَجَّةِ الْوَدَاعِ

الحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ وَأَحُثُّكُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَأَسْتَفْتِحُ اللهَ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ! اسْمَعُوا مِنِّي أُبَيِّنْ لَكُمْ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا فِي مَوْقِفِي هَذَا. أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ! فَمَنْ كَانَتْ

عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا وَإِنَّ رِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَإِنَّ أَوَّلَ رِبًا أَبْدَأُ بِهِ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَإِنَّ دِمَاءَ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَبْدَأُ بِهِ دَمُ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَإِنَّ مَآثِرَ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ غَيْرَ السِّدَانَةِ وَالسِّقَايَةِ. وَالْعَمْدُ قَوَدٌ وَشِبْهُ الْعَمْدِ مَا قُتِلَ بِالْعَصَا وَالحَجَرِ وَفِيهِ مِائَةُ بَعِيرٍ فَمَنْ زَادَ فَهُوَ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِأَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فِيمَا تُحَقِّرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ. أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ!

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقّاً وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقّاً. حَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ وَلَا يُدْخِلْنَ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ بُيُوتَكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ وَأَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ وَتَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ، فَإِذَا انْتَهَيْنَ وَأَطَعْنَكُمْ فَعَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْراً. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ!

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ وَلَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ مَالُ أَخِيهِ إِلَّا مِنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ. أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ! فَلَا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ فَإِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا (وفي روايةٍ لَمْ تَضِلُّوا) كِتَابَ اللهِ (وفي روايةٍ: و سُنَّةَ نبيِّه، وفي روايةٍ: وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي)، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ!

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ!

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللهَ قَدْ قَسَمَ لِكُلِّ وَارِثٍ نَصِيبَهُ مِنَ الْمِيرَاثِ وَلَا يَجُوزُ لِمُورِثٍ وَصِيَّةٌ أَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ. وَالْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ، مَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَمَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلَا عَدْلًا وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ.[1]

***

(١) المجلسيُّ، «بحار الأنوار»، ج ٧٣/ ص ٣٤٨ - ٣٥٠ نقلاً عن كتاب «تحف العقول» للحسن بن شعبة الحراني. وهذه الخطبة مروية باختلاف يسير في اللفظ وشيء من التقديم والتأخير في مصادر السيرة: انظر مثلاً: السيرة النبوية لابن هشام، ج٢/ ص ٦٠٣ - ٦٠٥. كما روتها دواوين السنة أو روت أجزاء متفرقة منها كما في صحيح مسلم، كتاب الحج/ باب حجة النبي، ح (١٢١٨)، وسنن الترمذي، ح (٣٠٨٧)، و سنن الدارمي، ج٢/ ص ٦٧، ح (١٨٥٠) من الطبعة التي حققها فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، وغير ذلك من المصادر.

مصادر الكتاب

١. تفسير التبيان	الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (٤٦٠ هـ)
٢. تفسير مجمع البيان	الطبرسي، الفضل بن الحسن (٥٤٨هـ)
٣. تفسير الطبري	الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ)
٤. تفسير الصافي	الملا محسن الفيض الكاشاني (١٠٩١هـ)
٥. تفسير المنار	السيد محمد رشيد رضا (١٣٥٤هـ)
٦. تفسير القرآن العظيم	ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (٧٧٤ هـ)
٧. تفسير الكاشفي	المولى حسين بن على الواعظ الكاشفى (٩١٠هـ)
٨. تفسير مفاتيح الغيب	فخر الدين الرازي (٦٠٦هـ)
٩. تفسير	صدر المتألهين (صدر الدين الشيرازي) (١٠٥٠هـ)
١٠. الإتقان في علوم القرآن	السيوطي، جلال الدين (٩١١هـ)
١١. الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار	الحازمي محمد بن موسى (٥٨٤هـ)
١٢. الكافي	الكُلَيْنِي محمد بن يعقوب الرازي (٣٢٩هـ)
١٣. الوافي	الملا محسن الفيض الكاشاني (١٠٩١هـ)
١٤. الإحكام في أصول الأحكام	الآمدي، سيف الدين أبو الحسن علي (٦٣١هـ)
١٥. الموافقات في أصول الأحكام	الشاطبي، أبو اسحق إبراهيم بن موسى (٧٩٠هـ)
١٦. إحياء علوم الدين	الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (٥٠٥هـ)
١٧. جواهر القرآن	الغزالي =
١٨. فضائح الباطنية	الغزالي =

١٩. الاعتقادات في دين الإمامية	الصدوق، محمد بن علي بن بابويه القمي (٣٨١هـ)
٢٠. فصل الخطاب	المفيد، محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري (٤١٣هـ)
٢١. تذكرة الفقهاء	العلامة الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهّر (٧٢٦هـ)
٢٢. كشف الغطاء	الشيخ جعفر الكبير كاشف الغطاء النجفي (١٢٢٨هـ.)
٢٣. شرح الزبدة	الفاضل الجواد الكاظمي (١٠٦٥هـ)
٢٤. اللؤلؤة (لؤلؤة البحرين)	الشيخ يوسف بن أحمد البحراني (١١٨٦هـ)
٢٥. مصائب النواصب	القاضي نور الله الشوشتري (١٠١٩هـ)
٢٦. شرح الوافية	المحقق البغدادي، السيد محسن بن الحسن (١٢٢٧هـ)
٢٧. الملل والنحل	الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ)
٢٨. الفِصل في الملل والأهواء والنِّحَل	ابن حزم الظاهري، علي بن أحمد (٤٥٦هـ)
٢٩. شواهد الربوبية	صدر المتألهين الشيرازي (١٠٥٠هـ)
٣٠. گوهر مراد (في علم الكلام، بالفارسية)	اللاهيجي، عبدالرزاق بن علي (١٠٥١هـ)
٣١. مفاتيح الغيب	صدر المتألهين الشيرازي (١٠٥٠هـ)
٣٢. السيرة الحلبية	الحلبي، علي بن إبراهيم نور الدين (١٠٤٤هـ)
٣٣. السيرة النبوية	ابن هشام، عبد الملك الحميري المعافري (٢١٣هـ)
٣٤. الصواعق المرسلة	ابن قيِّم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ)
٣٥. المفردات في غريب القرآن	الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (٥٠٢هـ)
٣٦. النهاية في غريب الحديث والأثر	ابن الأثير الجزري، المبارك بن محمّد (٦٠٦هـ)
٣٧. مثنوي معنوي	المولوي، جلال الدين الرومي محمد بن محمد (٦٧٢هـ)

٣٨. حياة محمد	محمد حسين هيكل
٣٩. التبيان في أقسام القرآن	ابن قيِّم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ)
٤٠. نقد المحصَّل	الخواجه، نصير الدين الطوسي محمد بن محمد (٦٧٢هـ)
٤١. قصة الفلسفة اليونانية	أحمد أمين (و زكي نجيب محمود)
٤٢. طرائق الحقائق (بالفارسية)	الميرزا محمد معصوم علي الشاه نعمة اللاهي الشيرازي
٤٣. التصوُّف	؟
٤٤. كشف المحجوب (بالفارسية)	الهجويري، علي بن عثمان الجلابي الغزنوي (٤٦٥هـ؟)
٤٥. فصل المقال (فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال)	ابن رشد، محمد أبو الوليد (٥٩٥هـ)

رجع المصنِّف في الواقع إلى مصادر أخرى أيضاً واقتبس منها في متن كتابه وفاته أن يذكرها في قائمة مصادره، وهي التالية:

٤٦. بحار الأنوار	العلامة المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي (١١١٠هـ)
٤٧. تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها حتى الآن	حنا أسعد فهمي، ومحمد علي مصطفى
٤٨. تلبيس إبليس	عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي البغدادي (٥٩٧ هـ)
٤٩. زاد المعاد	ابن قيِّم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ)
٥٠. مجمع الأمثال	الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (٥١٨هـ)
٥١. محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر	علاء الدين البوسنوي (١٠٠٧هـ)
٥٢. مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ)
٥٣. منهاج السنة النبوية	ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم الحراني (٧٢٨هـ)